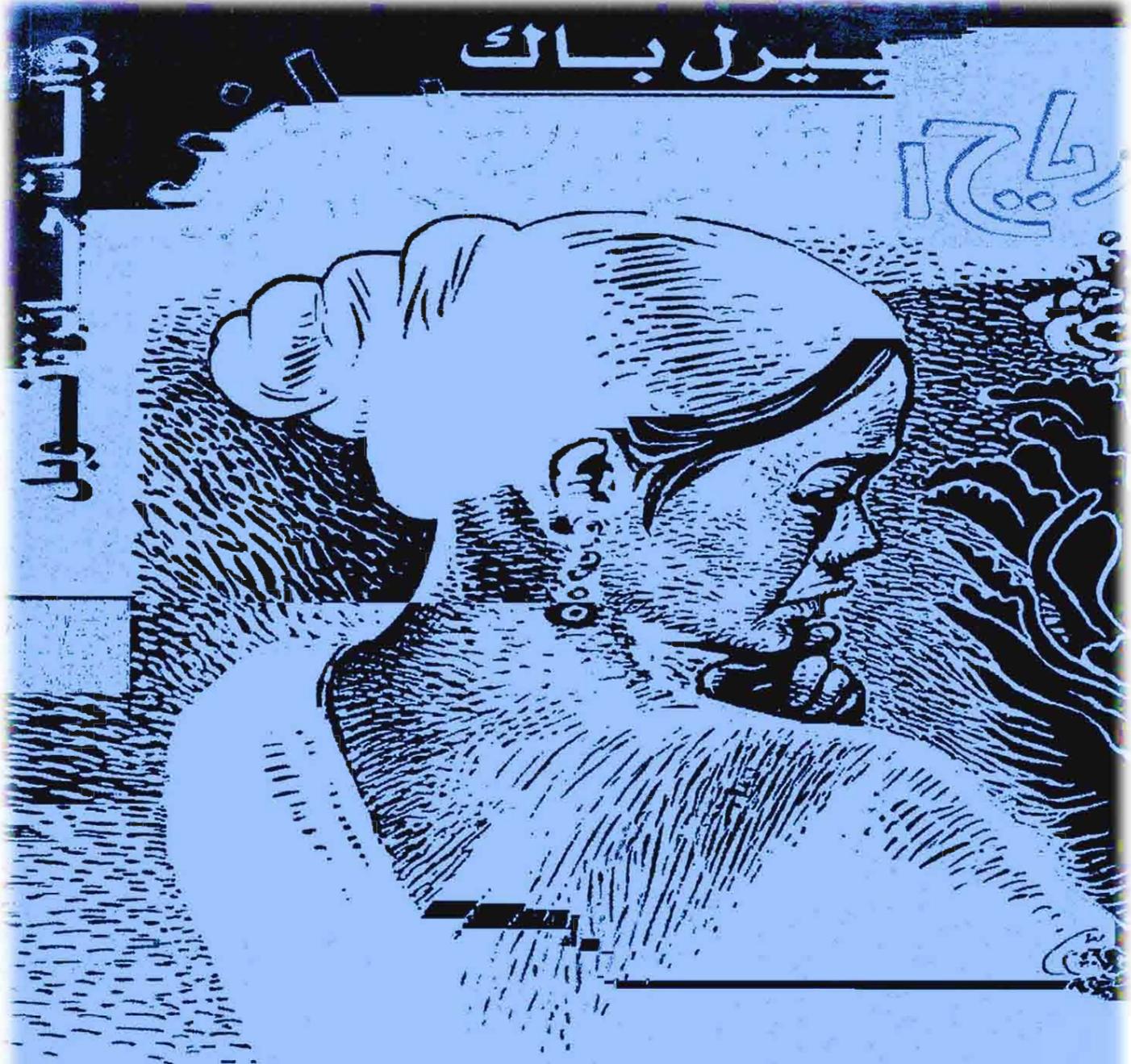


[alexandra.ahlamontada.com](http://alexandra.ahlamontada.com)

منتدى مكتبة الاسكندرية



د. غبريال وهبة

ترجمة  
ونقد

الدار المصرية اللبنانية



# روايات جائزة نوبل

سلسلة تصدرها

## الدار المصرية اللبنانية

المدير العام : محمد رشاد

رئيس التحرير : فتحى العشرى

الإعداد والصياغة : محمد فتحى

١٦ ش عبد الخالق ثروت - القاهرة

تليفون . ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣

فاكس . ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً : دار شادو

ص ب : ٢٠٢٢ - القاهرة

رقم الإيداع / ٨٥٧٠ / ٢٠٠٠

الترقيم الدولى . 5 - 610 - 270 - 977

جميع حقوق الترجمة والطبع والنشر محفوظة للناشر

الطبعة الأولى : صفر ١٤٢١ هـ - مايو ٢٠٠٠ م

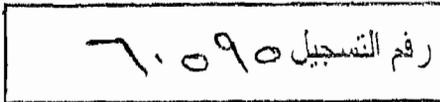


# رياح الشرق يريح الغرب

EAST WIND : WEST WIND

بيير بيك

نوبل / 1938



د. غبريال وهبة

ترجمة  
وتقديم



# 1

هذه الأشياء يمكن أن أرويها لك يا أختاه، لا يمكنني أن أتحدث هكذا إلى واحدة من بنات وطني أو إليهن، إذ إنها لن تفهم البلدان البعيدة حيث عاش زوجي اثني عشر عاماً، كما لا يمكنني أن أتكلم بصراحة إلى واحدة من النساء الأجانب اللاتي لا يعرفن شعبنا، وأسلوب الحياة التي ألفناها منذ عصر الإمبراطورية القديمة. ولكن أنت.. لقد عشتِ بيننا كلَّ سِنِي عمرِك، وعلى الرغم من أنكِ تنتمين إلى تلك البلدان الأخرى التي دَرَس فيها زوجي كتبه الغربية فإنك ستفهمين. إنني أتكلم الصدق، لقد أسميتُكِ أختي، وسأخبرك بكل شيء.

إنكِ تعلمين أن أسلافِ المبجلين قد عاشوا في هذه المدينة القديمة إبَّان المملكة الوسطى التي استمرت طوال خمسمائة عام. لم يكن هناك أحدٌ من أبناء ذلك العصر ذو نزعة حديثة، أو له رغبة في تغيير نفسه. لقد عاشوا جميعاً في هدوء وسكون ووقار، واثقين من استقامتهم وصحة رأيهم. وهكذا نَشَانِي والدائِي في ظل كل تقاليد الشرق. لم أحلم قط

بأننى يمكن أن أرغب فى أن أكون مختلفة عنهم وبدون أن أفكر فى الامر بدأ لى أننى كما كنت، فإن جميع الناس الحقيقيين كانوا مثلى وكنت إذا ما سمعتُ همساً عن نساء لايشبهننى من أنحاء نائية خارج أسوار فناء الدار ، وأنهن يَرْحَنَ وَيَجْتَنُّ بحرية مثل الرجال ، لا أنظر إليهن بعين الاحترام وكما تعلمتُ سِرْتُ على الدرب الذى رَأَقَ لَأَسْلَافِي . ولم أتأثر قط بأى شىء من الخارج، ولم أرغب البتة فى شىء على الإطلاق ، ولكن ها قد جاء الآن اليوم الذى صرْتُ أتلهف فيه على مراقبة هذه المخلوقات الغريبة – أولئك النسوة العصريات – وأنا أنشد كيف أصبح مثلهن ولم يكن يا أختاه من أجلى ، ولكن فى سبيل زوجى .

إنه لا ينسجم معى ، وهذا لأنه عَبَّرَ البحارَ الأربعة إلى بُلدان أخرى فى الخارج، وتعلَّم فى تلك المواطن النائبة أن يحب أشياء وعادات جديدة والدتى امرأة حكيمة ، ففى العاشرة من عمرى لم أعد طفلة ، وأصبحتُ فتاة عذراء ، فقالت لى تلك الكلمات :

« إن المرأة فى حضرة الرجال يجب أن تحتفظ بصمت الزهرة ، وعليها أن تنسحب مبكراً فى اللحظة الممكنة دون ارتباك »

وعلى ذلك تذكرتُ ما قالته لى حين وقفتُ أمام زوجى ، أحنيتُ رأسى، ومددتُ كلتا يديَّ أمامى ، ولم أنبس ببنت شفة حين تحدتُ معى . ولكن أوه ! لقد خفتُ أن يجد فى صَمْتِي تَبَلُّداً فى جِسِّي !

وعندما أبحث فى عقلى عن شىء يثير شوقه ، كنتُ أُلَاقِجُ بأن ذلك

الشيء عقيم فارغ ، كحقول الأرز بعد الحصاد . وحين أكون وحدي  
منشغلة بالتطريز ، فإننى أفكر فى كثير من الأشياء الجميلة الرقيقة  
لأحدِّثُ بها . سأقول له كيف أحبه ليس - كما تتذكرين - بكلمات وقحة  
أحاكى فيها الغرَبَ الجشع الضارى ، ولكن بكلمات مستترة ، مثل هذه

« سيدى ، هل لاحظتَ كيف بزغَ الفجرُ فى هذا اليوم ؟ لقد كنت كما لو  
أن الأرض المتبلدة قد قفزت لتلتقى بالشمس . كان الظلام جاثماً ، ثم  
أشرق ضوء رائع كموسيقى عذبة تنساب فجأة يا سيدى العزيز ، إننى  
أرُضُّكَ المتبلدة التى تنتظر ... » .

أو أقول له عندما يبهر فوق بحيرة اللوتس فى المساء .

« ماذا لو أن المياه الواهنة الشاحبة لم تعد تشعر كيف يثير القمر  
انتباهها؟ وماذا لو أن الموجة لم يبعث فيها ضوءه الحياة مرة أخرى  
؟ أوه يا سيدى كن حذرًا ، وَعُدْ لى سالمًا ، مخافة أن أكون ذلك الشيء  
الواهن الشاحب دونك! » .

بيد أننى لم أَقَوِّ على التَّفَوُّه بتلك الأشياء حينما يجيء متدنِّراً بملابس  
أجنبية غريبة . أو يرجع ذلك إلى أننى تزوجتُ أجنبيًّا ؟ إن كلماته قليلة ،  
ويتحدثها بلامبالاة ، وتنزلق عيناه فوقى بتعجل ، على الرغم من أننى  
أرتدى ثوباً من « الساتان » بلون الخوخ ، ورَئِيتُ شعرى المعقود حديثاً  
باللآلىء .

هذه أحزاني .. لقد تزوجتُ منذ شهرٍ عشتُ خلاله في عزلة ، وإنني  
لستُ جميلة في عينيهِ .

\*\*\*

أُختاه.. إنني أفكر الآن ملياً طوال ثلاثة أيام يجب أن استعمل المكر ،  
وأبحث عن وسيلة لجذب عينيّ زوجي نحوي . أو لستُ من سلالة أجيالٍ  
من النساء لاقين استحساناً في أعين أزواجهن ؟ لم تكن هناك واحدة  
تفتقر إلى الجمال طوال مائة عام مضت سوى واحدة فقط تدعى « كواي  
- ماي» ، التي عاشت في عصر « سونج » وأُصيبت بالجدري وهي في  
الثالثة من عمرها ، فحلف المرضى ندوباً وحفرًا في وجهها . ومع هذا فقد  
دُون في السجلات أنها على الرغم من ذلك كانت ذات عيين سوداوين  
تبدوان كلؤلؤتين، وصوت كان يهز أفئدة الرجال، كما تفعل الرياح  
بالغاب في الربيع . وقد أعزّها زوجها إعزازًا كبيرًا ، فعلى الرغم من وجود  
سِتِّ محظيات له يُناسبن ثروته وجاهه وطبقته ، فإنه لم تحظ واحدة  
منهن بمثل الحب الذي كان يَكُنُّه لزوجته وكانت « يانج كواي - فاي »  
إحدى جداتي في سلسلة أسلافي ، التي كان منقوشٌ على معصمها طيرًا  
أبيض ، كانت تسيطر على الإمبراطورية براحتي يديها المعطرتين منذ أن  
قُتِنَ الإمبراطور - ابن السماء - بجمالها . ولما كنتُ آخر أولئك النبيلات  
الشريقات المجلات ، فلا بد أن دماءهن تسرى في عروقي ، وعظامهن هي  
عظامي .

لقد تفحصتُ صورتي في مرآتي البرونزية ، لا من أجلي ، ولكن من

أجله هو ، وهأنذى أخبرك بأننى أرى أن هناك غيرى أقل منى جمالاً إن  
عَيْنِيَّ فيهما شدة بياضٍ محدد بوضوح عن سوادهما ، وَأَرَى أذُنِيَّ  
الصغيرتين تعانقان رأسى برقة ، ولذا فإن أقراطى المصنوعة من  
الأحجار الكريمة والذهب تظل معلقة على مقربة من صدغى ، وكذلك أرى  
فمى صغيراً أيضاً ، ويصنع منحنباً ينسجم مع وجهى اليبضاوى وكم  
وددتُ ألاَّ أكون بمثل هذا الشحوب ، وأن بمتد حاجباى بمقدار ثش  
بوصة صوب صدغى . إننى أصحح شحوبى بلمسة من اللون الأحمر  
الوردى على راحتى اللتتين أدلك بهما خدى . وَأزجج حاجبى بفرشاة  
مغموسة فى طلاء أسود . فييلغان حد الكمال فى دقتهما وطولهما

إننى على قَدْرِ كافٍ من الحُسن ، ومستعدة له ، ولكنه فى اللحظة التى  
تقع فيها عيناه على ، أدرك ، أنه لم يلحظ شيئاً ، لاشفتى ولا حاجبى ، إنه  
يهيم بأفكاره فوق الأرض، وعبر البحار ، وكل مكان عدا المكان الذى أقف  
فيه منتظرة إيَّاه !

\*\*\*

عندما تكهن ضارب الرمل محددًا يوم زواجى ، وحين كانت  
الصناديق الحمراء المصقولة ممتلئة إلى حافتها ، وعندما تكدست أغطية  
«الساتان» الموشى بالأزهار القرمزية عاليًا فوق المناضد ، وارتفعت  
كعكات العُرس مثل أبنية الباجودا البوذية المتعددة الطوابق ، دعتنى  
والدتى للمجىء إلى حجرتها. غسلتُ يَدَيَّ ، وسويتُ شعرى ، ودخلتُ إلى  
مقر سكنها . كانت تجلس على كرسيها الأسود المنقوش تحتسى الشاى

كان غليونها المصنوع من الغاب المطعم بالفضة يستند إلى الجدار بجوارها . وقفتُ أمامها خافضة الرأس دون أن أجرؤ على ملاقاتها عينيها ، ومع ذلك شعرتُ بنظرتها الحادة تحديق في وجهي ، وتغمر جسمي وقدمي . وقد نفذ دفتها فجأة إلى أعماق قلبي من خلال الصمت . وأخيراً أمرتني بالجلوس وراحت تتسلى بقزقزة بذور البطيخ من طبقٍ على المنضدة على مقربة منها ، وكان وجهها هادئاً بتعبيره الحزين الغامض المألوف . كانت أمي حكيمة .

قالت لي « كواي - لان ، يا بنتي . إنك على وشك أن تتزوجي الرجل الذي خطبت له من قبل أن تولدي . كان والدك والدة صديقين حميمين كما لو كانا شقيقين .. لقد أقسما على أن يرتبطا معاً من خلال أبنائهما . كان خطيبك حينذاك في السادسة من عمره . وقد ولدتِ أنتِ في غضون ذلك العام . وهكذا شاء القدر أن يكون ذلك نصيبك . لقد رُبيتِ من أجل تلك الغاية .

وطوال السبعة عشر عاماً من حياتك كانت ساعة زواجك هذه في ذاكرتي . ومن كل شيء علمتُك إياه أخذتُ بعين الاعتبار شخصين . والدة زوجك ، وزوجك . وإكراماً لها علمتُك كيف تُعدِّين الشاي وتقدمينه لمن يكبرك سنّاً ، وكيف تقفين في حضرته ، وكيف تنصتين في صمت عندما يتحدث ، سواء بالمدح أو اللوم ، وفي كل تلك الأشياء علمتُك أن تستسلمي كما تستسلم الزهرة ممتثلة للشمس والمطر على حد سواء .

ومن أجل زَوْجِكِ علمتُك كيف تجملين نفسك ، وكيف تتحدثين إليه

بعينيك المعبرتين دون أن تنفوهى بأية كلمات ، وكيف تـ..... بيد أن هذه الأشياء ستفهمينها عندما تحين الساعة وتكونين وحدك معه.

بناء على ذلك فأنتِ متمكنة من جميع واجبات السيدة الفاضلة ، حلوة الشمائل . إنك تدركين أن إعدادَ المرَبِّى والحلوى والأطعمة اللذيذة قد تفتح شهية زوجك وتغريه على تناول طعامه ، وتجعله يركز أفكاره على أهميتك ، ويقدرك حق قدرك . ولا تتوانى أبداً عن إمتاعه ببراعتك في صنع شتى الأطباق .

وأنت تعرفين عادات وسلوك وأداب المعاشرة في الحياة الأرسقراطية.. كيف تدخلين وتغادرين في حضرة مَنْ هم أعلى مقاماً ، وكيف تتحدثين مع من هُم أدنى منزلة ، وكيف تدخلين محفتك ، وكيف تُحيين والدته في وجود الآخرين .. هذا وكيف تتصرف المضيفة ، ورقة الابتسامات، وفن تزيين الشعر بالحلى والأزهار، وصبغ شفقتك وأظفارك ، واستعمالك للعطر ، وبراعة لبس أحذيتك في قدميك الصغيرتين .. وأها، لقدميك وما كلفنا من دموع ! ولكننى أعلم أنه لا يوجد أصغر منهما في جيبك . إن قَدَمَيَّ كانت أصغر قليلاً عندما كنتُ في مثل سنِّك وهذا شيء نادر . وكم أرجو أن تكون أسرة « لى » قد اهتمت برسائلى وربطت جيداً قَدَمَيَّ ابنتهم خطيبة ولدى .. شقيقك . غير أننى أخشى من هذا الأمر ، لأننى سمعتُ أنها تعلمت في الكتب الأربعة ، ولم تكن النساء اللاتى تعلمن من الحسنات على الإطلاق . يجب أن أعاود إرسال كلمة بخصوص هذه المسألة لمن توسَّط بيننا .

أمّا من جهتك يا بُنيتي ، إذا كانت زوجة ابني تضاهيك ، فلن أشكو كثيراً ، فأنت قد تعلمت العزف على الهارب القديم الذى طالما مَسَّتْ أوتارهُ برشاقة أجيالٍ من نساؤنا ليهجن أزواجهن إن أناملِكِ ماهرة، وأظفارك طويلة وقد تعلمتِ أيضاً أشهر قصائد قُدَامَى الشعراء ، ويمكنك أن تنشدينها غناءً عذباً وأنت تعزفين على آلة الهارب . وإننى لا يمكن أن أرى حماتك ، ستجد شيئاً قد فاتنى فى تربيتك ، إلا إذا لم تنجبنى لهم ولداً ! بيد أننى سأتوجه إلى المعبد، وأقدم للإلهة قرباناً إذا انقضى العام الأول دون أن تحملى «

صعد الدم إلى وجهى لا يمكننى أن أتذكر متى كنت لا أعلم شيئاً عن الولادة والأمومة ؟ إن الرغبة فى إنجاب الأولاد فى أسرة مثلنا تشمل ثلاث محظيات لأبى ، جُلُّ هَمِّهِنَّ ينحصر فى الحمل وإنجاب الأطفال، كان شيئاً عادياً لا يكتنفه أى سر أو غموض ، حتى التفكير فى ذلك من أجلى لم يجعل والدتى ترى احمرار وجنتى . لقد جَلَسْتُ مستغرقةً فى التأمل ، وعاودت التسلى مرة أخرى بقزقة لب البطيخ .

وأخيراً قالت .

– هناك شىء واحد فقط . لقد كان فى الخارج فى بلاد أجنبية ، ودرس طبها وأدويتها إننى لا أعرف .. ولكن كفى ! فالزمن كفىل بإظهار كل شىء .. انصرفى .

\* \* \*

لا أستطيع يا أختاه أن أتذكر متى تحدثت والدتي بمثل هذا الكم من الكلمات ، فهي في الواقع نادرًا ما تكلمت إلا لتُصَحِّحَ أو لتأمر . وهذا حقها، فلم تكن هناك امرأة أخرى في جناح النساء الخاص بنا تضاهيها ، فقد كانت السيدة الأولى في المكانة وقدرتها الفطرية .

لقد رأيتِ والدتي يا أختاه .. إنها - كما تتذكرين - سخيفة جدًا ، ويبدو وجهها كما لو كان منحوتًا من العاج لاصفراره وشحوبه وهدوئه . لقد قيل - كما سمعتِ - إنها كانت في شبابها قبل أن تتزوج ذات حاجبين كحاجبي الفراشة في جمالهما الأخاذ ، وشفقتين في رقة براعم أشجار السفرجل بلونها القرمزي الغامق الذي يُحاكي لون هياكل المرجان . بل إن وجهها - على الرغم من عدم اكتنازه باللحم - ما زال يحتفظ بشكله البيضاضوي الواضح كذلك الذي نراه في لوحات النساء من القدماء . وبالنسبة لعينيها فإن السيدة الرابعة ، وكانت لَسِنَّةً ، قالت عنهما ذات مرة .

« إن عَيْنِي السيدة الأولى جوهرتان حزينتان ، لؤلؤتان سودوان ، خدمتا من وفرة ما خبرته من مآسٍ ومحن ! » .

آه يا أماه !

لم يكن أحد يماثلها، عندما كنتُ في طفولتي كانت تفهم أشياء كثيرة ، وتتحرك بوقار فطري هادئ جعل المحظيات وأبناءهن يرهبونها جميعاً، ويوقرونها حينما يكونون في حضرتها . غير أن الخدم كانوا يكرهونها ،

على الرغم من أنهم يعجبون بها . واعتدت أن أسمعهم يُدمدمون تدمراً ،  
لأنهم لم يكن تسنح لهم فرص كثيرة لسرقة قطع من الطعام في المطبخ ،  
دون أن تفتن إلى هذا الأمر . ومع ذلك لم يحدث قط أن أُنبِتُهُم بصوتٍ  
عالٍ ، كما كانت المحظيات يفعلن حين يغضبن . وعندما كانت والدتي  
ترى ذلك الذى لا يرضيها ، فإن كلمات قليلة تخرج من بين شفثيها ، إلا  
أن تلك الكلمات كانت حادة ، تحمل احتقاراً وازدراءً ، تسقط على المُذنب  
كما يسقط الثلج القارس البرودة على اللحم .

\*\*\*

كانت تحنو على أختي وعليّ ، ولكنها كانت تتمسك بالشكليات ،  
وتتحفظ في التعبير عن عواطفها ، كما يقتضيه الواقع لمن كانت في مثل  
مكانتها في الأسرة . لقد انتزعت قسوة الآلهة أربعة من أبنائها الستة ،  
وهم في طفولتهم المبكرة ، ولهذا حَظِي ولدها الوحيد - أختي - بتقديرها  
واهتمامها . وطالما أنها أنجبت لوالدي ابناً واحداً حياً يرزق ، لم يكن لديه  
سبب شرعى يجعله يتذمر منها .

وفوق ذلك كانت في أعماقها فخورة بشقيقي لشخصه .

\*\*\*

هل رأيت شقيقى ؟ إنه مثل أمى بجسمه النحيل ، وعظامه الرقيقة ،  
وقامته الطويلة المستقيمة كشجرة بوص ناشئة . وكالأطفال الصغار كنا  
مُتَلَازِمِينَ معاً على الدوام ، وكان أول من علّمنى أن أسس خطوط  
الحروف المرسومة في كتابى الأول ( لتعليم مبادئ القراءة ) بفرشاتي

المبللة بالحبر . ولكنه كان صبيًا ، وأنا كنت مجرد بنت . وعندما بلغ التاسعة - وكنت أنا في السادسة -أخذه من جناح النساء إلى الجناح الذى يعيش فيه أبى . وكنا نادرًا ما نلتقى ، لأنه كلما نما وكبر اعتبرَ زيارة النساء شيئًا مخجلًا ، بالإضافة إلى أن والدتى لم تكن تشجعه على ذلك .

وأنا بلا ريب لم يكن يُسَمَح لى قط بالذهاب إلى الأبنية التى يقطنها الرجال . وعندما فصلوا شقيقى لأول مرة عن النساء ، تسللت فى إحدى المرات فى غَسَق الليل إلى بوابة القمر المستديرة التى تؤدى إلى جناح الرجال، واتكأت على الجدار المقابل ، وحدقت فيما وراء الساحة آملة أن أرى شقيقى ، ربما فى الحديقة، ولكننى رأيت فقط خدماً من الرجال ، يهرولون جيئةً وذهاباً يحملون سُلطانيات تتصاعد منها أبخرة الأطعمة الساخنة ، وحين فتحو الأبواب التى تفضى إلى جناح والدى، انسابت ضحكات صاخبة ، مختلطة بصوت رقيق لامرأة تغنى بصوت عالٍ . وعندما أغلقت الأبواب الثقيلة ران الصمت على الحديقة.

وقفتُ طويلاً أستمع إلى ضحكات المدعوين إلى الوليمة ، وهم يتناولون أطايب الطعام ، وقد اعترتنى دهشة لم تَخُلْ من حُزن ، وأنا أتساءل عَمَّا إذا كان شقيقى وسط هذا المرح وتلك المسرات البهيجة ، وفجأة أحسست بذراعى تُجَدَّب بشدة . لقد كانت «وانج دا ما » ، كبيرة خادمت والدتى، والتى صاحت .

- هل أخبر والدتك عَمَّا بَدَرَ مِنْكَ الآن ؟!

- هل رأى أحدٌ من قبل فتاةً غير محتشمة، تذهب لتختلس النظر إلى الرجال؟

لم أجسر على التحدث أكثر من أن أتمم معذرة لفرط خجلى .

- كنتُ فقط أبحث عن شقيقى !

ولكنها أجابت فى حزم .

- إن شقيقك أصبح الآن رجلاً .

ولهذا نادراً ما رأيتُه مرة أخرى .

غير أننى سمعت أنه ولوع بالدراسة ، وأصبح فى وقت مبكر بارعاً فى «الكتب الأربعة» ، و«الكلاسيكيات الخمس» ، مما دعا والدى إلى أن يهتم بتوسله وسمح له أن يلتحق بمدرسة أجنبية فى «بكين» .

وفى الوقت الذى تزوجتُ فيه كان يدرس فى الجامعة القومية ببكين، وفى رسائله التى كان يبعث بها إلى البيت، كان يرجو بإلحاح أن يُسمح له بالذهاب إلى أمريكا . وفى بادئ الأمر لم يعر والدائى أدنى صاغية لهذا الأمر، ولم توافق عليه والدتى ، ولكن أبى كان يكره ما يعكر عليه صفوه، وكنت أرى أن شقيقى بإلحاحه سيفوز بمبتغاه فى النهاية .

وفى العطلتين اللتين قضاهما فى البيت قبل رحيلى عنه، كان يتحدث كثيراً عن كتاب أسماه «العلم» . وقد شعرت والدتى بأن ذلك شيئاً يؤسف له ، لأنها ترى أن هذه المعرفة الغربية لا جدوى منها بالنسبة

لحياة سيد صيني . وفي آخر مرة جاء إلى البيت ارتدى ثياباً أجنبية فأثار استياء أمي. وعندما دخل الحجرة بمظهره الأجنبي الكئيب ، طرقت والدتي الأرض بعصاتها وصاحت

- ما هذا ؟ ما هذا ؟ ألم تَسْتَحِ أن تقابلني بمثل هذا الزي الأجنبي؟

لذا اضطررنا إلى ارتداء ثيابه الخاصة، برغم أنه كان غاضباً ، وتأخر يومين عن لقاءها ، إلى أن ضحك أبي منه ، وأمره بمقابلتها . كانت أمي محقة فشقيقي في ثيابه الصينية كان يبدو عالماً جليلاً في حين أن ساقيه اللتين كشفت عنهما في زيه الأجنبي، لم يكن يشبه شيئاً رأيناه أو سمعنا عنه في أسرتنا

بيد أنه حتى في زيارتيه لم يتحدث معي إلا نادراً لم أكن أعرف شيئاً عن الكتب التي أَحَبَّهَا ، إذ لم أتمكن من توفير الوقت لأتابع مزيداً من الكلاسيكيات لكثرة الأشياء التي شغلتنى استعداداً للزواج .

أما عن زواجه فنحن لم نتحدث عنه قط ، فذلك الأمر لا يكون لائقاً بين شاب وشابة، وقد علمت فقط من الخدم الذين يسترقون السمع أنه كان ثائراً ضد هذا الزواج ، ويمانع فيه ، مع أن والدتي حاولت ثلاث مرات تحديد يوم الزفاف ، وفي كل مرة كان يقنع والدي بتأجيل الزواج حتى يتسنى له تحصيل مزيد من العلم ، وكنت أعرف طبعاً أن خطبته كانت قد عُقدت على الابنة الثانية لآل «لى»، وهى أسرة لها مكانتها في المدينة ، لثرائها ومركزها ، وطوال ثلاثة أجيال قبلنا كان رب بيت آل «لى» ورب بيتنا حُكَّاماً لإقليمين متجاورين في المقاطعة نفسها .

- إننا بالطبع لم نكن قد رأينا خطيبته ، فهذه المسألة قد سَوَّأها أبى قبل أن يبلغ شقيقى العام الأول من عمره ، ولهذا لم يكن من اللائق لأسرتينا أن تتزاوَرَا قبل أن يتم زواج أخى . وفى الواقع لم يكن هناك حديث يتعلق بالخطيبة ، باستثناء ما سمعته فى إحدى المرات من «وانج دا ما» وهى منهمكة فى القيل والقال مع الخادِمات الأخرى ، كاشفةً أسراراً شخصية هكذا .

- مما يدعو للأسف والرثاء أن ابنة «لى» تكبر سيدنا الشاب بثلاثة أعوام. إن الزوج يجب أن يكون أرفع منزلة حتى فى السن ، ولكن الأسرة عريقة، وثرية ، و ..

ثم رأتنى فلاذت بالصمت ومضت إلى عملها .

لم أستطع أن أفهم لماذا رفض أخى أن يتزوج . لقد ضحكت المحظية الأولى حين سمعت بذلك وصاحت قائلة .

- لابد أنه وجد فتاة جميلة من منطقة «مانتشوا» ولكننى لا أعتقد أن أخى يحب أى شىء سوى كتبه. وهكذا نشأتُ وبلَّغْتُ رشدى فى ساحات النساء .

\*\*\*

وبالطبع كان هناك أطفال المحظيات ؛ ولكننى عرفتُ أن أمى تعتبرهم مجرد أفواه كثيرة تحتاج إلى الطعام ، عندما كانت توزع عليهم حصصهم اليومية من الأرز والزيت والملح ، ولم تكن تُعيرهم اهتماماً سوى إصدار

الأمر بالiardات اللازمة من قماش القطن الأزرق العادى غير المزخرف  
لثيابهم .

أما المحظيات فلم يَكُنَّ في الواقع غير نساء جاهلات لا غير ، وكثيراً ما  
يتعاركن ، وتمزقهن غير مميّة حول مكانة الواحدة منهن في تعلق أبى  
بها . لقد ألع بهن والدى في أول الأمر لجمالهن الذى لم يلبث أن ذوى  
تدرجياً ، كما تذبل الأزهارُ التى قُطفت في الربيع ، وفَقَدَنَ حظوتهن لديه  
عندما ولى جمالهن القصير الأمد ، ولكن يبدو أنهن لم يستطعن إدراك أن  
جمالهن قد زال. وكن قبل مجيئه بأيام ينهمكن في تلميع حلبيهن  
وأثوابهن. كان والدى يعطيهن نقوداً في أيام الأعياد ، وحين يواتيه الحظ  
في لعب القمار ، إلا أنهن كُنَّ يُنْفِقْنَها بعباء على الحلوى والأنبذة التى  
يُحِبُّبنها ؛ فلا يبقى لهن شىء قبل مجىء أبى ، فيقترضن النقود من  
الخدمات لشراء أحذية فيقترضن النقود من الخدمات لشراء أحذية  
جديدة وحليات لتزيين الشعر . كانت الخدمات ينظرن بازدراء  
للمحظيات ، بعد أن فَقَدَنَ حُبَّ والدى ، فيندفعن معهن في مساومات  
قاسية .

كانت أكبر المحظيات سنّاً مخلوقة بدينة قصيرة ، وكانت ملامحها  
البالغة الصغر غائرة في وجنتيها النانتتين ، ولم يكن يميزها شىء سوى  
يديها الصغيرتين الجميلتين اللتين كانت تتيه بهما فخراً ، فتغسلهما  
بالزيوت ، وتصبغ راحتيهما باللون الأحمر الوردى ، وتطلى أظفارها

البيضاوية الناعمة بصيغ الزنجفر القرمزى ، ثم تعطر يديها بعطر  
المانوليا النفاذ .

كانت أمى أحياناً تسأم من حماقة هذه المرأة وتفاهتها وزهوها  
الأجوف، وبشيء من الخبث تأمرها بأداء بعض الأعمال الخشنة من  
غسيل وحيآكة وكانت « السيدة الثانية » البدينة لا تجرؤ على العصيان ،  
غير أنها كاست تنتحب وتئن ، وتبث شكواها سرًا إلى المحظيات الأخريات  
من أن أمى تغار منها ، وتريد أن تفسد جمالها ليعزف عنها أبى ، وكانت  
تقول هذا وهى تعنى بيديها فى تلك اللحظة ، وتتفحصهما بعناية شديدة  
لترى ما إذا كان الجلد الرقيق قد أصابته خدوش أو أصبح غليظاً . ولم  
أكن أنا أحتمل أن ألمس يديها ، فقد كانتا بضّتين دافئتين ناعمتين ، تكادان  
تنصهران عند الإمساك بهما

مضى وقت طويل منذ أن كَفَّ والدى عن الاهتمام بهذه المرأة ، بيد أنه  
كان حين يجىء يمنحها نقوداً ، ويقضى ليلة فى شقتها خشية أن تصيح  
بصوت عال فى الساحات والأفنية فتضايقه وتثير السخرية منه  
بتوبيخها وكان له منها ولدان ، الأمر الذى يُحوّل لها أن تحظى ببعض  
الاهتمام .

كان ابناها بدينين ويشبهان أمهما تماماً ، ولم أكن أستحضرهما فى  
ذهنى ، إلاّ وتصورتها ياكلان ويشربان باستمرار . كانا يتناولان  
الطعام على المائدة مع الآخرين ، إلاّ أنهما يتسللان بعد ذلك إلى فناء الخدم  
ويتعاركان معهم من أجل ما تبقى من فضلات الطعام . وكانا دائمى

التجول بخبث خوفاً من والدتي، التي كان أكره شئاً لديها الجشع والشَّرَه ، ولم تكن هي نفسها تتناول أكثر من سلطانية أرز وقطعة من السمك المملح ، أو شريحة رقيقة من لحم الدجاج البارد ، ورشفة من الشاي المعطر .

إنني لا أتذكر عن السيدة الثانية أكثر من أنها كانت دائماً تخشى أن تموت. كانت تُكثر من تناول كعك السمسم المشبع بالزيت ، وعندما تسقط فريسة للمرض ، كانت ترقد وهي تئن وتتأوه في فزع شديد ، ثم تدعو الكهنة البوذيين ، وتعد بأن تمنح المعبد حليّ شعرها اللؤلؤية إذا شفّتها الآلهة. ولكنها ما إن تَبَلَّ من مرضها حتى تعاود تناول الكعك مرة أخرى وتظاهر بنسيان ما وعدت به .

وكانت المحظية الثانية « السيدة الثالثة » امرأة غامضة ، قلما تتحدث ، ولا تسهم في حياة الأسرة إلا بالنزّر اليسير . كان لها خمسة أطفال من البنات ، عدا الأصغر ، وقد أضعف هذا من معنوياتها ، وأوقع الغم في نفسها . لم تكن تعنى بالبنات ، وأهملتهن ، وكُنَّ لا يتميذن كثيراً عن الجاريات اللاتي كنا نشترين للخدمة . كانت تقضى وقتها في ركن مشمس بالفناء ترضع ابنها الثقيل الشاحب، الذي بلغ الثالثة من عمره ، وما زال عاجزاً عن الكلام والمشى ، ويكثر من البكاء ، ويمضى أيامه متعلقاً بِتَدْيِيْ أمه الطويلين المترهلين .

أما المحظية الثالثة فقد كانت أحب المحظيات إلى نفسي ، وهي راقصة صغيرة من « سوتشو » . كان اسمها الأصلي « لا - ماي » ، وهي جميلة

مثل زهرة « اللا - ماى » نفسها ، التى تنمو أزهارها الذهبية الشاحبة فوق الأغصان العارية من الأوراق فى باكورة الربيع . لم تكن تضع طلاءً على وجنتيها مثلما تفعل الأخريات ، مكتفية بتحديد حاجبيها الرفيعين باللون الأسود ، ولمسة باللون القرمزى تضعها على شفتها السفلى . وكنا قليلاً ما نراها فى بادىء الأمر ، إذ أن أبى كان فخوراً بملاحظتها ، ويصطحبها معه إلى كل مكان .

وفى العام الأخير قبل زواجى ، لآزمت البيت فى انتظار ولادة طفلها . كان ولدًا جميلًا محببًا إلى النفس ، سمينًا ، وسيماً . كنت تحمله وتضعه بين ذراعى أبيه . وهكذا ردت إليه ما طوقها به من حُبٍّ وحُبِّ .

وقبل مولد الطفل كانت « السيدة الرابعة » ذات مزاج مفعم بالإثارة ، ويرتفع رنين ضحكاتها عاليًا ، ويُنثنى على جمالها ثناء مستطابٍ أينما حلت ، وفى الواقع لم أر قط من تفوقها فتنة وملاحة . كانت ترتدى أثوابًا من الساتان بلون اليشب الأخضر ، والقטיפفة السوداء ، وتعلّق قرطين من اليشب فى أذنيها الرائعتين وكانت تزدرينا بعض الشيء ، على الرغم من كرمها الطائش ، وهى توزع علينا الكعك والحلوى التى يمنحونها إياها فى الولايم ، التى كانت تحضرها كل ليلة مع أبى . وبدا أنها لا تكاد تتناول شيئاً سوى كعكة بالسّمسم فى الصباح بعد أن يغادرها أبى ، ونصف سلطانية من الأرز ، وجزء من عودٍ من البامبو ، أو شريحة رقيقة من لحم البط المملح عند الظهر . وكانت تحب الأنبذة الأجنبية ، وتلاطف والدى

وتتملقه ليشتري لها سائلاً أُصْفَرَ باهتاً ذا فقايع فضية تندفع إلى أعلى من القاع ، كان ذلك السائل يجعلها تضحك وتكثر من الثرثرة ، وتتلاً عيناها مثل بُلُورات سوداء ، ثم تسلى أبى وتمتعه إلى أبعد حد ، فيطالبيها بأن ترقص وتغنى له .

\*\*\*

ولكن عندما كان أبى يحتفل ويقيم مأدبه ، كانت أمى تجلس فى شقتها -تقرأ أقوال كونفوشيوس الجليلة . وبالنسبة لى - حين كنت فتاة صغيرة - كنت عادة أتجول فى ليالى الحفلات هذه ، وأنا أتوق إلى اختلاس النظر ، كما فعلت ذات مرة ، عندما بحثت عن أخى من خلال الشقوق المحفورة فى بوابة القمر المستديرة إلى شقق الرجال ولكننى أعلم أن أمى لم تكن تسمح بذلك على الإطلاق ، وكنت أخجل أن أخدعها .

ومع ذلك ، فى إحدى الليالى - وأنا الآن ممثلة خجلاً من عصيانى غير اللائق بابنة ١ - تسللت سرّاً وسط الظلمة التى جثمت على ليلة من ليالى الصيف غير المقمرة ، حملت مرة أخرى من خلال البوابة وتطلعت إلى داخل شقق والدى .. لا أعرف لماذا فعلت ذلك .. لم أعد أفكر فى شقيقى .. كانت تملؤنى رغبة عجيبة غامضة ، جعلتنى قلقة متضجرة خلال اليوم الحار الطويل . وعندما هبط الليل يحمل معه الدفء والظلمة وأريج زهور اللوتس ؛ اختفى معه هدوء حجات النساء ولم يعد له وجود. تسارعت دقات قلبى عندما حملت . كانت الأبواب مفتوحة على مصاريعها ، وانساب الضوء المنبعث من مائة فانوس مخترقاً الهواء

الساكن الحار . وفي الداخل رأيت رجالاً يجلسون حول موائد مربعة ، وهم يتناولون الطعام والشراب ، والخدم يهرولون ذهاباً وإياباً وهم يحملون الطعام . وخلف مقعد كل رجل كانت تقف فتاة بقوامها الرفيع الذى يشبه قوام سيقان الكروم . ولكن « لا - ماى » كانت تجلس بجانب أبى ، وهى المرأة الوحيدة الجالسة إلى المائدة . تمكنتُ من أن أراها بوضوح تام ، وقد أفترَّ ثغرها عن ابتسامة خفيفة ، تطل من وجهها ، الذى كان مشرقاً كِيتَلَات زهرة شمعية حينما استدارت نحو أبى . قالت شيئاً بصوت منخفض وشفاتها لا تكادان تتحركان ، ثم انطلق ضحك الرجال يهدر صاخباً . لم تتغير ابتسامتها ، وظلت كما هى خفيفة رقيقة دون أن تضحك .

وفي هذه المرة اكتشفتنى أمى بنفسها ، ونادراً ما كانت تغادر البيت ، ولا حتى لكى تتمشى فى الأفنية ، غير أن ارتفاع الحرارة فى تلك الليلة دفعها للخروج ، ومكنتها عينها الحادثان من أن تقطن إئى على الفور . أمرتنى بالعودة فى الحال إلى حجرتى ، وتبعتنى إلى هناك حيث ضربتنى بشدة على راحتى يديّ بمروحتها الخيزرانية المطوية ، وسألتنى باحتقار عَمَّا إذا كنتُ قد رغبت فى مشاهدة بنات الهوى وَهَنَّ يُمَارِسْنَ مهنتهن . اعترانى الخجل وبكيت !

وفي اليوم التالى أمرت بوضع شبكة من الأصداف المعتمدة على بوابة القمر ، ولم أعد قط إلى النظر خلالها بعد ذلك .

ولكن أمى كانت على الرغم من ذلك تحنو على السيدة الرابعة . وكان

الخدم يثنون على والدتى بصوت عالٍ بسبب تحمُّلها وصبرها ولينها تجاه تلك السيدة . ولو أننى أعتقد أن المحظيات الأخريات كان يسعدهن أن يروا أمى تقسو عليها كالمتبع عادة من السيدة الأولى نحو الأخريات ، وربما كانت أمى عليمه بخفايا الأمور .

وحين وضعت السيدة الرابعة طفلها ، ظنت أن والدى بالطبع سيعاود اصطحابها معه مرة أخرى ، لم ترضع الطفل من ثديها حتى لا تشوه جمالها ، وبدلاً من ذلك سلمته لجارية قوية ، هذه الجارية كانت ضخمة القوام ، بذيئة اللسان ، إلا أن الطفل الصغير كان ينام على ثديها وفي أحضانها طوال الليل ، ومحمولاً على ذراعها طوال النهار ، وكان اهتمام أمه به قليلاً ، إلا حين تلبسه ثوباً أحمر في مهرجان أو احتفال ، وتضع في قدميه حذاءين مرسوم على كل منهما وجه قطة ، وتلاعبه لفترة قصيرة . وإذا بكى تدفع به نافذة الصبر إلى ذراعى الجارية .

بيد أن الصبى لم يشدد قبضتها على أبى ، ومع أنها ردت له شرعياً ما تدين به إليه ، فقد كانت تسعى يومياً لتدبير الحيل والمكائد للسيطرة على أحاسيسه ، كما اعتادت نساؤنا أن يفعلن ذلك ، حتى خبثها لم يكن كافياً ، ولم تعد بمثل جمالها كما كانت قبل ولادة الطفل . ترأخى وجهها الناعم اللؤلؤى إلى حدٍّ سلَّبها شبابها الغض . كانت ترتدى ثوبها الأخضر اليشبى ، وتُعلق قرطين في أذنيها ، ويُسمع لضحكاتها رنين خافت ، وبدا على والدى سروره بها كسابق عهده ، عدا أنه حين سافر في رحلته التالية لم يصطحبها معه .

أصابته دهشة ، وبدا غضبها رهيباً مفرغاً ، وعمَّ السرور المحظيات  
الأخريات في سرهن ، وابتسمن كثيراً وهن يتظاهرن بمواساها . أبدت  
أُمى بعض الشفقة عليها أكثر من المعتاد . لقد سُمعت « وانج دا ما »  
تغمغم في غضب

- آه ، نعم ، الآن سرعان ما ستحل امرأة كسول جديدة تقوم  
بإطعامها. إنه حالياً قد سئم من هذه !

ومنذ ذلك اليوم جلست السيدة الرابعة في سكينه مستغرقة في التفكير.  
لقد أصبحت مستاءة ساحظة ، تنتابها نوبات من جدّة الطبع ، وسرعة  
الانفعال ، وسدة الضجر والملل من رتابة الحياة في جناح الحريم ، وهى  
التي اعتادت الحفلات والولائم وإعجاب الرجال بها . أصبحت منقبضة  
النفس ، وحاولت فيما بعد أن تضع حدّاً لحياتها ، ولكن ذلك حدث بعد  
زواجى . ومن كل ما ذكرت يجدر ألاّ نتصور أن حياتنا في البيت كانت  
كئيبة محزنة ، حقاً لقد كانت حياة سعيدة ، وكثير من جيراننا كانوا  
يחסدون والدتى ، ولم يتوقف أبى قط عن احترامها لفكرها ومقدرتها في  
إدارة شئونه، ولم يحدث على الإطلاق أن لامته على شىء .

وهكذا كانت الحياة يسودها الاحترام والسلام .

\*\*\*

آه يا بيتى الحبيب ! إن طفولتى تمر أمامى فى صور ينيها ضوء  
النيران المنبعثة من أحد المواعد فى الأفنية ، حيث كنت أراقب براعم اللوتس

تتفتح في الفجر إلى أزهار في البركة ، وزهور الفوانيا في أوج تفتحها في حدائقها المستطيلة ، التي تتوسط الساحة بالقرب من حجرات الأسرة ، حيث يتعثر الأطفال فوق القرميد الذي يكسو أرضيتها ، وحيث الشموع بضوئها الخافت أمام آلهة البيت ، وحجرة والدتي ، حيث أرى منظرًا جانبيًا لها وجهها الصارم وهي منحنية على كتاب ، وفي الخلفية يقبع السرير الضخم الذي يعلوه ظلُّة كالعرش

ومن أعز كل هذه الأشياء قاعة الضيوف الفخمة بأرائكها ومقاعدھا الثقيلة المصنوعة من خشب الساج الأسود ، والمنضدة الطويلة ذات النقوش ، وستائر الساتان القرمزية على مداخل الأبواب ، وهناك لوحة للإمبراطور « مينج » معلقة فوق المنضدة .. وجه لا يقهر بذقنه التي تشبه منحدرًا صخريًا .. وتوجد لفيفة ذهبية ضيقة ، مُدَوَّن عليها وثيقة معلقة على كل جانب من اللوحة . والجانب الجنوبي بأكمله من القاعة مكون من إطارات نوافذ منقوشة ، وعليها شبكة من أوراق الأرز . وكانت هذه الأوراق ينبعث منها ضوء خافت ذو بريق لؤلؤي يتخلل وقار الحجرة المعتم ، ويمتد حتى عوارض السقف الثقيلة ، ويضيء حوافها القرمزية والمذهبة . إن جلوسى بهدوء في قاعة أسلافي هذه ، وأنا أراقب ضوء الشفق يهبط عليها في السكون المعتم ، كان بالنسبة لي مثل الموسيقى .

وفي اليوم الثاني للسنة الجديدة ، الذي كان يوم السيدات العظيمات

اللاتى يتبادلن فيه الزيارات ، كانت القاعة يغمرها ابتهاج ناعم رقيق  
ويأتى جَمْعٌ من السيدات على مشارف الشيوخوخة فى ملابسهن المتألقة  
تتألأ الأضواء ، وتنبعث الضحكات ، وتدور الأحاديث العادية ، ويمر  
العبيد حملون الكعك الصغير على صوانى الحلوى المطلية باللون الأحمر .  
وكانت أمى تترأس كل ذلك بكياستها الرزينة . إن أشعة الضوء العتيقة  
أطلت على المشهد نفسه على مدى مئات الأعوام .. رءوس سوداء ، وعيون  
نجلاء ، حريز وساتان بلون قوس قزح ، حليات شعر من الليشب  
والياقوت ، وفيروز وذهب ، تتوهج على الأيدى العاجية النحيلة .

آه يا بيتى الحبيب ! آه أيها الحبيب العزيز !

هأنذى أرى نفسى شكلاً بشرياً صغيراً وقوراً ، متعلقة بيد شقيقى ،  
أقف بجانب النيران فى الفناء حيث تقف آلهة المطبخ على وشك أن تُحرق .  
وكان هناك عسل قد وُضع على شفاهها الورقية لعلها تصعد إلى السماء  
تحمل كلمات حلوة ، وتنسى أن تروى عن الأوقات التى تعارك فيها  
الخدم عندما سرقوا الطعام من الأنية . وكنا نمتلىء رهبة حين يدور  
بخلدنا هؤلاء الرسل الذين سيذهبون بعيداً نحو المجهول . وكنا لا نتفوه  
بكلمة ونلوذ بالصمت .

إنى أرى نفسى فى مهرجان « التنين » وقد تدرتُ بأفضل أثوابى  
الحريرية القرنفلية اللون الخاصة بيوم العيد ، والمطرزة بأزهار البرقوق ،  
منتظرة - بشق النفس - حلول المساء حين يأتى شقيقى الذى  
سيصحبنى لأرى سفينة التنين عبرالنهر .

وأرى فانوس اللوتس المتأرجح الذى تحضره لى مربيتى العجوز فى عيد الفوانيس ، وتضحك حين يجن الليل فيثيرنى أن أضىء الشمعة الحمراء داخل الفانوس فينبعث منها الدخان .

وأشاهد نفسى أسير ببطء بجوار والدتى إلى المعبد الكبير . وهناك أرقبها وهى تضع البخور داخل الحجرة ، وأركع معها فى خشوع أمام الإله وأنا أحس بصقيع الخوف بين ضلوعى .

\*\*\*

إننى أسالكِ يا أختاه ، على مدى تلك السنين التى شكَّلتنى ، كيف تم إعدادى لمثل هذا الرجل كزوج لى ؟ كل إنجازاتى ليست ذات نفع . لقد خططتُ فى السر أننى سأرتدى المعطف الحريري الأزرق ذا الأزرار السوداء المزخرفة بالفضة ببراعة ، وسأضع زهور الياسمين فى شعرى ، وأنتعل حذاءين أسودين مطرزين باللون الأزرق . وسأحبيه حين يدخل . ولكن عندما مرَّ كل ذلك ، إذا بعينيته تهربان بسرعة صوب أشياء أخرى .. رسائله ، وكتابه .. لقد أصبحت منسية .

إن الخوف يتلوَّى داخل قلبى .. هأنذى أتذكر يوماً قبل زواجى . إنه اليوم الذى سطرت فيه أمى بخط يدها رسالتين على وجه السرعة ، إحداهما لأبى ، والأخرى لحماتى المستقبلية ، وبعثت بهما على عَجَلٍ مع البواب العجوز . لم يسبق لى قط أن رأيتها بمثل هذا القلق . وفى ذلك اليوم سمعتُ الخدم يتهامسون بأن خطيبى أراد أن يفسخ خطبتنا لأننى غير متعلمة ، ولأن لى قدمين مربوطتين . لقد انفجرت باكية ، وانهمرت

دموعى ، وذعر الخدم وأقسموا بأننى لم أكن التى تحدثوا عنها ، وإنما  
قصدوا الابنة الثانية البدينة للسيدة « تاو »

إننى أتذكر هذا الآن وأتأمل فيه ملياً وأنا قلقة ثائرة . أترانى كنت  
المقصودة ؟ إن الخدم كاذبون على الدوام ، وفوق ذلك فإننى لست غير  
متعلمة . لقد تدربت بدقة على كل ما يخص الشئون المنزلية ، وعلى العناية  
بنفسى أما بالنسبة لقدمى ، فمن المؤكد أنه ليس هناك أحد يفضل  
الأقدام الضخمة الخشنة كقدمى بنت فلاح . لم أكن أنا المقصودة لا  
يمكن أن أكون تلك التى تحدثوا عنها !



الفصل الثاني

55

## 2

حين قلت وداعًا لبيت والدتي ، وخطوت إلى المقعد الأحمر الكبير وجلست فيه لأُحْمَل إلى بيت زوجي ، لم يدر بخلدى على الإطلاق أننى قد لا أروقه ، فبالنسبة لى ، تذكرت أننى كنت سعيدة، وصغيرة، ورشيقة، وذات وجه بيضاوى يسر الآخرين حين ينظرون إليه . وهنا على الأقل لن يُصاب زوجى بخيبة أمل.

وفى أثناء الاحتفال بطقس النبيذ اختلستُ النظر إليه من خلف الخيوط الحريرية الحمراء لنقابى ، فرأيتَه يقف هناك بثيابه الأجنبية السوداء الكثيفة. كان طويلًا مستقيمًا القامة مثل عصا من البوص الغض . شعرت ببرودة وحرارة تكتنف قلبى مع بعضها البعض . كنت أتوق إلى نظرتَه الغامضة ، غير أنه لم يُدِرْ عينيه ليخترق نقابى . شربنا كئوس النبيذ معًا . وانحنينا أمام لوحات أجداده . وركعت معه أمام والديه المهيبين . لقد أصبحت ابنتهما ، تاركة أسرتى وعشيرتى إلى الأبد . لم ينظر نحوى إطلاقًا.

\* \* \*

وفي تلك الليلة - بعد أن انتهت الوليمة ، وضحكات المزاح - جلستُ وحيدة على الأريكة في حجرة العروسين ، كدت أختنق خوفاً . إن الساعة التي تخيلتها وفزعت منها واشتقت إليها طوال حياتي قد أتت . الساعة التي نظر فيها زوجي إلى وجهي لأول مرة ، وكنا وحدنا معاً كانت يداي الباردتان تضغط إحداهما على الأخرى في طية ثوبي التي تغطي الركبتين والفخذين . ثم دلف إلى الداخل ، وهو لم يزل طويلاً كثيباً وهو يتدثر بتلك الثياب الأجنبية القاتمة اتجه نحوي على الفور ، ورفع النقاب عن وجهي في صمت ، ونظر إليّ ملياً ، وهكذا تعرف عليّ ، ثم تناول إحدى يديّ الباردتين ، وكانت حكمة أُمي قد علمتني ما يلي .

« كوني باردة أكثر منك دافئة كوني في نكهة النبيذ .. أكثر من أن تكوني متخمة بحلاوة العسل آنذاك لن تضعف رغبته فيك » .

لذا مَانَعْتُ في إعطائه يدي . سحب يده في الحال وحملق في وجهي صامتاً ، ثم بدأ يتحدث بلهجة جادة وقورة .. في أول الأمر لم أستطع فهم كلماته بسبب صوته العجيب في أذنيّ ، صوت رجل هاديء عميق جعل جسدي يتورد خجلاً . ولم ألبث أن أدركت كلماته في دهشة . فماذا كان يقول ؟

« ليس من المفروض أن تتقدمي نحوي وأنت تشاهدينني لأول مرة . مثلما أشاهدك أيضاً لأول مرة . لقد أُجِبْتُ على هذا الزواج كما أُجِبت عليه . كنا لا حَوْلَ لنا ولا قوة تجاه هذا الأمر حتى الآن ، ومع ذلك

فيمكننا - ونحن وحيدان الآن - أن نخلق حياتنا طبقاً لرغباتنا ، وفيما يتعلق بى أريد أن أتبع الأساليب الحديثة ، أود أن أراك فى كل شىء على قدم المساواة معى ، ولن أُجبرك على شىء بتاتاً .. أنتِ لست من ممتلكاتى ، ولا أمتعتى ، ويمكنك أن تكونى صديقتى إذا أردتِ . »

تلك كانت الكلمات التى سمعتها فى ليلة عرسى . وقد ذهلت فى بادىء الأمر ، لأن معناها كان فوق فهمى . أنا على قدم المساواة معه ؟ لكن لماذا؟ ألم أكن زوجته ؟ إذا لم يكن أخبرنى ماذا أفعل ، فمن غيره يخبرنى؟ ألم يكن سيدى بحكم القانون ؟ لم يجبرنى أحد على الزواج منه . ماذا كان بوسعى أن أفعل إذا لم أتزوج ؟ وكيف كان يمكننى أن أتزوج بغير مادبّره والداى لى ؟ ومن ذا الذى كنت أستطيع أن أتزوجه إذا لم يكن الرجل الذى خطبت له طوال حياتى ؟ كان كل ذلك طبقاً لعاداتنا ، ولم أر فيه أى إكراه .

ثم اشتعلت كلماته فى أذنى مرة أخرى . « لقد أُجبرتُ على هذا الزواج كما أُجبرتِ عليه ! » وفجأة كاد يغشى عيى من فرط ما اعترانى من خوف . أتراه كان يريد أن يقول إنه لم يكن يرغب فى الزواج منى ؟

آه يا أختاه ! يا له من كربٍ ذلك الألم المرير !

بدأت ألقى يديى فى طية ثوبى ، دون أن أجرؤ على الحديث ، ودون أن أعرف كيف أجيب . وضع إحدى يديه فوق يديى ، ولذناً بالصمت لبرهة قصيرة . غير أننى تمنيت أن يسحب يده بعيداً . أسست بعينيهِ مسطّلتين على وجهى . وأخيراً تكلم .. كان صوته خافتاً ومريراً

- لقد حدث تمامًا ما كنت أخشاه لن تجعليني أرى فكرك الحقيقي ، ولن تستطيعي .. لن تتجاسري على الانفصال عما تعلمته من حيث ما يجب أن تقويه وتفعله في هذا الوقت . اسمعيني . أنا لا أسألك أن تتحدثي ، ولكنني أرجو منك ميزة صغيرة ، وإذا كنت مستعدة لمحاولة السير معي في الطريق الحديث ، فاحني رأسك قليلاً .

لقد راقبني بانتباه ، واستطعت أن أحس بيده مستمرة في الضغط . ماذا يعني ؟ لماذا لا تمضي الأشياء في طريقها المتوقع ؟ كنت مستعدة لأن أكون زوجته . وودت أن أكون أمًا لأبناء . آه ! ثم بدأت أحزاني .. هذا العبء الثقيل الذي بأبي أن يزايلني في ليلى ونهارى لم أعرف ماذا أفعل ؟ وفي غمرة يأسى وجهلى أحنيت رأسي

قال

- إنني شاكر

ونهض واقفاً على قدميه ، وسحب يده ، ثم أردف قائلاً :

- أستريحى في هدوء في هذه الحجرة . تذكرى أنه لن يكون هناك شىء تخافينه الآن أو في أى وقت . إننى سأنام هذه الليلة في الحجرة الصغيرة المجاورة .

واستدار بخفة ومضى إلى الخارج

\*\*\*

يا « كوان ين » يا إلهة الرحمة ، أشفقى على . أشفقى على ! فأنا طفلة .  
وكذلك صغيرة ومرتعبة في وحدتى ! لم يسبق لى البتة أن نمتُ بعيداً  
عن بيتى ، وهأنذى أنام الآن فى عِزلة ، وقد عرفت أخيراً أننى لم ألقُ  
استحساناً فى عينيه !

هرولتُ صوبَ الباب ، وقد اعتقدت فى غربتى الموحشة بأننى يمكننى  
أن أهرب وأعود إلى بيت والدتى . ولكننى حين وضعت يديّ على المزلاج  
الحديدى الثقيل عُدتُ إلى وَعْيبى فالعودة مستحيلة بالنسبة لى . حتى لو  
هربت بمعجزة عبر الأفنية المجهولة فى بيتى الجديد ، فسألتقى بالشارع  
الغريب .. حتى لو عثرت بمعجزة على طريقى إلى البوابة المألوفة ، فلن  
تفتح أبداً لتستقبلنى .. ولو أثار صوتى مشاعر البواب العجوز فسمح لى  
بالتعثر خلال أبواب طفولتى ، فستكون والدتى هناك فى انتظارى  
لتعيدنى إلى ما يحتمه الواجب على . إننى أستطيع أن أراها عنيدة صلبة  
حزينة تأمرنى بالعودة حالاً إلى بيت زوجى ، فأنا لم أعد أنتسب لأسرتها.  
خلعتُ ثوبَ الزفاف أنكد ببطء وطويته . جلستُ طويلاً على حافة  
السرير الضخم ذى الستائر خائفة أن أزحف تحت ظلالها . وكلماته  
تتقلب باضطراب جنونى فى عقلى بلا معنى . وأخيراً اندفعت الدموع إلى  
عينى ، وأسرعت رابضة تحت الأغطية ، وأخذت أنشج باكياً عدة ساعات  
حزينة مرهقة ، حتى اعترانى نوم خفيف مفعم بالقلق

وحين بدأ الفجر يبعث بضوئه الدقيق استيقظت ، وأخذنى العجب فى

أول الأمر عندما رأيت الحجرة الغربية ، ثم أحذقت بى ذكرياتى البائسة . نهضت من فراشى على عجل ، وارتديت ثيابى . ولما جاءت الخادمة بالماء الساخن ابتسمت وراحت تطلع حولها متسائلة .. استدرت جانباً وجلست كنت مسرورة لأننى تعلمتُ الكرامة من والدتى وعلى الأقل لا يجب أن يعرف أحد أننى لم أرُقُ لزوجى . وقلت .

– خذى الماء لسيدك ، إنه يرتدى ثوبه فى الحجرة الداخلية .

ارتديتُ فخورة ثوباً مطرزاً بخيوط الحرير القرمزية ، وعلقتُ قرطين ذهبيين فى أذنى

\*\*\*

دار القمر دورته منذ أن التقينا يا أختاه ! وقد اضطربت حياتى بأحداث غريبة

لقد انتقلنا من بيت أسلافه ! وقال فى جراءة : إن أمه المبجلة أوتوقراطية مستبدة ، وإنه لا يريد لزوجته أن تكون خادمة فى البيت

وفى الواقع لقد جاء كل ذلك من شىء صغير ، فحين انتهت احتفالات الزفاف قدمت نفسى لوالدته هكذا . نهضت مبكرة ودعوت جارية ، وطلبت منها أن تحضر ماءً ساخنًا ، وصبيته فى طست نحاسى ، ثم تقدمت الجارية أمامى ، ومضيت إلى حيث تجلس والدة زوجى . انحنيت وقلت لها

– أرجو أن تقبل السيدة المبجلة أن تنعش نفسها وتغتسل بهذا الماء الساخن .

كانت ترقد في فراشها .. كتلة جبلية ضخمة ملتحفة بأغطية من  
الساتان . لم أجرؤ على التطلع إليها عندما نهضت جالسة لتغسل يديها  
ووجهها .. ولما انتهت من ذلك أومأت إليّ - دون أن تتكلم - كي أنقل  
الطست وأنصرف ولا أدري ما إذا كانت يدي قد علقت بستائر السرير  
الحريرية الثقيلة، أو أن يدي قد اهتزت من جراء الخوف ، حتى أنني  
عندما رفعتُ الطست مأل فتناثر بعض الماء فوق الفراش . أحسست  
بدمي يتجمد في عروقي من الذعر . صرخت حماتي في غضب منكر عنيف

- ماذا بعد ؟ هل لزوجة الابن أن تفعل هذا ؟

عرفت أنني لا يجب أن أتكلم لأبرئ نفسي ، ولذلك استدرتُ حاملة  
الطست الذي كان يتقلقل في يديّ ، لأن الدموع حجبت الرؤية عن عينيّ ،  
وانصرفت من حضرتها . وحين خطوت خارجة من الباب كان زوجي يمر  
هناك ، ولاحظت أنه كان غاضباً لسببٍ ما . خشيت أن يؤنبني لأنني في  
أول فرصة لم أرض والدته . لم أستطع أن أرفع يديّ لأكفكف دموعي ،  
وأحسستُ بها تتجمع وتشق طريقها ، وتنحدر فوق وجنتي . غمغمتُ في  
ارتباك مثل طفلة

- إن الطست كان زلقاً ..

ولكنه طمأنني قائلاً .

- أنا لا ألومك . غير أنني لن أسمح بعد ذلك بقيام زوجتي بعمل

الخدمة . إن أمي لديها مائة من الجوارى !

حاولت أن أخبره بأننى رغبت أن أقدم لوالدته الطاعة الصحيحة التى تليق بها ، فقد أرشدتنى أمى وعلمتنى جيداً كل ما تقوم به زوجة الابن من عناية واهتمام بوالدة زوجها . أن أقف لها بأدب وأظل واقفة فى حضرتها . أن أقودها إلى أفضل المقاعد ، وأغسل برفق قدح شايها ، وأصب فيه ببطء شايًا أخضر طازجاً أقدمه لها بعناية بكلتا يديّ ، وألاًّ أرفض لها طلباً ، ويجب أن أحمل لها إعزازاً كوالدتى ، وأن أتحمّل تأنيبها لى مهما كان جائراً ظالماً دون أن أتلفظ بكلمة . وكنت مستعدة للخضوع والإذعان لها فى كل شىء . إلا أنه كان قد عقد النية على تنفيذ قراره . ولم يبال بشىء مما قلت

ولم يكن من الفروض أن يتم التغيير فى سهولة ويسر . لقد أمره والداه أن يمكث فى بيت الأسلاف طبقاً للعادة القديمة . كان والده عالماً حياً صغير الجسم ، أحنى التعليم ظهره . وبينما كان جالساً إلى يمين المنضدة فى حجرة الجلوس - تحت لوحات الأسلاف - إذ مرّ يده برفق على لحيته البيضاء الضئيلة ثلاث مرات وقال

- يا بنى أبى فى بيتى ، فما أملك هو ملكك ، وهنا طعام وفير ، وفسحة فى المكان إنك لست فى حاجة إلى تبديد قواك فى العمل الجسدى أنفق أياك فى راحة مشرفة ، وفى الدراسة التى تتفق مع مبولك ودع زوجتك ، نك الفتاة النبيلة تنجب أبناءً . إن ثلاثة أجيال من الرجال يعيشون تحت سقف واحد لمنظر يسر السماء

غير أن زوجي كان سريع الغضب ، نافذ الصبر ، ودون أن يتوقف  
لينحني لأبيه صاح قائلًا

- ولكنني أريد أن أعمل يا أبى .. لقد تدرّبتُ على مهنة علمية ، هي أنبل  
المهن في العالم الغربي ، أمّا الأبناء فليس لهم الأولوية في رغباتي . إنني  
أود أن أقدمَ ثمرة عقلي لصالح بلادى إن مجرد كلب طليق خليق بأن  
يملا الأرض بثمار جسده !

لقد سمعت بنفسى الابن يتحدث هكذا إلى والده ، وأنا أختلس النظر  
من خلال الستائر الزرقاء ، فامتألتُ رعبًا ، فلو كان الابن الأكبر ، أو لو  
كان قد تَزَبَّى في نطاق الأساليب القديمة ، كما استطاع على الإطلاق أن  
يُقاوم أباه بهذا الشكل . إن الأعوام التي قضاها في الخارج بتلك البلدان -  
حيث الصغير لا يوقر الكبير - قد جعلته يسلك ذلك السلوك غير اللائق  
بابنٍ نحو أبيه ، ولكنه في الحقيقة قال كلمات دمتة لوالديه عند رحيله ،  
ووعدهما بأن قلبه سيظل قلب ابنٍ لهما على الدوام . ومع ذلك فقد  
ارتحلنا

\*\*\*

هذا السبب الجديد لا يشبه شيئًا مما رأيت في حياتي الماصية ، فليس له  
أفنية ، هناك ففط صالة صغيرة مربعة بها مداخل الحشرات الأخرى ،  
كما يوجد سلم يرتفع منها إلى أعلى ، وعندما ارتقىنه لأول مرة خشيت أن  
أسقط من فوقه إلى أسفل مرة أخرى ، لأن قدمي لم تعتادا على سُلْمٍ بمثل

ذلك الانحدار الشديد . ولهذا جلستُ ورَلَّتُ قدمي من درجة إلى درجة ، وأنا متعلقة بالحاجز الخشبي . وشاهدت فيما بعد أن قليلاً من الدهان الجديد قد عَلِقَ بِسِترتي ، فسارعت بتغييره مخافة أن يسألني زوجي عن ذلك ، ويسخر من خوفي . إنه يضحك على نحو سريع وفجائي بصوت صاخب .. إنني أخشى ضحكه !

ومن جهة ترتيب الأثاث لم أكن أعرف كيف أضعه في مثل ذلك البيت .. لم يكن يتسع لأي شيء .. وكنت قد أحضرتُ من بيت والدتي - كجزء من بائنتي - منضدة ومقاعد من خشب الساج الصلب ، وسريراً ضخماً ، كسرير زواج والدتي . وَضَعَ زوجي المنضدة والمقاعد في حجرة ثانوية أسماها « حجرة الطعام » . أما السرير الضخم الذي ظننت أنه سيكون مهدياً لأبنائي لم يكن من المستطاع وضعه في أي غرفةٍ من الغرف الصغيرة العلوية . وأصبحت أنام على سرير من البوص مثل خادمة . أما زوجي فهو ينام في غرفة أخرى على سرير من الحديد ضيق مثل الدُّكَّة . إنني لا أستطيع أن أعتاد مثل هذه الغرائب .

وفي الحجرة الرئيسية أو التي يطلق عليها زوجي اسم « قاعة الاستقبال » وضع مقاعد اشترتها بنفسه ، وكانت أشياء غريبة مشوهة لا يشبه أحدها غيره ، بل إن بعضها قد صُنِعَ من البوص العادي . ووضع في وسط تلك الحجرة منضدة صغيرة فوقها قطعة قماش حريري بلون الحريري الطبيعي ثم بعض الكتب . يا له من قبح !

وعلى الجدران عَلِقَ صورًا مطوَّقة بإطارات لزملاء الدراسة ، وقطعة

مربعة من اللَّبَّاد عليها حروف أجنبية . سألته عمَّا إذا كانت هذه هي شهادة الدبلوم التي حصل عليها ، فأغرق في الضحك ، ثم أرانى بعد ذلك شهادة الدبلوم التي مُنحت له إنها قطعة منبسطة من الجلد ، منقوش عليها حروف سوداء غريبة . وأشار إلى اسمه الذى تلتته علامات معقوفة . كان الأولان يدلان على كليته العظيمة ، والثانيان يعنيان مقدرته كدكتور متخصص فى الطب الغربى . وتساءلت عمَّا إذا كانت تلك العلامات مساوية فى الدرجة إلى شهادتنا من الأكاديمية الإمبراطورية القديمة ، فضحك مرة أخرى وقال . إنه ليس هناك وجه للمقارنة . وهذا الدبلوم يوضع فى إطار ويغطيه لوح من الزجاج ، ويعلَّق فى أشرف مكان على الجدار ، مثل ذلك المكان الذى تعلق فيه لوحة الإمبراطور القديم « مينج » على حائط قاعة الضيوف فى منزل والدتى .

ولكن هذا البيت الغربى البشع كيف أشعر فيه أنه بيتى ؟

هذه النوافذ ذات الألواح الزجاجية الشفافة بدلاً من تلك المنقوش عليها شبكة من ورق الأرز المعتم .. وضوء الشمس الساطع الذى يتألق على الجدران البيضاء ، ويروع فجأة كل دقيقة من دقائق الغبار فوق الأثاث .. إننى لم أعتدَّ مثل ذلك الضوء الذى لا يرحم . فإذا ما جَمَلْتُ شفَتىَّ بصبغ الزنجفر القرمزى ، وطلبتُ جبهتىَّ بمسحوق الأرز الناعم - كما علمونى أن أفعل ذلك - فإن هذا الضوء يكشفنى إلى الحد ، الذى أجد فيه زوجى يقول لى :

- أرجو ألا تصبغى نفسك من أجل بهذه الطريقة ، إننى أفضّل أن أرى النساء بشكلهن الطبيعي .

إن عدم استعمال مسحوق الأرز الناعم وصبغ الزنجفر الدافئ معناه الإقلاع عن تجميل نفسى ، فأمشط شعرى دون الاستعانة بالزيت لأكسبه نعومة ، وأنتعل أحذية غير مطرزة ، ففى البيت الصينى الشبكة المنقوشة تجعل الضوء خافتاً فيسقط لطيفاً رقيقاً على وجوه النساء ، أمّا فى بيت كهذا فكيف أبدو جميلة فى عيني زوجى ؟

وفضلاً عن تلك النوافذ السخيفة ، فإن زوجى ابتاع قماشاً أبيض ، وطلب أن أصنع منه ستائر ، فأدهشنى أن هناك حفرة مستديرة أعدت فى الجدار من قبل ، وغطيت بالزجاج ، تدلى أمامها القماش !

أمّا الأرضية فقد كانت من الخشب ، وفى كل خطوة يخطوها زوجى بحذائه الأجنبى تحدث قعقعة ، عندئذ اشترى قماشاً سميكاً من الصوف ، مزيناً برسوم زهرية ، وفَرَشَهُ على الأرض على شكل مربعات كبيرة .. أذهلنى ذلك بشدة لقد خشيت أن تتسخ ، أو أن الخدم قد يبنسون فيبصقون عليها . وعندما أشرت إلى ذلك شعر بالسخط وقال لن يكون هناك بصق على الأرض فسألته

- أين إذا يبصقون إذا لم يفعلوا ذلك على الأرضية ؟

أجاب باقتضاب .

- فى الخارج إذا كان لابد من ذلك .

غير أن هذا كان عسيراً على الخدم ، وحتى بالنسبة لى فقد كنت أنسى أحياناً فأبصق قشر بذور البطيخ فوق القماش عندئذ اشترى أنية عريضة قليلة الارتفاع ووضعت في كل حجرة ، وأجبرنا على استعمالها .. والعجيب أنه شخصياً يلجأ إلى منديل ثم يعيده إلى جيبه . إنها عادة غريبة قدرة ا

\* \* \*

أواه ا هناك ساعات أود فيها أن أهرب بعيداً إذا وجدت الوسيلة .. ولكننى لم أكن أجروء على العودة إلى أمى وأواجهها في مثل هذه الظروف ، ولم يكن هناك مكان آخر أمضى إليه

مرت الأيام سراعاً ، واحداً إثر الآخر . أيام طويلة عانيت فيها من الوحدة ، فهو يعمل كما لو كان عاملاً عليه أن يكسب الأرز الذى يتناوله بدلاً من أن يعيش واقعه باعتباره ابن موظف ثرى ، يستيقظ في الصباح الباكر قبل أن تستجمع الشمس حرارتها ويمضى إلى عمله ، وأظل وحيدة حتى المساء في هذا البيت ، لم يكن هناك سوى الخدم في المطبخ ، وكنت أخجل من الاستماع إلى ما ينهمكون فيه من القيل والقال .

آه ا إننى أحياناً أرى أنه من الأفضل لو خدمت والدته ، وعشت مع شقيقات زوجى ، فهناك أستمع على الأقل إلى أصوات وضحكات ، أما هنا فالصمت يخيم على هذا البيت طوال اليوم كالضباب .

لم يكن فى استطاعتى إلا أن أجلس وأفكر وأحلم كيف أجتذب قلبه «

أستيقظُ مبكرَةً في الصباح لأعدَّ نفسي للمثول أمامه ، وحتى لو لم أنم بالليل لما أعانيه من قلق وضجر فإنني أُبكرُ في النهوض ، وأغسل وجهي بماء حار معطر ، وألينه بالزيوت ، وأضمخه بالعطور متشوفة في الصباح إلى كسب قلبه الغافل عني ، بيد أنني مهما بكرتُ في النهوض فإنني أجدّه دائماً جالساً إلى مكتبه مُكبّاً على الدراسة .

كل يوم على ذلك المنوال .. أسعل بلطف ، وأدير أكرة الباب المستديرة بخفة .. وآه لهذه المقابض الغريبة ! وكيف كان عليّ أن أديرها وأديرها مراراً لأعرف سرها .. إن صبره ينفد إزاء الضجة التي أحدثتها نتيجة ارتباكي وعدم إتقاني التعامل مع مقبض الباب ، لذا كنت أمارس التدريب عليها في غيابه ، ومع ذلك فقد كانت أصابعي تنزلق أحياناً في الصباح الباكر فوق الخزف الصيني الأملس البارد فأصاب بالذعر حين أحاول الإسراع في إدارة المقبض ، فهو يكره البطء ، ويتحرك متعجلاً حين يمشى، حتى بتُّ أخشى عليه أن يؤذي نفسه .

ولكنه لا يفعل شيئاً لحماية بدنه .. ويوماً بعد يوم حين أقدم له الشاي الساخن في صقيع الصباح يتقبله بدون أن يرفع عينيه عن الكتاب .. إنذا ما جدوى أن أرسل خادمة في الفجر لتبتاع لشعري الياسمين ناضراً ؟ وحتى شذا لا يزحف خلال صفحات الكتاب الأجنبي .. وفي كل إحدى عشرة مرة من اثنتي عشرة ، عندما أعود صباحاً في أثناء غيابه لأرى إن كان قد شرب الشاي ، فأجده لم يزحزح الغطاء عن السلطانية ، وأوراق الشاي تطفو في انتظام فوق سطح السائل الباهت . إنه لا يعبأ بشيء عدا كتبه

لقد فكرتُ ملياً في كل ما علمتنيه أُمى لإدخال البهجة والسرور على زوجى .. أعددتُ له الأطعمة اللذيذة المذاق لأستثير شهيته ، أرسلتُ خادماً فاشترى دجاجاً حديثَ الذبح ، وبراعم نبات الخيزران من هانجتشو « ، وثمارَ اليوسفى ، وسمكاً ، وزنجبيلاً ، وسكراً بنيّاً ، وصلصة فول الصويا .. وطوال الصباح أعددتُ الأطباق دون أن أنسى شيئاً ممّا قيل لى إنه يجعل الطعام شهياً ، ويزيد من نكهته الزكية . وعندما أعد كل شىء أمرت بأن تجلب هذه الأطباق فى نهاية الوجبة ، أمله أن يصيح بقوة .

- آه ! لقد احتفظت بأطايب الطعام للنهاية . إنه غداء يليق بإمبراطور !  
غير أنه حين قدمت الأطباق تناولها كجزء من الوجبة دون تساؤل .. لم يستسغها كثيراً ، ولم يتحدث عنها . جلستُ أرقبه بلهفة ، ولكنه لم يقل شيئاً ، وهو يتناول براعم الخيزران ، وكأنها كرنب من حديقة أحد الفلاحين!

وفى تلك الليلة عندما وُلَّتْ غُصَصُ خيبة أُمى ، قلتُ لِنَفْسِي :

- ربما حَدَّثَ هذا لأنه لم يكن طبقه المفضل . ونظراً لأنه لم يذكر قط ألوان الطعام الأثيرة لديه ، فسأرسِلُ إلى والدته لأستعلمَ عَمَّا كان يحبه فى صباه لذا بعثتُ بخادم ، ولكن أمه أجابت :

- قبل أن يعبرَ البحار الأربعة كان يحب لحم البط المشوى حتى يصير لونه بنيّاً ، ثم يُغْمَسُ فى عصير هلامى من ثمر الزعرور البرى ، غير أنه مُنذ السنوات العديدة التى ظل يتغذى فيها على الطعام الأجنبى ونصف

المطبوخ ، الذى تتناوله الشعوب الغربية ، فَقَدَ حاسة ذوقه ، ولم يعد  
يبالى كثيراً بالأطعمة التسهية اللذيذة

ولهذا أحجمت بعدها عن تلك المحاولة ، فليس ثَمَّةَ شىء يرتجيه  
زوجى منى لم يعد يعوزه أى شىء مِمَّا أستطيع أن أقدمه إليه .

\* \* \*

ذات مساء ، بعد أسبوعين من إقامتنا فى البيت الجديد ، جلسنا معاً فى  
قاعة الاستقبال . كان يقرأ فى أحد كتبه الكبيرة حين دخلت ، وتطلعت إلى  
الصورة فى الصفحة التى يقرأها وأنا فى طريقى إلى مقعدى ، فشاهدتُ  
صورة لجسم إنسانٍ فى وضع عمودى ، فارنعتُ ، إذ كان منزوع الجلد ،  
فصعقت ودهشت ، كيف يقرأ مثل هذه الأشياء ؟ ولكننى لم أجرؤ على  
سؤاله عنها .

جلستُ هناك على أحد مقاعد البوص الغربية دون أن أستند بظهرى  
إلى الخلف ، فقد بدا لى أنه لا يليق أن يتكىء المرء إلى الوراى أمام الغير .  
كنت مشتاقة لبيت أمى ، وتذكرت أنهم يجتمعون فى هذه الساعة لتناول  
طعام العشاء ، والمحظيات وأطفالهن الصغار بصخبهم وصراخهم ، فى  
ضوء الشموع الساطع .. إن أمى تجلس هناك على رأس المائدة ، والخدم  
يضعون - بناء على تعليماتها - أوانى الخُصَر والأرز الذى يتصاعد منه  
البخار ، ويوزعون العيدان التى يتناول بها الجميع طعامهم . كل واحد  
منهمك فى الأكل ، سعيد به . ويأتى أبى بعد تناول الوجبة ، ويلعب

أطفال المحظيات لفترة قصيرة . وبعد أن ينتهي كل ذلك ويفرغ الخدم من العمل ، فإنهم يجلسون في الفناء على مقاعد صغيرة من جذوع الأشجار بلا مساند يتهايمسون في الغسق . وتجلس أمي إلى مائدة الطعام لتحاسب رئيس الطهارة، وشمعة حمراء طويلة تلقي رشاشاً من ضوءها المتشنج عليها .

أواه .. كنت مشتاقة لأكون هناك ، فأتجول بين الزهور ، وأفحص قرون اللوتس لأرى إذا كانت البذور بداخلها قد نضجت أم لا .. كان الصيف في أواخره ، وهو موسم اللوتس تقريباً . وعندما يظهر القمر ربما سألتني أمي أن أتى بقيثارتى لأعزف لحن الأغنية ، في حين تنساق اليد اليسرى على سلم موسيقى ثانوى لمصاحبة الأنغام

وحين مرت تلك الأفكار بمخيلتي نهضت لإحضار قيثارتى . سحبتها بعناية من الحقيبة المطوية بورنيش الكك ، والمطعمة بألم اللآلئ التي نُقشت عليها صور أرواح الموسيقى الثمانية . وفي الداخل على القيثارة نفسها قطع خشبية متعددة الأشكال موفقة مع بعضها تحت الأوتار ، وتضيف كل قطعة خشبية نغماً تريباً خاصاً بها عندما تُمس الأوتار . كانت القيثارة والحقيبة تخص جدتي لأبي ، أحضرها لها والدها من «كوانجتونج» حين كفت عن البكاء بعد شد وثاق قدميها بالأربطة المحكمة .

داعبت الأوتارَ برفق فانبعث منها صوتٌ واهٍ مكتئب حزين . هذه القيثارة هي قيثارة قومي القديمة ، وينبغي العزف عليها تحت الأشجار

في ضوء القمر قرب ماء ساكن ، فهناك تطلق صوتًا صافياً عذبًا ولكن في هذه الحجرة الصامتة الأجنبية كان الصوت مختلفًا ضعيفًا ، فترددت ، ثم عزفتُ لحن أغنية قصيرة من عصر « سونج »

نظر إني زوجي وقال بصوت حنون .

- هذا بهيج قريب إلى النفس جدًا .

ثم استطرده

- إنني مسرور لأنك تستطيعين العزف عليها . سأشترى لك « بيانو »

يومًا ما ، ويمكنك أن تتعلمي عزف الموسيقى الغربية أيضًا

ثم استدار لمواصلة قراءته .. تطلعت إليه وهو يقرأ الكتاب الشبحي المروع ، وانتثيتُ أداعب الأوتار بمنتهى الرفق ، دون أن أعرف ما تبعته من أنغام . لم يسبق لي أن شاهدت « بيانو » ، فماذا عساي أن أفعل بهذا الشيء الأجنبي ؟

وعلى حين غرة لم أعد أستطيع المضي في العزف .. نحييتُ القيثارة جانبًا، وجلستُ وقد أطرقتُ برأسي ، وتدلت يداي في تراخ وكسل.. وبعد صمت طويل أغلق زوجي كتابه ، وتطلع إلي بنظرة شاملة وقال .

- « كواي - لان » ..

خَفَقَ قلبي .. كانت هذه أول مرة يناديني فيها باسمي . ترى ماذا يريد أن يقول لي أخيرًا ؟ رفعتُ عينيَّ إليه في وَجَل ، فَأَكْمَلَ حديثه قائلاً

- وددتُ منذ زواجنا أن أسألك ما إذا كُنْتِ ترغبين في حل رباط قدميك

.. إنه غير صحى لجسمك بأكمله .. انظري كيف تبدو عظامك هكذا ؟

تناول قلماً ورسم في عجالة على ورقة من كتابه شكلاً تخطيطياً لقدم عارية متشنجة ، توقع الرهبة في النفس

كيف عرف ؟ لم يسبق أن عرضتُ قدميَّ أمامه إطلاقاً . نحن النسوة الصينيات لا نعرض أبداً أقدامنا أمام الآخرين ، حتى في أثناء الليل نرتدى جواربَ بيضاء .

سألته لاهثة :

- كيف عرفت ؟

فأجاب :

- لأنني طبيب تدربتُ في الغُرب ، ثم إنني أرغب أن تحلّي وثاقهما ، لأنهما غير جميلتين ، هذا بجانب أن ربط القدمين لم يعد مطابقاً للزى الحديث .

ارتسمتُ على وجهه ابتسامة طفيفة ، ونظر إلى بشيء من الحنان .

- هل تأثرتِ بما قلت ؟

لكنني سحبتُ قدميَّ بسرعة تحت مقعدى ، فقد صعقتني كلماته .. «غير جميلتين» ؟ لقد كنت دائماً فخورة بقدميَّ الصغيرتين ! وطوال مرحلة طفولتي أشرفتُ أميَّ بنفسها على نقعهما في الماء الساخن ، وشدهما بالأربطة .. ويزداد الشدُّ يوماً بعد يوم . وعندما بكيْتُ من الألم

المبرح دَعْتَنِي إلى تذكُّر أن زوجي في يوم من الأيام سيثني على جمال  
قدميَّ

أحنيْتُ رأسي لأخفي دموعي .. تأملتُ في كل تلك الليالي المفعمة بالقلق  
الذي لا ينقطع ، وتذكرتُ الأيام التي كنت لا أقوى فيها على تناول الطعام،  
والتي عزفتُ فيها عن اللعب ، وعندما كنت أجلس على حافة فراشي وأدع  
قدميَّ المسكينتين تتأرجحان لأريحهما من انحباس الدم والآن بعد  
احتمال الألم الذي لم ينقطع إلا منذ عام فقط ، أعلم أنه يراهما قبيحتين !  
نهضت من مقعدي وأنا منفعلة وأشعر بالاختناق ، وكنتُ غير قادرة  
على إخفاء دموعي ، فقلت

- لا أستطيع .

وغادرت الحجرة .

لم يكن ذلك بسبب عنايتي الفائقة بقدميَّ ، بل لأنهما بحذاءيهما  
المطرزين ببراعة لم تلقيا حظوة في عينيه . كيف يمكن أن أمل في كسب  
حُبِّه؟

وبعد أسوعين خرجتُ لأقوم بزيارتي الأولى لبيت أمي وفقاً لتقاليدنا  
الصينية . لم يعاود زوجي الحديث عن حل وتاق قدميَّ ، كما لم يُناديني  
باسمي مرة أخرى .



### 3

ألم تتعبي يا أختاه<sup>٩</sup> إذًا سأواصل الحديث !

ومع أنني كنتُ بالخارج لمدة قصيرة ، فقد بدا لي أن مائة قمر دخلت في المحاق منذ أن اجتزّت البوابة المألوفة وأنا محمولة فوق مقعد زفاني . كنت حينئذٍ لأمل سوى القليل ، وخشيت الكثير ، أمّا الآن فعلى الرغم من عودتي كامرأة متزوجة بصفبرة ملفوفة ، وبجبهة عارية من « شراريب » القماش التي تتزين بها البنات ، إلا أنني أعرف قبل كل شيء أنني نفس الفتاة . لكنني فقط أكثر خوفًا ، وأكثر إحساسًا بالوحدة ، وأقل أملًا

جاءت أمي إلى الفناء الأول لتلاقيني وهي تتكىء على خيزرانتها الطويلة ، ومعها غليونها الفضي . بدتُ مُتعبَةً وأكثر حذرًا من ذي قبل ، أو ربما كان مرَدُّ ذلك إلى أنني لم أكن أراها يوميًا ، وعلى أية حال فقد جذبتني إليها لمسة أسى تجول في عينيها ، الأمر الذي جعلني - بعد أن انحنيتُ أمامها - أتجرأ على إمساك يدها . استجابت لي بضغطة خفيفة ، وسرنا معًا عائدين إلى فناء الأسرة .

أوه .. كم كنتُ أُحَدِّقُ وأتفرس في كل شيء ، فقد تراءى لى أن ثمة تغيرًا كبيراً قد حدث . في حين أن كل شيء كان باقياً على حالته الطبيعية مُرتَّباً هادئاً كالعادة في الأفنية ، عدا ضحكات أطفال المَحْظِيَّات ، وهرولة الخدم المنهمكين في عملهم بنشاط صاحب، وهم يبتسمون ويصيحون تحية لى عندما لمحونى

كانت شمس مطلع الخريف تُرسل أشعتها التى تسقط عبر أحواض الأزهار والقرميد المصقول في الأفنية ، وتتألق فوق الشجيرات وأحواض الماء ، وكانت الأبواب والنوافذ في الناحية الجنوبية للحجرات مفتوحة ليتسرب من خلالها الضوء والحرارة ، وكانت الشمس المتسللة ترسم أشكالاً بأشعتها على طرف الخشب المنقوش ، وعلى الرغم من معرفتى بأن مكانى لم يعد هنا ، فإن روى استراحت مع ذلك في بيتها الحقيقى .

ولكننى افتقدتُ فقط شيئاً واحداً ، وجهًا مليحًا مثيلاً ، فسألت :

- أين السيدة الرابعة ؟

نادت أُمى عبداً ليملاً لها غليونها بالتبغ ، ثم أجابتنى عرضاً .

- « لا - ماى » ؟ أه .. أرسلتها في زيارة للريف لتغير الهواء .

وكان ما عرفته من لهجتها أفضل من أن أوصلَ الأسئلة . ولكننى فيما بعد حين تهيأت للنوم في الماء في حجرة طفولتى ، جاءت العجوز « وانج دا ما » لتمشط شعرى وتضفره كما اعتادت أن تفعل على الدوام ، وفي أثناء ترثرتها عن أشياء كثيرة أخبرتنى أن أبى كان يفكر في اتخاذ محظية جديدة ، فتاة من « بكين » تعلمت في « اليابان » ، وحين سمعت السيدة الرابعة بذلك ابتلعت أحسنَ أقرانها المرصع باليشب ، ولم تخبر

أحدًا ، على الرغم من شدة ما قاسته ، ثم اكتشفت أُمى الأمر .

كانت الفتاة على شفا الموت ، ولم يتمكن الطبيب العجوز من أن يفعل شيئًا ، برغم أنه وخز رسغيها وكاجليها بالإبر .. اقترح أحد الجيران إدخالها المستشفى الأجنبي ، غير أن والدتي لم تأخذ ذلك بعين الاعتبار ، فلم نكن نعرف شيئًا عن الأجانب . ثم كيف يتسنى لأجنبي أن عرف علة شخص صيني ؟ فالأطباء الأجانب قد يفهمون أمراض مواطنيهم الذين يُعتبرون بسطاء أو هجميين تمامًا إذا قُورنوا بما عليه الصينيون من رُقَى وتهذيب . وقد تصادف أن أخی كان في البيت لحضور مهرجان القمر الثامن ، فاستدعى امرأة أجنبية طيبة ، جاءت ومعها آلة غايّة في الغرابة متصلة بأنبوبة دفعتها في حلق السيدة الرابعة ، فصعدت الأقرط على الفور أصابت الدهشة الجميع ، عدا المرأة الأجنبية التي حزمت أدواتها وانصرفت بهدوء .

كانت المحظيات الأخريات غاضبات من السيدة الطريفة لابتلاعها أفضل أقرطها ، فسألته البدينة

- ألم يكن بوسعك أن تأكلى عملية من عيدان الثقاب التي يمكن شراؤها بعشر قطع من العملات الصغيرة ؟

لم يكن لدى السيدة الرابعة ما تقوله . وقالوا . إن أحدًا لم يرها تأكل أو سمعها تتحدث وهى تتماثل للشفاء . كانت ترقد على فراشها وقد أسدلت الستائر . لقد خسرت كثيرًا في تعاملها مع الأخريات بسبب محاولتها التي باءت بالفشل ، ولهذا أشفقت أُمى عليها فأرسلتها بعيدًا لتتنجو من توتر العلاقات بينها وبين النساء .

وعلى كل حال فإن مثل تلك الأمور كانت مثار ثرثرة صغيرة في البيت ، ولم يكن لها موضع في حديثي مع والدتي ، ولكن نظرًا لما أكنه من حب عميق للبيت ، شعرت أنني يجب أن أعرف تفاصيل كل شيء . وهكذا أصغيتُ إلى ثرثرة « وانج دا ما » ، لقد عاشت بيننا طويلاً حتى أصبحت تعرف كل أمورنا . وقد جاءت مع والدتي من بيتها البعيد في « شانسي » عندما تزوج أبي ، وهي التي تلقفت بين ذراعيها الأطفال الذين وضعتهم أمي . وعندما تموت والدتي فإنها ستذهب عند زوجة أخي لتعني بأحفاد أمي .

بيد أن هناك أمراً واحداً سمعتُ به ، وكانت له أهمية أكثر من أن تكون عابرة ، فقد قرر أخي أن يسافر إلى الخارج - إلى أمريكا - لمزيد من الدراسة لم تقبل لي أمي شيئاً عن ذلك ، غير أن « وانج دا ما » أخبرتني همساً حين أحضرت لي الماء الساخن في صبيحة اليوم الأول لعودتي إلى هنا ، بأن أبي قد ضحك من أفكار ابنه الجديدة ، ولكنه لم يلبث في النهاية أن أبدى موافقته على سفره ، لأنه أصبح من السائد حديثاً أن يرسل المرء أبنائه ليدرّسوا في الخارج ، ويفعل أصدقاؤه ذلك .

حزنت أمي حزناً موجعاً عندما بلغها ذلك الأمر . وقالت « وانج دا ما » إن حزنها فاق هذه المرة ما سبق أن انتابها طيلة حياتها ، باستثناء أسها حين اتخذ أبي أول محظية له ، وعندما رأت أن أخي ذاهبٌ لا محالة ، عرفت عن الطعام طوال ثلاثة أيام ، ولم تكلم أحداً . وفي النهاية عندما رأت أنه لا مناص من سفره عبر البحر الهاديء ، توسلت إليه أن يتزوج أولاً من خطيبته حتى تنجب ابناً . وقالت أمي .

- بما أنك لم تدرك أنّ لَحْمَكَ ودمَكَ لا يَخْصُصَانِكَ وحدك ، ونظراً لأنك صلب الرأى ، وتتسم باللامبالاة ، وتندفع في مخاطر تلك البلاد الهمجية دون مراعاة لواجبك ، فلا أقل من أن تصل حبل أسلافك المقدس بشخص آخر، حتى إذا مِتَّ - لا قَدَّرَ اللهُ يا بنى - .. أكون قد شاهدتُ على الأقل حفيدى !

بيد أن أخى أجاب بعناد :

- ليست لى رغبة فى الزواج ، أودُّ فقط أن أدرس مزيداً من العلوم وكل ما يتعلق بها ، ولن يحدث لى شىء يا أماه . وحين أعود .. ولكن ليس الآن .. ليس الآن !

عندئذ بعثت أمى برسائل إلى والدنا تحثه على أن يجبر ابنه على الزواج، ولكن أبى لم يعر ذلك انتباهاً، فقد كان مستغرقاً فى الاستعدادات للمحظية الجديدة ، ومضى أخى فى سبيله .

تعاطفتُ مع أمى ، فهذا الجيل هو آخر سلالة أبى ، لأن جدى لم ينجب أبناءً غير والدى ، وأيضاً مات أبناء أمى الآخرين وهم صغار . ولهذا أصبحت ضرورة مُلِحَّة أن يكون لأخى ابنٌ بأسرع ما يمكن ، حتى تقوم والدتى بواجبها نحو الأسلاف ، ولهذا تمت خطبته منذ طفولته إلى ابنة «لى» . ومع أننى لم أرها فقد سمعت أنها ليست جميلة ، ولكن ما أهمية ذلك بالنسبة لرغبات والدتنا ؟

قلقتُ على أمى أياماً عديدة بسبب عصيان أخى ، ولكنها لم تحدثنى عن ذلك مُطلقاً، لقد دفنتُ حزنها مثل كل الآخرين فى الأماكن الخفية من روحها ، وتلك طريقته دائماً عندما تدرك أن آلامها لا يمكن تجنبها ،

فتطبق شفيتها عليها إلى الأبد، أمّا أنا - وقد أحاطتني الوجوه والجدران  
المألوفة ، واعتدت على صمت أُمى - فرؤيًّا رويًّا لم أعد أفكر في أخي .

\*\*\*

من الطبيعي أن تكون الفكرة الأولى التي رأيتها تطل من كل العيون  
هى تلك التي كنت أخشاها وأتوقعها . ما هى إمكانية إنجابى ابناً ؟ لقد  
وجَّه كل منهم هذا السؤال ، ولكننى تفاديتهم جميعاً ، واكتفيت فقط  
بانحناء وقورة من رأسى تجاه تمنياتهم الطيبة التي أعربوا عنها . فلا  
يجب أن يعرف أحد أن زوجى لا يبالى بى ، ولكننى لا أستطيع أن أخدع  
أُمى !

وذات ليلة بعد أن عدتُ إلى البيت بسبعة أيام ، جلستُ فى كسلٍ فى الممر  
الذى يفضى إلى الفناء الكبير .. كنا فى وقت الشفق ، وكان العبيد والخدم  
مشغولين فى إعداد وجبات العشاء. انبعثت رائحة السمك المشوى والبط  
المحمر ، وانتشر أريجها فى الهواء ، وكانت حمرة الغروب على وشك  
التلاشى ، وبشَّرتُ زهور الأقحوان فى الفناء بخصب وفير ، وتأجج فى  
نفسى حب البيت والأشياء القديمة المحيطة ، وهأنذى أتذكر أننى وضعتُ  
يدى بحبٍ على لوح الباب المنقوش المطوق بإطار ، وأحسست هناك  
بالطمأنينة ، حيث أمضيتُ طفولتى فى هدوء ، والتي انقضت قبل أن  
أعيها.

كان كل شىء يبعث على الحب العميق ، وظلمة أول الليل تهبط فى  
سكون فوق الأسطح المنحنية ، وضوء الشموع يتلألأ داخل الحجرات ،  
ونكهة التوابل فى الأطعمة ، وأصوات الأطفال ، والوقع الخفيف لأحذيتهم

المصنوعة من القماش فوق الأرض المكسوة بالقرميد . أه ! إننى ابنة بيت  
صينى عريق بعاداته وتقاليده القديمة ، وأثاثه القديم ، وعلاقاته الطيبة  
القديمة ، وأعرف كيف أعيش هناك فى طمأنينة وثقة !

ثم فكرتُ فى زوجى وهو جالسُ الآن إلى المائدة وحيداً فى البيت  
الأجنبى ، يرتدى ثيابه الغريبة ، ويبدو غريباً فى كل شىء . كيف يمكننى  
أن أتكيف وفق حياته ؟ لا حاجة له بى . كان حَلْقَى متيبساً بدموع لم أَقْوُ  
على ذرفها . كنتُ وحيدة أعانى غربة موحشة لم أعرفها وأنا بنت . وكما  
أخْبَرْتُكَ يا أختاه . نظرتُ إلى المستقبل ، إنه يمر بنا الآن ، لا شىء فيه  
سوى المرارة . إن الدموع تطفر من عيني . أدرتُ رأسى بعيداً صوب  
عممة الغَسَق لئلا تسقط أضواء الشموع فوق وجنتى فتفضحنى ، ثم  
سمعتُ الطَّرقات فوق الناقوس النحاسى تدعونى لتناول طعام العشاء ،  
فمسحتُ عينيَّ سِرّاً ، وتسلمتُ إلى مكانى على المائدة .

انسحبت أُمى مبكرة إلى حجرتها ، ومضت المحظياتُ إلى مأواهن ،  
وبينما كنتُ أجلس وحدى أرتشفُ الشاي ، إذ ظهرت « وانج دا ما » على  
حين غرة وقالت :

- إن أمك المبجلة تأمرك بالثول بين يديها

قلت فى دهشة :

- لكن والدتى أخبرتنى منذ لحظة بأنها ستأوى إلى فراشها ، ولم تقل  
لى شيئاً عن أى حديث ترغب فيه .

ردت « وانج دا ما » :

- ومع ذلك فإنها تأمرك ، لقد أتيتُ لِتَوَى من حجرتها .

وتركتنى دون إبداء مزيد من الإيضاح . وعندما تلاشى وقع أقدامها .  
في الغناء نحيباً جانباً الستارة المصنوعة من الساتان ، ودخلتُ حجرة  
والدتى ، ودهشت حين رأيته مستلقية على الفراش ، وبجانبها على  
الطاولة شمعة واحدة طويلة مضاءة ، لم يسبق قط أن رأيته هناك طيلة  
حياتي . كانت تبدو وقد أضناها الضعف والتعب .. كانت عيناها  
مغمضتين ، وشفاتها الباهتتان مُدَلَّاتين . مضيت بخفة إلى جانبها ووقفت  
هناك كان وجهها شاحباً وقوراً ، رقيقاً حزيناً .

قلت بلطف

- أمّاه !

أجابت

- طفلتى

ترددت دون أن أعرف ما إذا كانت تريد منى أن أجلس أو أظل واقفة .  
ثم مدت يدها وأشارت لى أن أجلس على الفراش بجانبها . أطعتُ ،  
وانتظرتُ صامتة حتى رغبت في الحديث وقلت لنفسى . « إنها حزينة  
من أجل أخى في البلاد البعيدة »

بيد أنها لم تكن تفكر في أخى . إذ أدارت وجهها نحوى في ضعف  
وقالت

- إننى أدرك يا بُنتى أن الأمور لا تسير معك على نحو مرضٍ تمامًا ،  
فمنذ أن عُدتِ لاحظتُ أنك فَقَدتِ أسلوب حياتك المتسم بالقناعة الهادئة  
إن روحك قلقة متململة ، والدموع تطفر من عينيك بسرعة ، كما لو أن

هناك حزناً دفيناً يتشبث بأفكارك ، على الرغم من أن شفطيك لا تبوحان به ما وجه الخطأ؟ إذا كان بسبب عدم إنجابك طفلاً حتى الآن ، فصبراً ، لقد انقضى عامان قيل أن أمنح والدك ابناً .

لم أعرف كيف أخرجها .. كان جزء من خيطٍ حريري يتدلى من الستارة المطرزة المتصلة بالظلة فوق السرير . طفتُ ألوى الخيط إلى الخلف والأمام بين إبهامى وأصبعى كما لو كنت ألوى أفكارى . أخيراً قالت لى بشيء من التجهم :

- تكلمى !

نظرتُ إليها ، أوّاه للدموع الحمقاء التى لم تدعنى أتفوه بكلمة واحدة!! لقد تفجرت الدموع وتفجرت ، حتى ظننت أننى لم يعد لى أنفاس كى أحياء ، ثم أندفعتُ كلها فى تنهيدة عنيفة ، فدفنتُ وجهى فى اللحاف الذى يغطى جسم أمى وصحت :

- أوه ، إننى لا أعرف ماذا يقصد ؟ إنه يقول لى : ينبغى أن أكون مساويةً له ، ولا أعرف كيف ؟ إنه يبغضُ قدمى ويقول إنهما قبيحتان ، ويرسم لهما صوراً تحمل تلك الصفة ، ولا أستطيع أن أقول كيف عرف ؟ لأننى لم أدعه قط أن يراها .

استوت أمى جالسة وقالت فى حيرة ، وقد اتسعت عيناها فى وجهها الشاحب

- ماذا يعنى ؟ كيف يمكنك أن تكونى مساويةً لزوجك ؟

قلت وأنا أتنهّد .

- هكذا المرأة في الغرب .

- نعم ، ولكننا هنا شعب عاطفى من ذوى الفهم والذكاء .

وقدماك ؟ لماذا يرسم لهما صورًا ؟ ماذا تعنين ؟

قلتُ هامسة

- ليرينى أنهما قبيحتان .

- قدماك ؟ إذاً من المؤكد أنك كنت مهملة . لقد أعطيتك عشرين زوجًا من الأحذية . لم تحسنى الاختيار .

- إنه لم يرسمهما من الخارج إنها العظام التى يرسمها جميعًا منحنية ملتوية .

- عظام ! مَنْ ذا الذى رأى العظام فى قدم امرأة ؟ هل تستطيع عينا رجل أن تخترقا اللحم ؟

- إنه يقول إن فى استطاعته ذلك لأنه طبيب غربى .

- يا لطفلى المسكينة !

استلقتُ أمى فى فراشها مرة أخرى وهى تنتهد ، ثم هزت رأسها

- إذا كان يعرف السحر الغربى ..

ثم وجدتُ نفسى أفضى إليها بكل شىء .. كل شىء ، حتى أننى همستُ بهذه الكلمات المريرة .

- إنه لا يبالى أن يكون لنا ابن . إنه لا يحبنى . أوَاه يَا أماه !! إننى ما زلتُ عذراء !

جَثَمْتُ صَمْتٌ طَوِيلٌ عَلَى الْمَكَانِ .. أَخْفَيْتُ وَجْهِي ثَانِيَةً فِي اللَّحَافِ .

أَظُنُّ أَنَّي أَحْسَسْتُ بِأَمْرِي وَهِيَ تَضَعُ يَدَهَا بَرَفَقٍ فَوْقَ رَأْسِي وَتَسْتَقِرُّ  
هَنَّاكَ بَرَهَةً .. وَلَكِنِّي غَيْرُ مُتَأَكِّدَةٍ ، فَهِيَ لَمْ تَكُنْ قَطُّ وَاحِدَةً مِمَّنْ تَعْنِيهِنَّ  
الْمُظَاهِرِ الْخَارِجِيَّةِ ، وَلَكِنهَا أُخِيرًا اسْتَوَتْ فِي جِلْسَتِهَا ، وَشَرَعَتْ تَتَحَدَّثُ

- لَا أَعْتَقِدُ أَنَّي ارْتَكَبْتُ خَطَأً قَسَى الْأَسْلُوبِ الَّذِي تَرَبَّيْتُ عَلَيْهِ .  
لَا اسْتَطَعْتُ التَّفَكِيرَ فِي أَنَّكَ أَحْقَقْتِ فِي إِرْضَاءِ سَيِّدِ صَيْنِيٍّ أَصِيلٍ . أَوْ يُمْكِنُ  
أَنْ يَرْجِعَ ذَلِكَ إِلَى أَنَّكَ تَزَوَّجْتِ هَمَجِيًّا ؟ وَلَكِنَّهُ مِنْ أُسْرَةٍ كَوْنَجٍ ! مَنْ يُمْكِنُهُ  
أَنْ يَرْتَابَ فِي ذَلِكَ ؟ إِنَّهَا الْأَعْوَامُ الَّتِي قَضَاهَا فِي الْخَارِجِ . لَقَدْ تَمَنَيْتُ أَنْ  
أَرَى أَخَاكَ مِيثًا قَبْلَ ذَهَابِهِ إِلَى الْبِلْدَانِ الْخَارِجِيَّةِ ! أَعْمَضْتُ عَيْنَيْهَا وَرَقَدَتْ  
ثَانِيَةً وَازْدَادَ وَجْهَهَا النِّحِيلَ صِرَامَةً .

وَعِنْدَمَا عَاوَدَتِ الْحَدِيثَ كَانَ صَوْتُهَا عَالِيًّا وَضَعِيفًا ، كَمَا لَوْ كَانَتْ  
مُنْهَكَةً .

- لَا بَأْسَ يَا طِفْلَتِي .. هَنَّاكَ طَرِيقٌ وَاحِدٌ لِلْمَرْأَةِ فِي هَذَا الْعَالَمِ .. طَرِيقٌ  
وَاحِدٌ فَقَطُّ تَتَّبِعُهُ الْمَرْأَةُ بِأَيِّ شَيْءٍ .. يَجِبُ أَنْ تُرْضَى زَوْجَهَا .. إِنَّهُ لِأَمْرٌ  
يَفُوقُ احْتِمَالِي أَنْ تَكُونَ كُلَّ رِعَايَتِي لَكَ كَانَ يَجِبُ أَلَّا أَقُومَ بِهَا ، وَلَكِنَّكَ لَمْ  
تَعُودِي تَنْتَمِينِ لِأَسْرَتِي ، وَلَكِنْ لَزَوْجِكَ ، وَلَمْ يَعْذَلِكِ خِيَارٌ سِوَى أَنْ  
تَكُونِي كَمَا يَرِيدُ . وَعَلَيْكَ أَنْ تَصْمَدِي ! حَاوَلِي أَنْ تَبْذُلِي كُلَّ جَهْدِكَ  
لِاسْتِمَالَتِهِ .. ارْتَدَى الْأَخْضَرُ الْيَشْبِي وَالْأَسْوَدُ .. اسْتَعْمَلِي عَطْرَ زَنَابِقِ الْمَاءِ  
.. ابْتَسَمِي فِي غَيْرِ قَحَّةٍ ، وَلَكِنْ بِخَفْرِ وَحِيَاءٍ ، وَذَلِكَ وَاعِدٌ بِكُلِّ شَيْءٍ ،  
بِوَسْعِكَ أَنْ تَلْمَسِي يَدَهُ أَيْضًا .. وَتَشْبِثِي بِهَا لِحْظَةً .. ابْتَهَجِي إِذَا ضَحَكَ ،

وإذا ظل بدون تأثر فلن يكون هناك شيءٌ باقٍ سوى أن تخضعي لإرادته.

همستُ قائلةً .

هل أحلُّ وثاقَ قدميَّ ؟

سكنت أمي فترة . ثم قالت بضجر :

– حلِّي رباط قدميك . لقد تغير الزمان .. انصرفي .

وأدارتُ وجهها ناحية الحائط .

\* \* \*

كيف سأخبرك يا أختاه عمَّا يثقل قلبي ؟

بدأ فجر يوم رحيلي داكنًا ساكنًا .. كان الوقت يقترب من نهاية القمر العاشر ، حين تبدأ الأوراق البنية تسقط على الأرض في صمت ، ويرتعد الخيزران في صقيع الفجر ، وبرد الغروب تجولت في الأفنية ، وأبطأت في الأمكنة التي طالما أحببتُها طويلاً لأطبع جمالها من جديد وبحدّة في ذاكرتي . وقفتُ بجانب حوض الماء أستمع إلى الريح الخافتة ، وهي تقصم قرونَ وأوراق نباتات اللوتس الميتة .. جلستُ ساعة تحت شجرة « العرعر » (١) الكثيرة العقد ، وهي من الفصيلة الصنوبرية التي ظلت طوال ثلاثمائة عام منتصبّة في الحديقة الصخرية في الفناء الثالث . اقتطفتُ غصنًا من إحدى أشجار الخيزران السماوية في فناء البوابة

(١) العرعر : جنس أشجار من الصنوبريات ، يصلح للزينة

العظمى مسرورة بثمار التوت القرمزية الزاهية المدلاة أمام الأوراق الخضراء القاتمة ، ومن ثمَّ وددتُ أن أحتفظ بشيء من كل ما في الأفنية من جمال ، فانتيقت ثمانية أُصص (١) من زهور الأقحوان لأحملها معي . كانت في تلك اللحظة في أوج اكتمالها ، واعتقدتُ أن ألوانها الحمراء والذهبية والبنفسجية الشاحبة قد تُلطفُ قليلاً من بيتي العارى الأجرد .. وهكذا عدتُ إلى زوجي .

لم يكن في المنزل حينما دخلتُ في القاعة الصغيرة .. أخبرتنى الخادمة أنه استدعى عند شروق الشمس برسالة ملحة عاجلة ، ولا تعرف إلى أي . وضعتُ زهور الأقحوان بعناية على مقربة من قاعة الاسقبال ، وأنا أفكر ملياً كيف أرتبها بطريقة جيدة تُبرز حسناتها كمفاجأة له . غير أنني عندما بذلت ما في وسعي خاب ظني ، فقد كانت تتألق بروعة في الفناء القديم أمام النقوش السوداء في الممرات ، أمّا هنا فقد خبا رونقها إلى مجرد جمال مصطنع أمام الجدران البيضاء والظلاء الأصفر .

آه هكذا كان الأمر معي ! لقد ارتديتُ السترة والسراويل الساتانية المرصعة باليشب ، والجاكيت المخمل الأسود الذي لا أكمام له ، وزينتُ رأسي بحلى من اليشب والعقيق ، وعلقتُ أقراطاً من اليشب تدلت من أُذُنَيَّ ، وانتعلتُ حذاءين أسودين من المخمل المطرز بخرز ذهبي ، وكنت قد تعلمت من « لا - ماي » - السيدة الرابعة في بيت أمي - مكر الخدود الشاحبة والشفة السفلى المصبوغة بالزنجفر القرمزي ، وسحر راحتي

(١) الأَصص : جمع أصيص ، وهو وعاء من الفخار تُسْتَنْت فيه الساتات .

البيدين الوردتين المعطرتين . لم أدخِرُ جهدًا من أجل تلك الليلة الأولى مع زوجي ، وقد رأيت أنني كنت مليحة

ولما ارتديتُ ملابسى ، جلستُ منتظرةً سماعَ وقع خطواته فوق العتبة ، وإذا كنتُ قد تمكنتُ أن أدفع جانبًا ستارةً من الساتان الأرجوانى، وظهرتُ أمامه وسط الضوء الرقيق داخل حجرة صينية قديمة لأحرزتُ نجاحاً ، ولكن كان علىّ هنا أن أهبط غير مستقرة فوق السلم الذى ينبعث منه صريرٌ ، وأنضم إليه فى قاعة الاستقبال لم يكن هناك شىء يعاوننى ، كنت كزهور الأقحوان .. جميلة فحسب .

أمًا بالنسبة لزوجى فقد جاء متأخرًا ، وبدا مُتعبًا مكدودًا ، وفى ذلك الوقت كانت نضارتى قد وُلّت ، وعلى الرغم من أنه حَيَّانى برفق وافٍ ، فإن عينيه لم تتعلقا بى ، وطلب فقط أن تسرع الخادمة بتقديم وجبة المساء، لأنه كان مشغولًا طوال اليوم بأحد المرضى ، ولم يذق طعامًا منذ الصباح .

تناولنا الطعام فى صمت ، كنت أجدُ مشقة فى ابتلاع ما أكله بسبب الدموع الحمقاء .. التهمَ أُرزَهُ بسرعة وجلس مقطبَّ الجبين وهو يحملق فى الشاى يتنهد بين الفينة والفينة ، ونهض أخيرًا فى سأم وقال

- دعينا نذهب إلى حجرة الجلوس .

جلسنا هناك ، وسأل فى غير مبالاة عن والدئى .. أعار إجاباتى أهمية ضئيلة ، حتى أنني ترددت فى سعبي إلى إثارة اهتمامه ، فلزمتُ الصمت فى

النهاية . لم يلحظ في البداية أنني توقفتُ عن الحديث ، تم نهض مستويًا على قدميه وقال بمزيد من العطف

- أرجو عدم مآخذتي . حقًا إنني مسرور لعودتك ، ولكنني كنتُ طيلة هذا اليوم أناضل ضد الخرافات والجهل المُطبق ، غير أنني خسرتُ معركتي، ولا يمكنني أن أفكر في شيء سوى خذلاتي . وطفقتُ أسائل نفسي : هل فعلت كل ما يمكن عمله ؟ هل هناك حجة لم ألجأ إليها لإنقاذ تلك الحياة ؟ أظن . بل أنا على ثقة من أنني فعلتُ كل ما في وسعي .. ولكن محاولاتي باءت بالفشل ! هل تتذكرين أسرة « يو » التي تقطن بجوار برج الطبل ؟ لقد حاولتُ سيدتهم الثانية أن تنتحر اليوم بشنق نفسها ! يبدو أنها لم تعد تحتمل لسان حماتها الأفعوانى الخبيث . لقد استدعوني، وكان في استطاعتي أن أنقذها ، كانت قد جذبت الحبل لتوها حين عثروا عليها .. فأعددت في الحال الأدوية اللازمة لعلاجها ، ثم دخل العم العجوز - وهو تاجر نبيذ - هل تتذكرين السيد « يو » العجوز ؟ لقد مات ، وأصبح تاجر النبيذ رأس الأسرة الآن . دخل علينا في غضب منكر عنيف أمرًا أن تُتَبَعَ الأساليب القديمة .. أرسل في طلب الكُهان ليقرعوا الطبول كي تعود روح المرأة ثانية .. تجمّع أقاربها حولها ، وأرقدوا الفتاة المسكينة الفاقدة الوعي - والتي لم تتجاوز العشرين - على الأرض في وضع راكم ، وفي بطء وتأنٍ مَلَكُوا أنفها وفمها بالقطن والقماش ، وقيدوا وجهها بالأغطية !

وقلت .

- ولكن . لكن ..

ثم أكمل

- إنها العادة .. هذا ما يُعمل دائماً ، فقد هرب جانب كبير من الروح ،  
ويجب أن يحافظوا على ما تبقى في داخلها بسد الفتحات !

بدأ يسير حول الحجرة في احتياج ، ثم توقف الآن تجاهى وشفته  
مضمومتان ، واستطعتُ أن أسمع تنفسه السريع . وحمَلَق في وجهى  
وصاح :

- ماذا ! أنتِ أيضاً ؟

انكمشتُ في دُعر ! ثم همستُ

- هل ماتت ؟

- تموت ؟ ألا تموتين لو فعلتِ هذا لفترة طويلة ؟

وأمسك بيديّ الاثنتين بإحدى يديه ، ووضع منديله على فمى وأنفى  
بقسوة . أخذتُ أتلوى حتى تخلصتُ منه ، ومزقتُ المنديل . فأطلق  
ضحكة قوية كما لو كانت نباح كلب ، وجلس واضعاً رأسه بين يديه ،  
ولبثنا فى صمت مرهق كالألم . لم ير زهور الأتحوان التى رتبته بعناية  
على مقربة من القاعة .

جلستُ أرقبه فى حيرة وقد انتبانى بعض الخوف هل يمكن أن يكون  
على حق أخيراً ؟

فى تلك الليلة وضعتُ الحلىّ اليشببية فى حزن داخل علبتها الفضية ،  
والقيت ثيابى الساتانية جانباً . بدأت أدرك أن ما تعلمته كان خطأ . لم  
يكن زوجى واحداً من هؤلاء الرجال الذين تروق لهم المرأة التى تفتن  
أحاسيسهم كما لو كانت زهرة معطرة أو غليون أفيون . فصفاء الجمال  
فى الجسم لا يكفى . ويجب أن أتعلّم كيف أرضيه فى نواحٍ أخرى ..  
وهأنذى أتذكّر أُمى بوجهها الذى أدارته نحو الحائط ، وهى تقول  
بصوتها المنهك .

– لقد تغيرت الأزمنة .

\*\*\*

مازلت لا أستطيع أن أقبل بسهولة حلّ وثاق قدميّ . وكانت السيدة  
« ليو » فى الحقيقة هى التى عاونتنى . كانت زوجة مدرس فى مدرسة  
أجنبية حديثة . لقد سمعت زوجى يتحدث عن السيد « ليو » كصديق له ..  
لقد أرسلت لى كلمةً بعد يومٍ من عودتى قائلة . يسرنى أن أزوّرِكَ فى اليوم  
التالى .

قمتُ بعمل استعدادات ضخمة ، لأنها كانت أول زائرة لى ، أرسلتُ  
الخدمة لشراء ستة أنواع من الكعك ، وبذور البطيخ ، ورقائق السمسم ،  
وأجود أصناف الشاى . ارتديتُ ثوبى الساتان القرنفل المشمشى ،  
وزينتُ أذُنّى باللآلىء ، وكنت فى سرّى فى أشد الخجل من البيت . خشيتُ  
أن تعتقد أنه قبيح وتتعجب من ذوقى وددتُ ألا يكون زوجى فى البيت

حتى يمكننى على الأقل أن أضع المقاعد والمنضدة بطريقة ملائمة تظهر  
بوضوح مكان الشرف كى أحسن وفادة الضيفة .

ولكنه - لأول مرّة - لم يغادر البيت . كان جالسًا يقرأ ، وتطلّع نحوى  
بابتسامه حين دخلتُ الحجرة بعصبية . خططتُ كى أكون جالسة حين  
تقود الخادمة الضيفة إلى الحجرة ، حتى يتسنى لى أن أنهض ، وانحنى  
لها مشيرة إلى المقعد الأفضل . ولكن بوجود زوجى هناك لم تتح لى  
الفرصة كى أرتب الحجرة . وحين دق الجرس ، مضى زوجى بنفسه  
صوبَ الباب . لقد تكدّرتُ كثيرًا ، وهزرتُ يديّ ، وتحيرتُ ماذا عسائى  
فاعلة . ثم سمعت صوتًا مرّحًا ، ولم أتمالك أن أسترق النظر إلى القاعة ،  
فرايتُ شيئًا عجبًا ، إذ أمسك زوجى بيد الضيفة وكان يهزها صعودًا  
هبوطًا بطريقة من أعرب ما رأيت . لقد ذهلتُ !

وفجأة زابلتنى دهشتى وكل أفكارى عن الضيفة حين نظّرتُ إلى  
وجهه . أوّاه يا زوجى ! إن وجهك لم يكتس بمثل تلك النظرة من أجلى أنا  
زوجتك ! لقد بدا كأنه عثر أخيرًا على صديق .

آه يا أختاه ، لو كنتِ هنا لعلّمتينى ماذا أعل ! بيد أننى كنت وحيدة ،  
لا أصدقاء لى لم يكن بوسعى إلا أن أحزن فى أعماقى ، وأتأمل وأفكر  
وأتعجب فيما يتقصنى لأرضيه .

وحينما كانت الضيفة عندنا طفقتُ أتفحصها بدقة لأرى إن كانت  
جميلة .. كلاً ، لم تكن جميلة ، ولا حتى لطيفة . كان وجهها كبيرًا أحمر ،  
طلق المحيا ، وعيناها عطوفتين ، تطل منهما الابتسامات ، على الرغم من

أنهما كانتا مستديرتين لامعتين كالخرز الزجاجي .. كانت ترتدي معطفًا رماديًا بسيطًا فوق تنورة من الحرير الأسود ، غير محلاة بالأزهار . وتنتعل حذاءً كأحذية الرجال ومع ذلك كان صوتها صافيًا ، وحديثها سريعًا حاضرًا ، وضحكتها دافئة وسريعة. تحدثت كثيرًا مع زوجي ، فجلستُ أستمع مُطأطئة الرأس .. تكلمنا عن أشياء لم أسمع بها قط . كانت الكلمات الأجنبية تتدفق وهما يتبادلانها جيئةً وذهابًا بينهما . لم أفهم شيئًا عدا السرور المرتسم على وجه زوجي .

\*\*\*

في تلك الليلة لُذْتُ بالصمت حينما جلستُ مع زوجي بعد وجبة الماء ألحْتُ عَلَى ذَاكِرْتِي مرارًا وتكرارًا تلك النظرة على وجهه في أثناء الزيارة . أبدأ لم أرَ من قبل مثل ذلك التعبير الذي يضطرم حماسًا وتلهفًا كان ممتلئًا بالكلمات التي يوجهها إليها عندما وقف قبالتها . ظل في الحجرة طيلة فترة زيارتها كما لو كانت الضيفة رجلًا .

نهضتُ وسِرْتُ بجانبه .

رفع عينيه من الكتاب وقال متسائلًا :

- نعم ؟

- أَخْبِرْنِي عن هذه السيدة التي زارتنا اليوم ؟

انحنى على مقعده إلى الوراء وتطلع نحوي متأملًا .

- ماذا عنها ؟ إنها خريجة كلية غربية نسائية كبرى تسمى « فاسار » ، وهى ذكية وممتعة ، كما يود المرء أن تكون عليه المرأة هذا إلى جانب أنها

تُرَبِّي ثلاثةً دسبيةً رانعين ، أذكيا . نظاف ، مُعْتَنِي بهم إن قلبي يُسعدده  
رؤيتهم .

أوه ، إنني أكرهها ! إنني أكرهها ! أوه ، ماذا عساي أن أفعل ؟ أليس  
هناك سوى طريق واحد إلى قلبه ؟ إنها لم تكن جميلة على الإطلاق !!  
وهمست .

-- أو تعتقد أنها جميلة ؟

فأجاب في عنف

— أجل إنني أجدها كذلك . إنها موفورة الصحة ، حساسة ، معقولة ،  
وتسير فوق قدمين فويتين متزنتين .

حَمَلْتُ في الفضاء ، وفكرتُ يائسةً لبضع دقائق . هناك طريق واحد لا  
غير للنساء ، فكيف أستطيع ... ما زالت كلمات أمي تطن في أُذُنِي « يجب  
أن تُرضي زوجك »

كان زوجي يجلس يتطلع مفكرًا عبر الحجرة ، لم أكن أعرف ماذا  
يدور في عقله ، لكنني عرفتُ شيئًا واحدًا . كنت أرتدى ثوبًا من الساتان  
بلون الخوخ ، وعلقتُ أقراطًا لؤلؤية في أُذُنِي ، وبِغَضِّ النظر عن شعري  
الناعم الأسود الذي كان يتألق في لَفَاتِهِ المنسَّقة ببراعة ، وعلى الرغم من  
أنني كنت أقفُ عند كتفه بالقرب منه حتى أن أقل حركة من جسمه كانت  
كفيلة بجعل يده تلمس يدي .. كل ذلك لم يُجدِ فتيلًا ، فقد كان لا يفكر فيَّ  
عندئذٍ أحنيتُ رأسي ، وسلمتُ نفسي إلى يديه مُنْكَرَةً ماضِيً وقلت .

— هل ستخبرني كيف سأقوم بحل وثاق قدمي ؟

\*\*\*



الفصل الرابع

عبدالله

## 4

حين أنظر الآن إلى الماضي أدرك أن اهتمام زوجي بي قد بدأ ذلك المساء . وبدأ أننا قبل هذا لم يكن لدينا شيء نتحدث عنه ، ولم تلتق أفكارنا قط . كنت أرقبه فقط بدهشة دون أن أفهم ، ولم يحدث أن نظرتُ إلى قط ، وعندما كنا نتحدث كنا كالغرباء الذين يجاملون بعضهم بعضًا ، فأحدثه في خجل ، في حين كان يكلمني بأدب جمٍّ دون أن ينتبه إليّ ، ولكنه الآن بعد أن أبديتُ حاجتي إليه ، بدأ يراني أخيرًا ، وحين يتكلم كان يسألني ويحرص على سماع إجابتي ، أمّا بالنسبة لي فإن حبي نحوه الذي كان يرتجف في قلبي استقرَّ ورسخ ، وتحول إلى هيام وعبادة . لم أكن أحلم قط أن رجلاً يمكن أن يخضع لامرأة بمثل تلك الرقة.

وعندما سألتُهُ . كيف يمكنني فك رباط قدمي ؟ كان من الطبيعي أن أظن أنه سيعطيني تعليمات من معرفته الطبية فحسب ، وهكذا جلستُ مذهولة عندما أحضر طستًا محتويًا على ماء ساخن ، ولفة من الضمادات البيضاء .. أصابني الخجل .. لم أحتلم أن أدعه يرى قدمي .. لم تقع عين

أحد عليهما منذ أن بلغتُ من العمر ما يمكّني من العناية بهما بنفسى .  
والآن حين وضع الطست على الأرض وركع ليمسك بقدمي ، أحسستُ .  
بجسمي كله يتقد من رأسي إلى قدمي .

قلت بصوت ضعيف .

- كلا . سأفعل ذلك بنفسى .

فعلقتُ على ذلك قائلاً .

- لا تقلقي تذكري أن طبيب .

ولكنني ظللتُ أرفض . عندئذ تطلع إلى وجهي بثبات ، ثم قال برزانة .

- « كواي لان .. إنني أعرف مدى ما كلفك فعل ذلك من أجلى .

دعيني أعاونك قدر استطاعتي ، إنني زوجك .

ودون أن تصدر مني كلمة ، استسلمتُ له . فأمسك بقدمي ، ونزع  
الحذاء والجورب برفق ، وحل القماش الداخلى . بدأ على وجهه تعبير  
حزين متجهم .

قال بصوت خافت حنون

- كم قاسيتُ يا لها من طفولة تعسة .. وكل ذلك لا طائل من ورائه !

اغرورقت عيناى بالدموع لدى سماعى لكلماته . لقد جعل كل  
التضحيات عديمة الجدوى ، وها هو ذا يطالب بتضحية جديدة !

\*\*\*

حين نُقعت قدميَّ ثم أُعيد ربطهما بغير إحكام أحسستُ بألم لا يُطاق  
فعملية حل الأربطة كانت مؤلمة مثل شد وثاق القدمين . كانت قدمي قد  
اعتادتنا على أن تكونا مشدودتين بقوة ، فانبسطنا قليلاً بالتدريج ، وبدأ  
الدم يدور فيهما .

كان هناك أوقات بالنهار ألجأ فيها إلى تمزيق الأربطة لتحرير قدميَّ  
لإراحتهما ، ثم أُعيد ربطهما بإحكام أكثر ، ولكن تفكيري في أن زوجي  
سيعرف في الليل كان يدفعني إلى ربطهما مرة أخرى بيدين مرتعشين .  
وكانت الراحة الوحيدة البسيطة التي يمكنني أن أحصل عليها ، هي أن  
أجلس على قدميَّ وأهتز إلى الخلف والأمام .

لم يعد يهمني كيف أبدو أمام زوجي ، أو أنظر في المرآة لأرى ما إذا  
كنتُ على الأقل نضرة أنيقة .. كانت عيناى في الليل تنتفخان من البكاء ،  
وصوتى يخشن من النشيج التنهدات ، التي لم أستطع أن أتحكم فيها ..  
من الغريب أن جمالي لم يُحرِّك فيه ساكنًا، في حين أن حُزنى وألمى قد تأثر  
بهما ١ كان يواسينى ويعمل على إراحتى كما لو كنت طفلة وكثيرًا ما  
تعلقتُ به دون أن أدرك في غمرة ألمى مَنْ هو ؟ أو ماذا كان ؟

قال

- سنحتمل هذا معًا يا « كواى لان » . ما أشدَّ أن أراك تُقاسين هكذا ١  
حاولى أن تفكرى أن ذلك ليس من أجلنا فقط ، بل في سبيل الآخرين أيضًا  
. إنه اعتراض ضد شىء قديم فظيع ، بل مؤذٍ وكريه

تنهدت قائلة :

- كلا ، إننى أفعلها من أجلك فقط حتى أكون امرأة عصرية لك !  
ضحك وأشرق وجهه قليلاً كما حدث عندما كان يتحدث مع المرأة  
الأخرى . كان هذا مكافأة لى لما قاسيته من ألم . لم يبدُ أن هناك شيئاً  
عسيراً بعد ذلك .

\*\*\*

عجباً ! حين نما اللحم بطريقة صحية أكثر ، بدأت أحس بحرية جديدة  
. كنت صغيرة ، ولم تزل قدمائى صحيحتين حتى الآن وفى حالة النساء  
الكبيرات كثيراً ما كانت القدمان المربوطتان تُصابان بالغنغرينا ، وأحياناً  
قد تموتان وتسقطان فجأة . غير أن قدميَّ كانتا فاقدتى الحس فقط  
والآن بدأت أسير بحرية ، ولم يعد الصعود والهبوط على السلم صعباً ..  
أحسست بمزيد من القوة تسرى فى بدنئى . وذات مساء ركضت دون  
تفكير إلى الحجرة التى يكتب فيها زوجى .. نظرتُ إلى فى دهشة ، وتهلَّلتُ  
وجهه بابتسامة وهتف قائلاً .

- تركضين ؟ آه .. حسناً ! إنذا فقد اجتزنا أسوأ مرحلة ، وولت  
المرارة؟

نظرتُ إلى قدميَّ فى ذهول وقلت

- ولكنهما ليستا كبيرتين كقدميَّ السيدة « ليو » .

فقال

- كلا .. لا يمكن أن تكونا مثلهما ، لأن قدميها طبيعيتان ، وقدميك  
هما أكبر ما نستطيع بلوغه الآن .

شعرتُ بشيء من الأسى ، لأن قدميَّ لن تكونا كبيرتين أبدًا مثل  
قدميها ولكنني فكرتُ في وسيلة . لمَّا كانت كل أحذيتي الصغيرة المطرزة  
لا خيرَ فيها الآن ، فقد قررت أن أنتعل أحذية جلدية كأحذية السيدة  
«ليو» ، ولذلك ذهبت في اليوم التالي بصحبة خادمة إلى أحد المتاجر  
واشتريتُ زوجًا من الأحذية بالطول الذي أريده . كان الحذاء أطولَ من  
قدميَّ ببوصتين ، ولكنني حشوْتُ مقدم الحذاء بالقطن . وحين انتعلتُ  
الحذاءين لم يكن في مقدور أحد أن يدرك أن قدميَّ كانتا مربوطتين

كنت أتوق إلى أن ترانى السيدة « ليو » وسألت زوجي متى يمكنني  
رد الزيارة لها ؟ فقال

- سأذهب معك غدًا .

فوجئتُ برغبته في السير معي في الطريق ، إذ لا ريب أن ذلك كان عادة  
مستهجنة ، مما جعلنى ارتبك بعض الشيء ، ولكننى الآن زاد اعتيادى  
على تصرفاته الغريبة .

ذهبنا في اليوم التالي ، وقد عاملنى زوجى أمامها بمنتهى الرقة ، ولكنه  
في الواقع أربكنى كثيرًا مرة أو مرتين ، وعلى سبيل المثال حين جعلنى  
أتقدمه إلى الحجرة التى استقبلتنا فيها السيدة « ليو » ، لم أعرف آنذاك  
ماذا يعنى ؟ وبعد عودتنا إلى البيت فسر لى ذلك الأمر بأنه سلوك غربى .

سألته

- لماذا ؟ هل لأن الرجال هناك يحسون - كما سمعت - بأنهم أذنى منزلة من النساء ؟

فأجاب :

- كلا .. هذا ليس صحيحًا .

ثم ترح لي ذلك .. إنها عادة راسخة الجذور في نظام المجاملة الذي بدأ في العصور القديمة .. أذهلني ذلك ، إذ لم أكن أعرف أن هناك شعوبًا عريقة غير شعبنا .. أقصد شعبنا المتحضر . لكن يبدو أن الأجانب أيضاً لهم تاريخ وثقافة ، لذا فإنهم ليسوا همجين تمامًا ، وقد وعدني زوجي بأن يقرأ لي بعض الكتب عنهم .

شعرت بالسعادة في تلك الليلة حين ذهبت لفراشي ، إذ راق لي أن أكون عصرية إلى حدٍّ ما ، فقد انتعلتُ حذاءً جلدياً في ذلك اليوم ، وليس هذا فحسب ، بل إنني أيضاً لم أضع طلاءً على وجهي ، ولم أزيّن شعري بالحلّق . لقد بدوتُ شديدة الشبه بالسيدة « ليو » ، وإني واثقة أن زوجي قد لاحظ ذلك

\*\*\*

بدأ لي أنني طالما رغبتُ أن أتغيرَ فقد تدفقت عليّ حياة جديدة كاملة ، وها هو ذا زوجي قد بدأ يحدثني في المساء ، ووجدت حواراه معي منيرًا .. كان يعرف كل شيء ما أشد غرابة الأشياء التي أخبرني بها عن البلدان في الخارج وسكانها ! لقد ضحك حين صِحتُ

-- أوه مضحك !! أوه عجيب !

فقال وقد عَمَّه السرور لسبب ما .

- ليس أغرب ممَّا نبدو لهم

فصحتُ مندهشة من جديد .

- ماذا ؟ أو يعتقدو أننا مضحكين ؟

أجاب ، وهو ما زال يضحك

- طبعا يجب أن تَسْمَعِيهم وهم يتحدثون ! إنهم يعتقدون أن  
ملابسنا ووجوهنا وطعامنا ، وكل ما نفعله ، يدعو إلى الضحك . إن الأمر  
بالنسبة لهم أن أناساً بمثل مظهرنا ، ويتصرفون بمسلكتنا ، يمكن أن  
يكونوا كالبشر تماماً مثلهم .

ذهلت لَدَى سماع ذلك .. كيف يمكنهم اعتبار أن هياثهم الغريبة  
وثيابهم وسلوكهم إنسانىً مثلنا ؟ لقد أجبته بوقار .

- بيد أننا كنا دائماً نفعل تلك الأشياء ، وهذه عاداتنا ، وذاك مظهرنا ،  
بشعرنا الأسود وعيوننا ..

- تماماً ! وهكذا لهم مثل ما لنا !

- ولكننى أعتقد أنهم جاءوا إلى هنا ليتعلموا حضارة بلادنا . هكذا  
قالت أمى

- لقد أخطأتُ ، ففى الواقع أننى أعتقد أنهم جاءوا إلى هنا وفى فكرهم

أن يَعْلَمُونَا المدنية .. صحيح أن هناك الكثير الذى يتعلّمونه منا ، ولكنهم لا يعرفون ذلك أكثر مما تدركين الذى علينا أن نتعلمه منهم .

لاشك أن كل ذلك كان جديدًا وغريبًا وممتعًا وهو يخبرنى به . لم يدركنى الملل إطلاقًا مما أسمعته عن الأجانب ، وخصوصًا أنتى يروق لى أن أستمع إلى أخبار مخترعاتهم العجيبة .. أن يديروا مقبضًا فيتلقوا منه ماءً ساخنًا أو باردًا ، وعن مدفأة بلا وقود يمكن أن يراه المرء ، ومع ذلك يحصلون على الحرارة . أو ما يسمونه ماءً تلقائيًا ، وحرارة تأتي من تلقاء نفسها وكم كنت أدهش من قصصه عن الماكينات التى تمخر عباب البحر، وعن أخرى تطير فى الجو ، وغيرها التى تسير تحت الماء ، وعن كثير مثلها من الأعاجيب !

وسألته بخوف

- أواثق من أن ذلك ليس سحرًا ؟ إن الكتب القديمة تخبرنا عن معجزات النار والأرض والماء ، ولكنها دائماً الأعيب سحرية من عالم الجن.

أجاب

- كلا هذا ليس سحرًا بالطبع . إنها جميعًا بسيطة تمامًا حين تفهمين كيف تُصنَع إبه العلم

ذلك العلم مرة أخرى ! لقد جعلنى أفكر فى أخى ، فهو من أجل ذلك العلم ما زال فى تلك البلاد الأجنبية ، يتناول طعامهم ، ويشرب مياههم

التي لم يعتدها جسمه بحكم مولده . لقد أصبحت مشتاقة لرؤية ذلك العلم ، ومعرفة كيف يبدو . إننى قلت ذلك ضحك زوجى حتى الثمالة ، وصاح مُداعباً

- أية طفلة أنت<sup>١٩</sup> إنه ليس شيئاً يمكن حمله أو لمسه أو تناوله بيديك لفحصه كأنه لعبة

ولما رأى أننى لم أدرك شيئاً مما قصده ، مضى إلى خزانة الكتب وأحضر بعضاً منها ذات صفحات عليها صور ، وشرح يشرح لى كثيراً من الأشياء .

وهكذا طفق يعلمنى كل مساء شيئاً يتعلق بهذا العلم ولا عجب أن أذى أصبح مولعاً به حتى سلب لُبّه ، فلم يعر رغبات أمه التفاتاً ، ومضى عبر البحر الهادىء بحثاً عنه . لقد سُجِرْتُ به أيضاً ، وبدأتُ أشعر أن حِكْمَتى أخذت تنمو نموّاً عجيبيّاً ، حتى أحسستُ أنه يجب أن أخبر أحداً ، ولم يكن لدى أحد سوى طاهيتنا العجوز ، فسألتها

- هل تعلمين أن العالم مستدير ، وأن أُمَّتَنَا العظيمة ليست فى الوسط ، ولكنها قطعة من الأرض والماء فوق السطح ، بجانب غيرها من البلاد<sup>٢٠</sup>

كانت تغسل الأرز فى البركة الصغيرة بفناء المطبخ ، فكفت عن هز السلة ، ونظرت إلى بارتياج وتساءلت فى غير لهف على الاقتناع .

- من يقول هذا<sup>٢١</sup>

فقلت بحزم

- سيدنا . والآن هل تُصدّقيننى ؟

فأجابت فى شك

- أوه ، إنه يعلم الكثير لكن ما زال فى وسعك أن تعرفى أن العالم ليس مستديرًا بمجرد النظر إليه . انظرى ، إذا تسلقت إلى قمة الباجودا فوق تل النجم الشمالى ، يمكنك أن ترى على بعد ألف ميل جبلاً وحقلاً وبحيرة ونهراً وجميعها مسطحة كصفائح الفول المجفف ، وفيما خلا الجبال، لا أحد يستطيع أن يقول إنها مستديرة ! أمّا بالنسبة لبلادنا ، فلا بد أن تكون فى الوسط ، وإلا لماذا أطلق عليها حكماؤنا القدماء - الذين يعرفون كل شىء - اسم « المملكة الوسطى » ؟

إننى كنت متشوقة إلى الاستطراء فيما بدأت ، فأكملت قائلة

- وأكثر من ذلك ، أن الأرض ضخمة ، حتى أننا نحتاج لمسافة بالطول الكلى للقمر لتبلغى الطرف الآخر ، وعندما يعم الظلام هنا فإن الشمس تبعث بضوئها هناك .

صاحت الطاهية صيحة انتصار .

- الآن أعرف أنك مخطئة يا سيدتى .. إذا كان الوصول إلى البلاد الأخرى يستغرق من الأيام مدة قمر ، فكيف تفعل الشمس ذلك فى ساعة فى حين تقضى نهارًا بطوله لقطع المسافة القصيرة بين الجبل الأرجوانى والتلال الغربية ؟

وانهمكت مرة أخرى فى هز سلة الأرز فى الماء

ولكننى فى الحقيقة لا أستطيع أن ألومها على جهلها ، لأن أعجب ما سمعته من كل الغرائب التى أخبرنى عنها زوجى أن الشعوب الغربية لديهم الأضواء السماوية الثلاثة نفسها التى عندنا . الشمس ، والقمر ، والنجوم . كنت أعتقد على الدوام أن « بان - كو » الإله الخالق قد صنعها من أجل الصينيين ، ولكن زوجى حكيم . إنه يعرف كل الأشياء ، ويتحدث فقط عن كل ما هو حقيقى .

\* \* \*

كيف يمكننى يا أختاه أن أصف فى كلمات بداية استحسان زوجى لى ؟ وكيف أعرف بنفسى متى تحرك قلبه ؟

آه ، كيف تعرف الأرض الباردة متى تغرى الشمس قلبها لتتفتح أزهارها فى فترة الربيع ؟ وكيف يشعر البحر بالقمر يجذبه إليه ؟

لا أعرف كيف مرت الأيام ، ولكننى أعرف فقط أننى لم أعد وحيدة ، وحيث يعيش هو أصبح بيتى ، وكففتُ عن التفكير فى بيت أمى .

وفى أثناء ساعات النهار - بعد أن يغادر زوجى البيت - أفكر ملياً فى كلماته .. أتذكر عينيه ، ووجهه ، ومنحنى شفثيه ، ولسة يده غير المقصودة ليدى حين يُقلب صفحة الكتاب الموضوع أمامنا على المنضدة . وعندما يهبط الليل وهو يجلس هناك قبالتى ، كنتُ ألقى عليه خلسة نظرة عَجَلَى لأغذى قلبى بنظراته وهو يعلمنى .

كنت أفكر فيه آناء الليل وأطراف النهار كنهر فى الربيع يتدفق بغزارة

في القنوات الضامّة التي جففها الشتاء ، ومثل النهر يجري في الأرض  
غامراً كل شيء بالحياة والخصب ، هكذا كانت أفكار سيدي تأتيني فتملاً  
وحدتي ، وتسد حاجتي .

من ذا الذي يستطيع أن يفهم هذه القوة في رجل وفي فتاة ؟ إنما تبدأ  
بعيون تتلاقى مصادفة ، ثم نظرة خجولة متأنية ، وعلى حين غرة تلتهب  
متحولة إلى نظرة محدقة متأججة ، ثم لمسة أصابع لا تلبث أن تنسحب  
بسرعة ، ثم قلب يندفع بعنف إلى قلب

ولكن كيف لي أن أخبرك ؟ حتى أنت يا أختاه ! إنه وقت فرحى الأعظم  
.. هذه الكلمات التي أقولها الآن هي كلمات ورديّة ، ففي اليوم الأخير من  
القمر الحادى عشر عرفت أنه حينما يجيء وقت حصاد الأرز في نهاية  
العام سيولد طفلي

\*\*\*

أخبرتُ زوجي أنني حققتُ واجبى نحوه حين حملتُ منه .. كان في  
ذروة السعادة .. أبلّغ والديه أولاً ثم إخوته ، وتلقينا تهانئهم . أمّا أبواي  
فلم يكن ذلك الأمر يقلقهما ، ولكننى عزمْتُ على أن أخبر أمى عندما  
أزورها في رأس السنة .

بدأ الآن وقت عصيب بالنسبة لي . فحتى اليوم كنت شخصاً قليل  
الأهمية في أسرة زوجي ، فقد كنت فقط زوجة لأحد أبنائهم الصغار ، ولم  
يكن ثمة مشاركة منى في حياة الأسرة منذ أن انتقلنا من البيت الكبير ،

وقد ذهبت مرتين في مواسم معينة لأبدى احترامى لأم زوجى ، والقيام على خدمتها بتقديم الشاى لها ،، إلا أنها عاملتني بإهمال ، ولكنه لم يكن يخلو من الود .. وفجأة أصبحت الآن مثل كاهنة الأقدار ، ففى أحشائى أحمل أمل الأسرة ، وريثاً لها ، فزوجى كان أحد ستة أبناء لم ينجبوا ذكوراً ، فإذا وضعتُ ابناً فإنه حينئذ سيصل إلى منزلة شقيق زوجى الأكبر فى العائلة والعشيرة ، وسيصبح وارثاً لضياعها . أوه ، ما أقسى حزن الأم ألا يكون ابنها لها إلا فى الأيام القصيرة الأولى ! إذ سرعان ما سيأخذ مكانه فى حياة العائلة العظيمة . إن ابنى سيكون لى لفترة قصيرة ، قصيرة أيتها الإلهة «كوان - ين» ، احفظى طفلى الصغير !

إن الابتهاج الغامر ساعة تحدثتُ أنا وزوجى عن الطفل لأول مرة سرعان ما انقشع فى غمرة القلق الذى حَيَّم علينا ، لقد قلت إن الوقت كان عصبياً بالنسبة لى ، وذلك لكثرة النصائح التى قالها لى كل مَنْ هَبَّ وَدَبَّ .

وعندما سمعتُ حماتى بفرحى أرسلت تستدعيني إليها وفى السابق حين كنتُ أزورها ، كنتُ أُسْتَقْبَلُ فى قاعة الضيوف بشكل رسمى ، ذلك لأنها كانت تعاملنا بشيء من العجرفة منذ أن انتقلنا . أمّا فى هذه المرة ، فمن الواضح أنها أمرت الخادمة أن تقودنى إلى حجرة الأسرة خلف الفناء الثالث .

هناك وجدتُ حماتى جالسة إلى المنضدة ترتشف الشاى وتنتظرنى ..كانت سيدة عجوزاً ، جليلة ، بالغة البدانة ، بقدمين صغيرتين لا تناسبان وزنها الثقيل ، وإذا سارت حالياً خطوة واحدة فإنها تنحنى

متكئة بكل ثقلها على جاريتين تقفان على أهبة الاستعداد خلف مقعدها .  
كانت يداها صغيرتين ، تغطيهما الخواتم الذهبية ، ولما كانتا سمينتين فقد  
برزت منهما الأصابع مختنقة ، وكأنها تبرز كرابية من نقرة في اللحم ،  
وهى تمسك على الدوام بغليون من الفضة المصقولة اللامعة ، تحرص  
جواربها على أن يكون مملوءًا بالتبغ ، ويشعلنه بورقة ملتوية تحترق ،  
وهكذا يكون معدًا لكى تستعمله للتدخين فى أى لحظة .

توجهت إليها على الفور ، وانحنيتُ أمامها . ابتسمت فاختفت شفاتها  
الضيقتان بين وجنتيها المنتفختين ، ثم تناولتُ يدي وربتت عليها .

قالت

- أيتها الابنة الطيبة .. أيتها الابنة الطيبة .

كان صوتها أجشَّ مبجوحًا منذ أن اختفى عنقها بين طيات من اللحم ،  
وأصيبت بالربو .

عرفت أنني أسعدتها . صببتُ الشاي فى إناء وقدمته إليها بكلتا يديَّ ،  
فتناولته منى ثم جَلَسَتْ على مقعد جانبي صغير ، ولكنها  
أصبحت لا تسمح الآن بمثل هذا التواضع منى ، مع أنها لم تكن من قبل  
تبالى أين أجلس . أوأأتُ إلى من خلال ابتسامتها وسعالها أن أجلس على  
المقعد المقابل لها أمام المائدة ، قامتلتُ لأمرها

ثم أرسلت تستدعى زوجات أبنائها الأخريات ، فجئن جميعًا  
ليهنئننى . وكانت ثلاث منهن لم يحملن على الإطلاق ، على الرغم من أنهن

تزوج منذ عدة سنوات ، فصرت موضعَ حَسَدٍ مِنْهُنَّ ، وخزى لهن ، وإذا  
بكبِراهن ، وكانت امرأةً طويلة ذات وجه أصفر، متوعكة معتلة دائماً ،  
شرعت الآن تنتحب ، وارتفع صوتها بالإعوال ، وراحت تهتز وتتطوح  
وهى تتحسر وتندب حظها .

- يا لها من حياة مريرة ، ومصير مشئوم !

تنهدت حماتي وهزت رأسها في وقار ، وسمحت لزوجتي ابنتها الكبرى  
أن تفرج عن نفسها بالبكاء فترةً ، دَخُنَتْ خلالها حشوتين من طباق  
الغليون ، ثم أَمَرَتْهَا بأن تسكت ، لأنها تريد التحدث معي . وعلمت مؤخرًا  
أن الشقيق الأكبر لزوجي قد اتخذ لنفسه حاليًا زوجة ثانية ، لأن الأولى  
لم تنجب له أية أطفال ، وكان هذا هو مبعث الحزن المبرح الذي انتاب تلك  
المخلوقة المسكينة في ذلك اليوم ، فقد كانت تحب زوجها ، ولأنها عرفت  
أخيرًا أن صلواتها والأضاحى التى قدمتها للآلهة لم تحظ باهتمامهم .

قدمت لى حماتي نصائح كثيرة حسيمة . ومنها أنها طلبت منى ألا أعد  
أية ملابس للطفل قبل مولده . وتلك كنت العادة المتبعة وقت أن كانت فتاة  
في البيت الكائن في « أنهواى » ، حيث كان الناس يؤمنون أن ذلك سيجعل  
الآلهة القساة غافلين عن الولادة المنتظرة ، وإلا فإنهم إذا رأوا رجلاً يولد  
في هذا العالم سيسعون إلى إهلاكه

ولكننى لدى سماعى عن تلك العادات سألت .

-- إذن ماذا يرتدى طفلاً صغيراً عار حديث الولادة ؟

قالت باهتمام

- عليك أن تلقيه بملابس أبية القديمة ، فهذا سي جلب له الحظ ، وقد فعلت ذلك مع أبنائى الستة فعاشوا جميعاً .

وراحت زوجات أشقاء زوجى يطلبن منى أن أفعل أشياء كثيرة .. وكانت كل واحدة منهن تزودنى بعادات موطنها فى مثل هذه الأمور وقد نصحنى بوجه خاص أن أتناول صنفاً معيناً من الأسماك بعد ولادة الطفل، وأن أشرب من آوانٍ محتوية على ماء مذاق فيه سكر أحمر . وهكذا كانت كل واحدة منهن تُنقَسُ عمّا يعتمل داخلها من حسد نحوى بإسداء النصح لى .

\*\*\*

عندما عدتُ فى المساء إلى زوجى ، سعيدة بكل هذه الحفاوة من عائلته، أخبرته بكل ما طلبته منى لأقوم به من أجل ابنى . أرعبتني المفاجأة حين ثارَ فى غضبٍ منكرٍ عنيف ، وراح يجذب شعر رأسه بيديه، وهو يذرع الحجرة بـخطى واسعة ، وأخذ يصيح

- هراء . هراء .. هراء ! كلها أكاذيب .. كلها خرافات .. أبداً ، لن يحدث مطلقاً!

توقف وأمسك بكتفىّ ونظر بجد إلى وجهى المضطرب وقال بحزم :

- عدينى بأنك ستتهدين كلية بإرشاداتى وتوجيهاتى .. إنى أحذرك .. يجب أن تطيعى ا عدينى يا كواى - لان « وإلاً أقسمتُ بأننا لن يكون لنا طفل آخر !

ماذا كان بوسعى أن أفعل وأنا مرتعبة غير أن أعد ؟

ولما أعطيته كلمتى بعد تردد أصبح أكثر هدوءاً وقال

- غداً سأخذك إلى بيت غربى ، لِتَرَى أُسْرَةَ مدرسى القديم ، وهو أمريكى . أريدك أن ترى كيف يعنى الغربيون بأطفالهم ، لا لتكونى نسخة مقلدة منهم ، ولكن لتوسيع أفكارك .

حاولتُ أن أطيع زوجى .. شىء واحد فقط فعلته خفية فى تكتم ، ففى اليوم التالى عند بزوغ الفجر تسللتُ من البيت دون أن أصطحب أحداً سوى خادمتى .. اشتريتُ أعوادَ البخور من المتجر . كان الوقت مبكراً حتى أنه لم يكن هناك سوى الصبى الذى يتدرب على المهنة ، وكان يتحرك تحركاً بطيئاً يثير الشفقة وهو يتثائب فى الصباح الضبابى المعتم ، ثم ذهبْتُ إلى المعبد ، وأشعلتُ أعوادَ البخور ، ووضعتهأ أمام الإلهة الصغيرة السمراء « كوان - ين » التى تهب البنين ، وتيسر عملية الوضع ضربتُ رأسى على اللوحة الرخامية الموضوعة أمامها . كانت ما تزال مبتلة بندى الليل . تمتمت بما فى قلبى ، ونهضت ، وتطلعتُ إليها متوسلة.. لم تستجب، كانت الجرة ممتلئة بالرماد البارد المتخلف من أعوادَ البخور التى وضعتها الأمهات الأخريات قبلى ، وارتفعت صلواتهن فى شوق مثلى . دفعتُ أعوادَ البخور فى الرماد بإحكام أكثر وأشعلتها ، وتركتها تحترق أمامها ، ثم عدتُ إلى بيتى .

\*\*\*

أنجز زوجي ما وعد ، فقد اصطحبنى لزيارة بيت أصدقائه الأجانب .. كنتُ فضولية محبة للاستطلاع ، ولكنني كنت خائفة بعض الشيء . وأنا التي تناديك بأختي ! أبتسم الآن حين أتذكر ذلك .

لم يحدث قط أن زرتُ بيتاً أجنبياً ، لم تُنح لي الفرصة ، لم أسِر في الشوارع بالخارج ، ولم يكن في بيت أمي مَنْ تصادق مع الأجانب . لقد رأهم والدي طبعاً في أسفاره ، ولم يعرهم أى أهمية سوى أنهم يثيرون ضحكه بنظراتهم الخشنة ، ومسلكهم البدائي الفظ . ومن الغريب أن أختي وحده كان شديد الإعجاب بهم ، فقد رأهم في « بكين » ، وكان في مدرسته بعض الأجانب الذين كانوا يُدرسون له . وذات مرة سمعتهم يقولون قبل زواجي . إنه زارَ بيت أحد الأجانب ، وقد أعجبت بجرأته هذه كثيراً .

غير أنه في بيت أمي لم تحدث مثل تلك الاتصالات . وفي بعض الأحيان كانت إحدى الخادمت تذهب لتتسوق ثم تعود إلى البيت وتقول مهتاجة إنها رأت أجنبياً يسير في الطريق ، وحينئذ يدور حديث بتعجب عن جلودهم الشاحبة ، وعيونهم الباهتة . وكنت أستمع دائماً بنفس الفضول والخوف اللذين ينتاباني عندما تحدثني « وانج دا ما » عن الأشباح والشياطين في العصور القديمة . ومن العجيب أن الخدم كانوا يتهامسون عن السحر الأسود عند هؤلاء الأجانب ، وقدرتهم على سلب الروح من أحد الأشخاص بألة صغيرة في صندوق أسود كانوا يحدقون فيه بعين واحدة . فإذا ما طقطع شيء داخل الصندوق أحس المرء بضعيف غريب

في صدره ، وسرعان ما ينتابه مرض ، أو يصيبه حادث يؤدي إلى موته .

ضحك زوجي بشدة عندما أخبرته بكل هذه الأشياء وسألني

- إذا كيف تَسَنَّى لي أن أعود حياً بعد اثنتي عشرة سنة قضيتها في

بلادهم ؟

فأجبتُ .

- آه " إنك حكيم .. لقد تعلمت سحرهم .

عندئذ قال :

- تَعَالَى وانظري بنفسك ماذا يبدون ؟ إنهم رجال ونساء مثل

الآخرين .

وهكذا ذهبنا في ذلك اليوم نفسه ، ودخلنا إلى حديقة ذات بساط  
سندسى من الكلال الأخضر ، وترتفع فيها الأشجار ، وتمتلئ بالأزهار ..  
أدهشني أنها كانت حديقة غَنَاء ، وأن الغربيين يفهمون قيمة الطبيعة .  
كان التنسيق الكلي فَجًّا ، فلم يكن هناك أفنية أو بِرَك للسمك الذهبي ،  
والأشجار زُرعت بطريقة عشوائية ، والأزهار تركت لتنمو كيفما اتفق  
بغير نظام . يجب أن أعترف أننا حين وقفنا أخيراً أمام باب البيت وددتُ  
أن أهرب لولا أن وجى كان هناك معي .

فُتِح الباب فجأة من الداخل ، ووقف هناك كائن طويل « شيطان  
أجنبي » يبتسم ابتسامة عريضة عبر وجهه الضخم لقد عرفتُ أنه  
رجل ، لأنه كان يرتدي ثياباً تماثل ما يلبسه زوجي ، لكن أَرعبنى أن

رأسه بدلا من أن يكون مغطىً بشعر بشرى أسود ناعم - شأن غيره من الناس - كان مغطىً بوبد أحمر مجعد ! كانت عيناه كقطعتين من البُور الصخرى غسلها البحر ، وأنفه بارزًا كجبل وسط وجهه .. أوه ، كان مخلوقًا بغيضًا مرعبًا ، لا تُحتمل رؤيته ، كان أكثر بشاعة من إله الشمال في مدخل المعبد .

زوجى شجاع ، لم يُبدِ أئى انزعاج لمرأى هذا الرجل ، فقد قدّم يده فأمسك بها الرجل الأجنبى وهزها صعودًا وهبوطًا . لم يُفاجأ زوجى بذلك ، واستدار نحوى وقدمنى إليه . ابتسم الأجنبى ابتسامته الواسعة ، وبدا كما لو كان يبتغى الإمساك بيدي أيضًا . ولكننى تطلعتُ ليدهِ الممدودة، كانت كبيرة ، ناتئة العظام ، فوقها شعر طويل أحمر وبقع سوداء . نفرتُ منه وانكمشتُ ذعرًا ، ولم أستطع أن ألس يده . وضعتُ يديّ فى أكمامى ، وانحنيت . ابتسم ابتسامة أكثر اتساعًا ، ثم دعانا للدخول .

ولجنا إلى قاعة صغيرة تُماثل قاعتنا ، ثم إلى إحدى الحجرات . كان هناك شخص يجلس بجانب التافذة ، أدركت على الفور أنها سيدة أجنبية، فهى على الأقل ترتدى ثوبًا طويلًا من القطن بدلًا من البنطلونات ، وتتمنطق بحزام عريض يشد وسطها . لم يكن شعرها قبيحًا كشعر زوجها ، فقد كان ناعمًا مسترسلًا ، وإن كان بلون أصفر غير ملائم . ولها أنف شديد الارتفاع أيضًا ، إلا أنه لم يكن مُقوّسًا كأنف زوجها ،

وكانت يداها كبيرتين ، بأظفار قصيرة مربعة . نظرتُ إلى قدميها فرأيت  
أنهما بحجم مضرب الأرز .. لقد فكرت في نفسى قائلة .

– بوالدين كهذين كيف تكون الشياطين الأجنبية الصغيرة ؟

وعلى أية حال ، يجب أن أقول إن هؤلاء الأجانب كانوا مهذبين ، كما  
يعرفون كيف يكونون كذلك . لقد ارتكبوا أخطاءً وَشَتْ بافتقارهم إلى  
التربية ، فقد قدموا « سُلطانيات » الشاي بيد واحدة ، وناولوه لى قبل  
زوجى . وفى الحقيقة كان الرجل يخاطبني وهو يتطلع إلى وجهى ' وقد  
شعرت بأن ذلك إهانة. وكان من الكياسة أن يتجاهل حضورى ، تاركاً  
لزوجته استضافتى وإكرام وفادتى .

إننى أظن أن المرء لا يستطيع أن يلومهم ، مع أنهم مكثوا هنا اثنى  
عشر عامًا كما أخبرنى زوجى . وقد يعتقد المرء أنه كان الأحرى بهم أن  
يتعلموا بعض الأشياء خلال تلك الفترة . أنتِ طبعًا يا أختاه قد عشتِ هنا  
دائمًا ، وأصبحتِ الآن واحدةً منا .

إن أهم شىء فى الزيارة حَدَثَ عندما طلب زوجى من المرأة الأجنبية أن  
تَدعنى أَرى أطفالها وملابسهم . وشرح ذلك قائلاً . إننا نتوقع قدومَ طفلي  
لنا ، ولذلك فإنه يريدنى أن أَرى أساليب الغرب فى هذا المجال .. فنهضتُ  
على الفور ، وسألتنى أن أرتقى السلم .. خشيتُ أن أذهب معها بمفردى ،  
وتطلعتُ إلى زوجى مستنجدة ، ولكنه أوماً برأسه لى فقط كى أمضى  
معها . لكننى نسيْتُ الخوفَ حين أصبحت فى الطابق العلوى ..

اصطحبتنى إلى غرفة ينتشر فيها ضوء الشمس ، وينبعث فيها الدفء كما - بدا ذلك واضحاً - تركوا نافذة مفتوحة جزئياً كي يدخل منها هواء بارد باستمرار ، غير أننى رأيت فى أول الأمر مافتننى بشدة .. ثلاثة صغار أجانب يلعبون على الأرض لم يسبق لى قط أن شاهدتُ مثل هذه المخلوقات الصغيرة الغريبة !

كانوا يبدون أصحَّاء وبدينين ، ولكنهم كانوا جميعاً من ذوى الشعر الأبيض ، وقد أكد لى هذا ما سبق أن سمعته من أن الأجانب على عكس طبيعتنا ، إذ يُولدون بشعور بيضاء كالثلج تم تسودُّ كلما تقدم بهم العمر كانت بشرتهم ناصعة البياض ، ظننتُ أنهم يغسلونها بنوع من المياه الطبية إلى أن أرتنى الأم غرفة يغتسلون فيها جميعاً يومياً غسلًا كاملاً ، وقد وجدتُ فى ذلك تفسيراً لبياض بشرتهم إن الألوان الطبيعية الخفيفة تبهت من جراء كثرة الاغتسال .

أرتنى الأم ثيابهم أيضاً ، كانت كل ملابس الداخلية بيضاء ، وكان أصغر الأطفال يتدتر برداء أبيض من رأسه إلى قدمه. سألتُ الأمَّ عمَّا إذا كان الطفل يرتدى ثوب الحداد على بعض أقاربه - لأن اللون الأبيض يدل على الحزن - ولكنها أجابت بأن الأمر ليس كذلك ، ولكن فقط لكى يظل الطفل نظيفاً كنتُ أظن أن اللون القاتم أفضل ، لأن الأبيض يتسخ بسهولة . ولكننى لاحظتُ كل شىء بدون أن أتفوه بكلمة .

ثم رأيتُ أسرَّتَهُم . كانت كلها أيضاً مغطاة بالملاءات البيضاء ، وكان

ذلك مَدْعَاةً للحنن والاكْتِتَاب ، ولم أستطع أن أفهم لماذا كل تلك المغالاة في اللون الأبيض ؟ إنه لون الحداد والموت ، ومن المؤكد أن الطفل يجب أن يرتدى الألوان السَّارَّة البهيجة ، كاللون القرمزى ، والأصفر ، والأزرق الملكى ، وهو لون أزرق ضارب إلى الأرجوانى نحن نَدْتَرُّ أطفالنا باللون القرمزى من الرأس إلى القدم فرحًا بمقدمهم إلينا ، أما هؤلاء الأجنب فلا شىء من تصرفاتهم ينسجم مع الطبيعة

وقد اكتشفتُ أحد الأشياء العجيبة ، فالمرأة الأجنبية ترضع طفلها من ثديها لم يحدث أن فكرتُ في إرضاع صغيري ، فليس من المعتاد بين النساء من ذوات الثراء أو المكانة أن يفعلن ذلك طالما أن هناك وفرة من الجوارى للقيام بهذه المهمة

وعقب عودتنا إلى البيت أخبرتُ زوجى بكل شىء . وأخيرًا قلتُ

– إنها ترضع طفلها بنفسها ، فهل هم فقراء إلى ذلك الحد ؟

قال زوجى

– إن إرضاع الأم لطفلها أمرٌ حَسَن ، وسترضعين طفلك بنفسك .

قلت في دهشة .

– ماذا أنا ؟

أجاب بهدوءٍ ووقارٍ .

– طبعًا .

قلت معترضة .

- ولكن سيترتب على ذلك أننى لن أنجب طفلاً آخر قبل عامين .

ردّ زوجى على قولى

- ذاك ما يجب أن يكون ، ولو أن السبب الذى ذكّرتِه مجرد هُراء .

ربما كان مصيباً فى هذا أيضًا ، وعلى أية حال أننى أدرك أنه من المحتم أن يموت بضعة أطفال فى كل أسرة ، وبعضهم من البنات ، فلن يمتلىء بيتى بالأبناء كما كنت أمل ذلك . أتتعجبين يا أختاه إذا قلتُ إننى لم أعد أجد زوجى غريباً ؟

\*\*\*

ذهبتُ فى اليوم التالى لرؤية السيدة « ليو » لأخبرها عن زيارتى . آه ، ليت الإلهة تمنحنى ابنًا مثل أطفالها ، منتصبَ القامة ، ومتورد الوجنات ، وذا عينين لامعتين .. كانت وجوههم جميلة ، وجلودهم ذهبية ومنظرهم رائعًا بملابسهم الحمراء المزركشة بالزهور .

قلت لها وأنا أرقب الأطفال بلهف .

- لقد احتفظتِ بعاداتنا القديمة .

علقت قائلة

- نعم .. ولا انظرى !

وجذبت الطفل الأكبر نحوها ..

- انظري .. ملابسه الداخلية كلها بيضاء .. إنها كبطانة يمكن نزعها  
وغسلها . تعلمي قدر ما يمكنك من الأجنب الشيء الجيد ، واطرحي  
جانبا ما لا يناسبك .

ذهبتُ من بيتها إلى متجر الملابس ، اشتريتُ حريراً أحمرَ وقرنفلياً  
مزركشاً بالورود من أنعم الأصناف ، وقطيفة سواده لسترة صغيرة بلا  
أكمام ، وقماشاً من الساتان لقلنسوة .. كان الاختيار صعباً ، إذ أننى  
عزمت على ألا أشتري شيئاً لابنى إلا من أجود الأنواع .. أمرتُ صاحب  
المتجر أن يسحب إلى أسفل مزيداً أو مزيداً من الحرير الذى طواه بعيداً فى  
أغلفة من الورق الداكن ، ووضعها على أرفف قبلغت السقف .. كان البائعُ  
عجوزاً ، لاهتَ الأنفاس ، وراح يدمدم متذمراً حين صحتُ :

- أرني مزيداً .. قطعةً من الحرير مطرزاً عليها أزهار الخوخ !

سمعته يغمغم مردداً شيئاً عن خيلاء النساء وزهوهن ، فقلت :

- إنها ليست لى ، بل لابنى .

عندئذ ابتسم ابتسامة ملتوية ، وأحضر لى أجمل القطع جميعاً ، قطعةً  
كان يحتبسها وظل محتفظاً بها حتى الآن ، وقال :

- خذيها ، لقد كنتُ أحتفظُ بها لزوجة الحاكم ، ولكن إذا كانت لابنك  
فخذيها .. إنها برغم كل شيء ليست سوى امرأة .

كانت هى القطعة التى أبحث عنها ، فبين أكوام القطع الحريرية  
الزاهية التى انتشرت فوق الطاولة الطويلة ، كانت هذه تتألق بلون وردى

بهيج .. اشتريتها بدون مساومة ، على الرغم من أنني أعرف أن الرجل العجوز الماكر قد غالى في الثمن حين رأى مدى تلهفي حملتها على ذراعي إلى البيت ، وقلت لنفسى : « الليلة سأصنع منها سترة صغيرة وسروالاً ، سأعمل كل شيء وحدي ، فأنا أغار من لمس الآخرين لطفلى الذى أوشك على المجيء».

أوه ، لقد كنت سعيدة ، أنني تمكنت من السهر خلال الليل لأحيك ملابس ابنى ، وقد صنعتُ له خُفَّين لكل واحدٍ منهما وجه نَمِرٍ ، واشتريتُ له سلسلة من الفضة لتكون مصدر سرور وابتهاج له .



التصميم الخامس

١٩٨٥

## 5

أهذه أنتِ ؟ لدى أخبار عظيمة ! فاليوم وثب ابني نحو قلبي ! وبدا لي كأنه تكلم .

لقد أعددتُ ثيابه الصغيرة ، وأصبحتُ كلها جاهزة ، حتى الصور الذهبية الدقيقة التي تمتل « بوذا » قد طُرزت على قلنسوته الساتانية، وعندما تم إنجاز كل ذلك بشكل بلغ حد الكمال اشتريتُ صندوقًا كبيرًا متينًا من خشب الصندل لحفظ النفائس ، وأودعتُ فيه الملابس حتى تتضمخ بعطر زكى من أجل ابني .. والآن لم يعد لدى أن أنتظر ثلاثة أشهر قمرية ، ثم جلستُ أحلم كيف سيبدو ابني .

يا أيتها الإلهة الصغيرة الداكنة البشرة ! عَجَلِي بالأيام المجنحة ، أتوسلُ إليك ، حتى يصيح طفلي الذهبى بين ذراعى !

سيكون لي ليوم واحد على الأقل ، ولن أفكر في غير ذلك ، فقد بعث والدا زوجي رسالة لنا يخبرانا فيها بأن الطفل يجب أن يعود إلى بيت أسلافه،

إنه الحفيد الوحيد ، وحياته أثنى من أن يقضى ليله ونهاره بعيداً عن  
أعينِ جَدِّيه . لقد بدءوا يفكرون فيه بإعزازِ وها هو ذا والد زوجي الذي  
لم يسبق أن حَدَّثَنِي بكلمة واحدة ، أرسل لي يستدعيني في اليوم التالي،  
وتحدَّثَ معي ، واستطعتُ أن أرى أن عقله الذي بلغ مرحلة الشيخوخة قد  
صَوَّرَ له الطفل كما لو كان قد وُلِدَ الآن

أوه ، إنني أتوق إلى الاحتفاظ به لدينا لقد روضتُ نفسي على البيت  
الأجنبي الصغير وحالاته الغريبة ، إذا استطعنا أن نستبقى ابننا هنا  
ونعيش فيه ثلاثتنا ، ولكنني أعرف التقاليد المميزة لشعبنا ، فليس من  
المفروض أن أحتفظ لنفسي بابنى البكر ، فهو ينتمى إلى الأسرة كلها

إن زوجي غير سعيد بذلك ، إنه عابسٌ ، متجهم الوجه ، ويدمدم بأن  
الطفل سسدمره الجوارى الحمقاوات التافهات ، والمبالغة في تغذيته ،  
والترف المؤذى ، وها هو ذا يذرع الأرض جيئةً وذهاباً ، وأحزنه ذات مرة  
أن الطفل سيولد .. ارتعبتُ حينئذٍ لئلا تغضب الآلهة من جحوده ،  
ورجوته أن يصمت

قلت له وقلبي يتوق للاحتفاظ بطفلي .

– يجب أن نتحمل العادات الصحيحة

غير أنه أصبح الآن هادئاً رزيناً مرة أخرى ، لم يتحدث بشيء عن  
والديه . وتعجبتُ عمَّا يدور في عقله من قرار حتى أنه لا يريد الإفصاح  
عنه! أما بالنسبة لي فلم أعد أفكر الآن في غير ذلك اليوم الذي سيكون فيه

الشيء الثمين هنا لي ، تستمتع به عيناي أيّما استمتاع .

\*\*\*

إنني أعرف الآن ماذا فعل زوجي فهل تعتقدين أنه خطأ يا أختاه ؟  
أوه ، إنني شخصياً لا أعرف . يمكنني أن أثق أنه عين الصواب لأنه  
هو الذي فعل ذلك ؟ لقد أخبر والديه أنه كما طالب بأن يستقل بزوجه  
ليعيشا معاً وحدهما ، فهو الآن يبتغي أن ابنه سينتمي إلى والديه فقط ،  
وأنه سيعيش في كنفهما !

غضب والده ، ولكننا احتملنا غضبهما بدون أن نجيب بشيء ، لكن  
زوجي قال أخيراً إن آباه العجوز يئس من حُججه ، وانخرط في بكاء  
صامت . وحين سمعتُ بذلك بدّأ لي مثيراً للشفقة أن يجعل ابنُ آباه يبكي !  
ولو أن الأمر كان شيئاً آخر غير ابني لضعف قلبي في صدري ، لكنَّ  
زوجي أشجع مني ، إذ صمد متغلباً أمام شفقتة نحو والده الذي انهمرت  
منه الدموع .

آه !! عندما مضينا خارج بيت أبيه ، عاتبته على تحطيمه للعادات  
العريقة من ماضينا ، ولكنني الآن ويالي من امرأة أنانية لم أعد أبالي بأن  
التقاليد قد تحطمت .. إنني أفكر فقط في ابني ، سيكون لي فقط لي  
وحدي ! لا حاجة بي لأن يُشاركني فيه عشرون آخرون .. حدوده  
وعَمَّاتُهُ . إنني أمه ، علَّ أن أعنى به ، وأغسله ، وأدثره بالملابس ، وأبقيه  
بجانبي ليل نهار .

الآن وقد عَوَّضنى زوجى خيرًا عن كل شىء ، أشكر الآلهة ، لأننى تزوجت رجلًا عَصْرِيًّا ، لقد وهَبَ لى ابنى ليكون لى شخصيًّا إن حياتى كلها لا تكفى لردِّ جميله .

أرقت يومياً الأرز يصفراً فى الحقول لقد امتلأت السنابل الآن وتدلّت . وما هى إلا فترة قصيرة تحت أشعة هذه الشمس حتى تتفجر ناضجة وتصيح صالحة للحصاد . إنها سنّةٌ طيبة ، تلك التى وُلد فيها ابنى ، سنّة حافلة بالخصب ، كما يقول الزّارعون .

كم بقى لى من أيام الانتظار الحاملة ٩

لقد كفتُ عن التفكير فيما إذا كان زوجى يحبنى ، فعندما ألدُّ له ابنه سيعرف ما فى قلبى ، وأنا سأعرف ما يضمه قلبه

\*\*\*

آه . يا أختاه ! إنه هنا .. ابنى هنا ! إنه يرقد على منحنى ذراعى أخيراً ، وشعره أسودٌ مثل الأبنوس !

انظرى إليه !! ليس من الممكن أن يكون مثل هذا الجمال قد خُلِقَ من قبل ! إنَّ ذراعيه بدينتان ، بهما ما يشبه الغمّازات ، وساقيه قويتان كأشجار البلوط الصغيرة .. إننى تفحصت كل جسده من فرط حبى له ، فبدا صحيحاً سليماً جميلاً ، كأنه ابن إله .

آه ، يا للخبيث ! إنه يرفض ويصرخ ناشداً تديبى .. لقد رضع منذ ساعة فقط ! إن صوته قوى مفعم بالحيوية ، ويطلب كل شىء .

أوه .. كانت ساعة عسيرة يا أختاه ! رَأَقَبْنِي زوجي بعينين يطل منهما  
حُب وقلق وتلهُّف .. خطوتُ أمام النافذة وأنا نَهَبُ الفرح والألم المبرح ..  
كانوا يقطعون النباتات المنتجة للحبوب التي نضجت ، ويضعونها حزمًا  
فوق الأرض .. سَنَّةَ خصبة .. وحياة ثرية !

كنتُ الهت من الألم الموجه ، ولم ألبث أن تهللتُ جذلة حين عرفتُ أنني  
في أوج أنوثتي .. وهكذا ولدتُ ابني الأول ! كان قويًا ! كيف دفع بوابات  
الحياة ليخرج إلى الدنيا ؟ وبأية صيحة رائعة جاء بها قُدُمًا ! خشيتُ أن  
أموت من نفاذ صبره وتلهُّفه ، ثم أحاطتني قوته بهالة من المجد .. طفلي ..  
الرجل الذهبي !

الآن قد ازدهرت حياتي .. هل سأخبرك بكل شيء لتعرفي كيف اكتمل  
فرحي ؟ لماذا لا أفضي لك بذلك يا أختاه ، يا من رأيتِ قلبي عاريًا بكل  
صراحة ووضوح ؟ لقد حدث الأمر هكذا : رقدتُ على فراشي ضعيفة ،  
ولكن بانتصار ، كان ابني إلى جانبي ، دخل زوجي الحجر ، اقترب من  
حافة الفراش فاتحًا ذراعيه ، وثَبَّ قلبي . لقد أراد أن أُقدِّم له ابني طِبْقًا  
للعادة القديمة

أخذتُ ابني ووضعتُه بين ذراعي أبيه ، وقدمته بهذه الكلمات :

– سيدى العزيز ، شاهد أول ابنٍ لك . احمله زوجتك تعطيك إياه .

حملتُ في عيني .. أُصِبتُ بدوارٍ أمام توهُّج نظراته . انحنى بالقرب  
منى، وتحدث قائلاً :

- إننى أُعيدُه إليك . إنه ابننا

كان صوته خافتاً ، وتساقطت كلماته خلال الهواء كقطرات من فضة.

- إننى أُشاركُك فيه أنا زوجك الذى يحبك ا

أو تبكين يا أختاه ؟ آه ، نعم ، أنا أعرف .. وأنا بكيتُ أيضاً ' وإلا هل فى وسعنا طريقة أخرى .. كيف نستطيع أن نتحمل مثل هذا الفرح ؟ انظرى إلى ابنى ! إنه يضحك ا

\* \* \*

أوه يا أختاه ! لقد اعتقدتُ منذ أن أصبح ابنى هنا ، أنه لن يكون لى سوى كلمات الفرح أتحدث بها إليك .. كنت منتصرة وواثقة أنه ما من شىء يمكن أن يبدو منى ليثير أحزاني مرة أخرى ، إذ طالما أن هناك وشائج الدم فكيف يمكن أن يتأتى الألم منها ؟

اليوم لا يكاد قلبى يتحمل خفقاته ، لا .. إن الأمر لا يتعلق بابنى ! إن له تسعة أشهر من الحياة الآن ، ويبدو مثل « بوزا » فى بدانته . إذا أراد أحد أن يجلسه . فى الواقع لم تعد تُراعى قويات تماماً على ثنيه . إن أفكاره مملوءة بالإزعاج اللطيف ، وعيناه ترقصان إثراقاً . يقول والده إنه قد أفسدَ لكننى أسألك . كيف يمكننى أن أعنّف مثله ، وهو الذى يصهرنى بعناده وجماله ، حتى أننى أمتلئ دموعاً وضحكاً ؟

آه .. إنَّ السبب ليس ابنى ! كلا .. إنه شقيقى ، إننى أتحدث عنه ، وهو الابن الوحيد لأمى الذى كان فى هذه الأعوام الثلاثة هناك فى أمريكا ، إنه هو الذى جعل الدم يتدفق فى قلب أمى ، ومن قلبى هكذا .

تذكرين أننى حدثتُك عنه .. كيف أحببتهُ في طفولتى ؟ غير أننى لم أَرَهُ  
طوال تلك السنين العديدة ، ولم أعد أسمع عنه سوى أقل القليل ، لأن  
والدتى لم تنس قط أنه ترك بيتها ضد رغبتها ، وأنه رفض أن يتزوج  
خطيبته حين أمرته بذلك . إن اسمه لا يتردد بسهولة على شفيتها .

وها هو ذا الآن يعكّر صَفْوَ حياتها مرة أخرى ، لم يقنع بأنه عَصَى  
أُمه عصياناً خطيراً في الماضى .. انظرى الآن هنا إلى رسالته ! لقد جاءتنى  
بها أمس « وانج دا ما » مربيتنا العجوز ، التى أرضعت كلينا من تدييها  
حين وُلِدْنَا ، التى عرفت كل شأن من أمور أسرة والدتى .

عندما دخلتُ أحنّتُ رأسها حتى لامسَ الأرضَ أمام ابنى وحين قدّمتُ  
هذه الرسالة بكتُ وهى تتأوّه صارخة « آى . آى . آى .. » .

ولمّا كنتُ أعرفُ أنه ما من شىء يجعلها تفعل ذلك سوى كارتة ،  
أحسستُ أن حياتى تتوقف فى صدرى للحظات ، وصحت :

– أُمى .. أُمى !

تذكرتُ كيف كانت منحنية بضعف ووهن وهى تتكىء على عصاها  
عندما رأيتها آخر مرة ، أنبئتُ نفسى فى داخلى لأننى لم أذهب إليها سوى  
مرتين منذ مَوْلد طفلى . شغلنى عنها عمق استغراقى فى سعادتى !

أجابت « وانج دا ما » وهى تتنهد بشدة .

– إنها ليست أُمك يَا بِنَّةَ أشرف السيدات .. لقد أمدت الآلهة فى حياتها  
لترى هذه المحنة .

سألتها وقد تحول رعبى بسرعة إلى قلقٍ ولهفٍ

- أَيْكون أبى ؟

أجابت وهى تنحنى :

- وحتى ذلك النبيل لم يشرب بعد من الينابيع الصفراء .

فسألت وأنا أرى الرسالة التى وضعتها فوق ركبتى :

- إذن ... ؟

فأشارت إليها قائلة :

- لتقرأ الأم الشاببة للطفل الأمير تلك الرسالة . والمحت أن الأمر مُدَوَّن

فيها .

وهنا طلبت من الخادمة أن تصب لها الشأى فى الحجرة الخارجية .  
وناولت ابنى للخادمة الملازمة له ، ثم نظرت إلى الرسالة .. كان اسمى  
مكتوبًا عليها ، وكذلك اسم المرسلّة .. أمى ؟ ! انتابنى العجب ، إذ لم  
يسبق قط أن أرسلت خطابًا لى .

وبعد أن دهشت لفترة قصيرة ، فتحت المظروف الصغير ، وسحبت  
الورقة الرقيقة من داخله ، وفيها رأيت سُطُورَ أمى الرقيقة المدروسة  
المتروية التى دَوَّنَتْهَا بفرشاة كتابتها . مررتُ بسرعة على جُمَلِ الافتتاح  
المشكّلية ، ثم وقعتُ عينائى على هذه الكلمات التى كانت تُبِّ الرسالة :

« إِنَّ أَحَاكَ الذى كان فى البلدان الأجنبية تلك الشهور العديدة ، كتب لى

الآن أنه ينوى الزواج من فتاة أجنبية » .

وأنهت ذلك بالجمل الختامية التقليدية ، وهذا كل شيء ولكن أوه  
يا أختاه . لقد شعرتُ بقلب أمي ينزف من خلال كلماتها المقتصدة  
فصحتُ عاليًا

- أيها الأخ القاسي المخبول أيها الابن الشرير العاق ١

وظللتُ أصيح حتى أدركتني الخادمت اللاتي هرولن ناحيتي  
لتهدئتي، وهن يتوسلن إلي كي أتذكر أن الغضب يُسمِّمُ لبني الذي  
يرضعه طفلي ولما رأين أنني وقعتُ فريسة لفيض من الدموع التي لم  
أستطع أن أكبحها ، جلسن على الأرض وارتفعت أصواتهن بالإعوال  
معى، حتى ينزحن غضبي . وحين بكبتُ حتى هدأت ، وأزعجنى  
ضجيجهن ، أمرتهن أن يكدن بالصمت ، وأرسلت أستدعى « وانج دا ما »،  
وقلت لها

- انتظري ساعة أخرى حتى يعود والد طفلي إلى البيت فأفتح الخطاب  
أمامه ، وأعرف ما يأمرنى به كي أفعله ، وسأستأذن في الذهاب إلى أمي ..  
وفي غضون ذلك تناولى أرزًا ولحمًا حتى تنتعشى .

وافقتُ عن طيب خاطر ، وأصدرتُ أوامري بأن تُوضع أمامها قطعة  
إضافية من اللحم ، وأحسست بالراحة في الترفيه عنها لمشاركتها الأسرة  
في نكبتها

\*\*\*

حين جلستُ في حجرتي منتظرة عودة زوجي استغرقتُ في التأمل

والتفكير وحدي ، تذكرت أخي ، ولما قفز إلى ذهني كما أعهدده لم أستطع أن أراه كما هو الآن ، فقد نما إلى ذهني رجل يرتدى تياباً أمريكية ، يسير بلا خوف في الطرق الغربية لتلك الدولة النائبة . وربما يتحدث إلى رجالها ونسائها ، ليس هذا فحسب ، بل لا شك أنه يتحدث طالما يجب امرأة يمكنني أن أتصوره داخل عقلي كما عرفته جيداً ، أختاً لطفولتي ، يكبرني قليلاً ، والذي كنت ألعب معه عند عتبات بوابات الأفنية .

كان أطول مني بمقدار طول الرأس ، سريع الحركة ، يتحدث بابتهاج ، ويبدو متحمساً عقب الضحك . له وجه بيضاوي شبيه بوجه والدتنا ، وشفاته رقيقتان ناعمتان ، وحاجباه مُحَدَّدَان بوضوح فوق عينيه التاقبتين وكان موضع حسد المحظيات الكبيرات ، لأنه يفوق أبناءهن جمالاً .. وفي النهاية كيف يكون مختلفاً عن ذلك ؟ إنهن لسن أكثر من نساء عاديات ، كُنَّ من الجوارى في شبابهن ، سفاهن ممتلئة خشنة ، وحواجبهن متناثرة مبعثرة مثل شعر الكلاب ، أمّا والدتنا فقد كانت سيدة سلية مائة جيل عريق . كان جمالها بالغ الدقة والرقّة ، محكمًا في خطوطه وألوانه ، وهذا الجمال منحته لابنها .

لم يكن يعبا بهذا الجمال . كان يمسح متبرماً آثار تربيت أصابع الجوارى على جنتيه الناعمتين حين كُنَّ يتملقنه محاولات إرضاء أمه .. كان ينجب على ممارسة اللعب بل كان - بلا شك - قوياً جداً حتى في لعبه وصحكه ويبدو أنني أراه دائماً معقود الجبين في أثناء لعبه كان ثابت العزم في كل شيء ، ولا يطيق أن تعلق إرادة على إرادته .

وعندما كنا نلعب معًا لا أجرؤ على مُنازعته ، من ناحية أنه ولد ، ومن غير المناسب أن أجعل - أنا البنت - إرادتى ضد إرادته ، ولكننى من ناحية أخرى أتحتُّ له أن يكون له أسلوبه واتجاهه من منطلق أننى أحببته حباً عميقاً ، ولا يمكننى أن أراه حزيناً .

أجل لم يكن أحد يحتمل أن يراه فاشلاً ، كان الخدم والعبيد يبجلونه وينحنون أمامه باعتباره السيد الصغير ، وحتى وقار والدتنا كان يلين فى حضوره ، ولا أعنى أنها كانت تسمح له أن يعصى أوامرها بأى حال من الأحوال ، وأعتقد أنها كانت تقيد نفسها كى يكون ما تأمره به يتفق مع رغباته ، فقد سمعتها تطلب من إحدى الجوارى أن تنقل من فوق المنضدة كعكة بالزيت الحلو قبل مجيئه ، لأنه كان يستعذبها ، وأنه سيلتهمها فتصيبه بالمرض ، كما حدث ذلك دائماً ، لذا حرصت على ألا يراها ، إذ سيثبث بها فتضطر إلى منعه من تناولها

وحتى فى شبابه كانت الحياة ممهدة أمامه ، ولم يدر بخلدى أن لاحظ التفرقة فى المعاملة بينه وبينى ، إذ لم أحلم فى أى وقت بأن أكون على قدم المساواة مع أخى ، لم يكن ذلك ضرورياً ، فليس لى دور مهم كى أحققه للأسرة متلماً له ، فهو الابن البكر ، ووريث والدى .

فى تلك الأيام أحببتُ أخى حباً يفوق كل الآخرين ، كنت أسير بجانبه فى الحدائق متعلقة بيده ، وكنا ننحنى فوق البرك الضحلة نبحث فى الظلال الخضراء عن الأسماك الذهبية التى كانت تستحوذ على اهتمامنا ونسميها أسماكنا وكنا نجتمع الأحجار الصغيرة المتنوعة الالوان ونشكل بها

بعض المباني - كما في حكايات الجن - وسط أفنية ذات أسوار، ونزيتها على غرار مبانينا، ولكنها كانت رقيقة متناهية الصغر، ومعقدة في تصميمها. وعندما علمنى أن أحرك فرشاة الكتابة بعناية فوق الخطوط التمهيديّة للحروف في أول كراسة للخط ممسكا بيدي وهو يقودها، كنت أعتبره أَحْكَمَ البشر. وحينما كان يذهب إلى مباني النساء كنتُ أتبعه ككلب صغير. وإذا تسلل عبر البوابة ذات القنطرة المقوسة إلى قاعات الرجال حيث لا يمكننى الدخول، كنت أنتظره بصبر نافذ حتى يعود.

وفجأة - حين بلغ التاسعة من عمره - نقلوه من مساكن النساء إلى تلك المساكن التي يقطنها والده والرجال، فتحطمت حياتنا المشتركة معاً بقسوة

يا لتلك الأيام الأولى القليلة، لم أكن أستطيع أن أعيشها دون نوبات بكاء طويلة. وفي الليل كنت أبكى حتى أنام، فاحلم بمكان نزل فيه أطفالاً لا نفترق أبداً. آه. لقد مرت أيام عديدة قبل أن أكف عن الاستغراق في تفكير كئيب وأنا أرى كل حجرة خالية منه.. خشيت أُمى أخيراً على صحتى فحدثتني قائلة

- يا بنيّتي، هذا الشوق الدائم لأخيك غير لائق، فمثل هذه العاطفة يجب أن تُحفظ لعلاقات أخرى، ومثل هذا الحزن ملائم فقط عند موت والدئى زوجك. عليك أن تدركى ما يتناسب مع الحياة، واكبحى عواطفك بناء على ذلك. انكبي على دراساتك وتطريزك، فقد جاء الآن الوقت الذى يجب أن نُعدك فيه جدياً للزواج

ومنذ ذلك الحين فصاعدًا كانت فكرة زواجى الذى يدنو منى تلازمنى على الدوام . وَنَمَوْتُ لأفهم أن حياتى وحياة أختى لا يمكن أبدًا أن تسيرا جنبًا إلى جنب ، فأنا أولاً لا أنتمى إلى أسرته ، بل لأسرة خطيبى ، لذلك اهتممتُ بكلمات أمى ، وعزمتُ على تطبيقها عملياً فى أداء واجباتى .

أتذكر أختى ثانية بوضوح فى ذلك اليوم رغب فيه أن يذهب إلى المدرسة فى « بكين » .. لقد مثل بين يَدَيْ والدتنا ليسألها وفقاً للتقاليد أن تأذن له بالسفر ، وكنت حينئذ هناك ، ولما كان قد حصل على موافقة والدنا ، فإن مجيئه إلى والدتنا كان من قبيل المجاملة لا غير . فوالدتنا لم تكن تستطيع - إلا نادراً وبشق الأنفس - أن ترفض ما سمح به والدنا ، ولكن أختى كان يدقق دائماً فى مراعاة المظاهر الخارجية الخاصة بعاداتنا .

وقف أمامها مرتدياً ثوباً من الحرير الرمادى ، إذ كان الوقت صيفاً ، وقد أحاط إبهامه بخاتم من اليشب .. إن أختى مولع دائماً بالأشياء الجميلة، وفى ذلك اليوم جعلنى أفكر فى عصا فضية تُتَّخَذُ للزينة .. أُنْحَى رأسه قليلاً أمام والدتنا وهو يغض من بصره .. ولكن من حيث كنتُ أجلس استطعتُ أن أرى عينيه تومضان بين أجفانهما ، وقال :

- أمى ، إذا كنتِ تسمحين ، فإننى أرغب فى الدراسة إلى مَدَى أبعد فى جامعة « بكين » .

كانت بالطبع تعرف أنها يجب أن توافق ، وعرف هو أنها سترفض إذا كان ذلك فى استطاعتها ، ولكن فى الوقت الذى كان فيه غيرها من النساء تتوانى شاكيات باكيات ، تحدثت هى فى الحال بهدوء وحزم .

- يا بنى ، إنك تعرف أن الأمور يجب أن تجرى كما يقول أبوك ، وأنا أعرف أنني لا شيء أكثر من أمك ، وعلى الرغم من ذلك سأتكلم ، حتى ولو كنت لن أعارض رغبة أبيك ، فإننى لا أرى أية فائدة فى مغادرتك البيت . فوالدك وجدك قد أتما تعليمهما فى البيت . وأنت شخصياً كان لديك أبرع العلماء فى المدينة ليعلموك منذ طفولتك لقد استدعينا لك بمشقة وجهد العالم « تانج » من « سيتسوين » ليعلمك الشُّعْر .. هذا التعليم الأجنبى ليس ضرورياً لواحد فى مركزك .. إن الذهاب إلى تلك المدن البعيدة يُعزِّضُ حياتك للخطر ، وهى ليست ملكاً خالصاً لك إلى أن تعطينا ابناً يحمل اسم أسلافك فهلاً تزوجت أولاً ؟

حرك أذى - غاضباً - مروحته التى كان يمسك بها مفتوحة فى يده اليسرى وأغلقها ، ثم أعاد فتحها بحركة سريعة خاطفة ، ورفع عينيه ، وقفز الاعتراض من تحت جفنيه رفعت أمى يدها .

- لا تتكلم يا بنى ، إننى لا آمرُك ، بل أُحذِّرك فقط إنَّ حياتك ليست لك فاحرص عليها .

وأحنت رأسها ، فانصرفَ خارجاً .

لم أعد أراه بعد ذلك إلا نادراً . وقد عاد إلى البيت مرتين قبل زواجى ، ولم يكن لدينا ما نقوله لبعضنا البعض ، كما لم يحدث قط أن التقينا وحدنا معاً وكان لايجيء إلى مساكن النساء إلا لتقديم التحية التقليدية لوالدته أو ليوذعها ، ولم أكن أستطيع أن أتحدث معه بحرية فى حضور من يكبروننى سنّاً .

رأيت فقط أنه ازداد طولاً ، واستقامت قامته ، وأن وجهه فقد بعض نضارة الشباب ، كما فقد أيضاً رشاقة جسمه في طفولته وما كان يتميز به من تناسب جميل مع خفضه لرأسه ، حتى أنه في سنواته المبكرة كان أشبه ببنت وسيمة . وقد سمعته يُخبر أمى أنه في المدرسة الأجنبية كان عليه أن يمارس الرياضة البدنية يومياً ، وهذا أكسب جسمه طولاً وامتلاءً وقوة . وقص شعره وفقاً للنمط الجديد الذى ساد في زمن الثورة الأولى ، وكان شعره ناعماً وأسودَ فوق رأسه المرفوع . لقد رأيت أنه كان مليحاً ، والنساء في الأفنية كُنَّ يتنهeden وراءه وهو يمضى أمامهن ، وتمتت السيدة الثانية البدنية :

- آه . إنه يشبه أباه حين أحببناه للمرة الأولى .

ثم سافر أخى عبر البحار ، ولم أراه مرة أخرى . وأصبحت صورته باهتة في ذهنى حتى صارت معتمة غامضة من جراء كل الغرائب المحيطة به ، حتى أننى لم أعد أراه بوضوح .

كنت جالسة في حجرتى منتظرة عودة زوجى ، وأنا ممسكة بالرسالة التى بعثت بها أمى إلى ، فأدركت أن أخى كان رجلاً غريباً لم أفهمه .

\*\*\*

حين عاد زوجى إلى البيت ظهراً هرولتُ إليه باكية ، والرسالة في يديّ الممدوتين ، فتلقانى بدهشة قائلاً :

- لكن ما هذه ؟ لكن ما هذه ؟

فصحت قائلة :

- اقرأ هذه .. اقرأ وانظر !

وارتفع صوتى بالنشيج والبكاء من جديد ، وتطلعت إلى وجهه لأرى ما يرتسم عليه وهو يقرأ .

تمتم وهو يعصر الرسالة ويجعلها في يده :

- غبى .. ولد أحمق .. أحمق ! كيف يفعل ذلك ؟ نعم .. انهى فوراً إلى أمك المبجلة . يجب أن تواسيها وتريحها .

طلب من الخادمة أن تخبر الرجل الذى يجر عربة الريكشا بالإسراع فى تناول طعامه حتى لا أضيع الوقت . وحين أصبح الرجل على أهبة الاستعداد ، اصطحبتُ ابنى فقط والخادمة الملازمة له ، وتوسلت إلى الرجل أن يجرى بسرعة .

وعندما دخلتُ من بوابة بيت أمى أدركتُ على الفور الصمت الذى يجثم ثقيلاً مرهقاً على كل الأشياء ، كما تطبق سحابة معتمة على القمر .. العبيد يروحون ويجيئون لأداء أعمالهم وهم يديرون عيونهم ويهمسون . أمّا « وانج دا ما » التى اصطحبتها معى فقد بكت ونحن نخترق الشوارع حتى أنتفخت جفونها من كثرة ما ذرفته من دموع .

وفى فناء الصفصاف المتدلى كانت السيدتان الثانية والثالثة تجلسان مع أطفالهما . دخلتُ مع ابنى ، وما كادا يرحبان بمقدمى حتى انهالتا علىّ تسألاننى فى شوق ولهف . وصاحت السيدة الثانية البدنية :

- آه ، يا للطفل الجميل !

ثم وضعت أصابعها السمينية على وجنة ابني ، وراحت تشم يده  
الصغيرة وتربت عليها بلطف قائلة

- أنت حُلوة صغيرة ! هل سمعت ؟

ثم استدارات نحوي في رزانة .

أومأت برأسي محيية . وسألت :

- أين أمي ؟

فأجابت .

- إن السيدة الأولى المبجلة قد لازمت حجرتها منذ ثلاثة أيام .. إنها  
لا تكلم أحدًا ، وهي تجلس في حجرتها ولا تبارحها إلى الحجرة الخارجية  
إلا مرتين في اليوم لتأمر بتدبير شئون المنزل ، ولتخرج الأرز والطعام ،  
ثم تعود ثانية إلى حجرتها . إنَّ شفتيها مطبقتان كشفتي تمثال من حجر ،  
وعينيها تحملنا على الانصراف عنها ، ونحن لا نجرؤ على التحدث معها ..  
إننا لا نعرف أفكارها .

تملقتني بانحناءاتها وابتساماتها وهمست :

- هل ستخبريننا بما تقوله لك ؟

ولكنني هزرت رأسي رافضة فضولها .

فأضافت قائلة .

– لا أَقَلُّ من أن تتركى لنا الصغير العزيز لنلاعبه

و مدت ذراعيها تجاه ابني ، ولكنني منعتها من حَمْلِهِ وقلت .

– سأأخذه إلى أمي سيبهجها مَرَّاه ، ويزيح عنها حزنها .

وحين عبرت من قاعة الضيوف إلى فناء أزهار الفاونيا ، ثم إلى  
الحجرة التي تقضى فيها النسوة وقت الفراغ ، وقفت أمام الجناح الذي  
تقطن فيه أمي ، ومن المعتاد أن تكون الستارة الساتانية الحمراء مدلاة  
على هذا المدخل ، أمّا الآن فقد وجدتُ الباب موصداً خلف الستارة ، عندئذ  
طرقته بخفة براحة يدي لم يكن ثمة مجيب . قرعت ثانية ثم صحت .

– هأنذى يا أماه ! أنا طفلتك الصغيرة !

حينئذ سمعت صوتها كما لو كان آتياً من بعيد

– تَعَالَى إِلَيَّ يَا بَنَّتِي !

دخلتُ . رأيتها تجلس بجانب المنضدة السوداء المنقوشة كان البخور  
يحترق بلا لهب في الجرة البرونزية ، ويتصاعد أمام الكتابة المقدسة على  
الحائط . كانت تجلس محنية الرأس ، وقد حملت كتاباً بين أصابع إحدى  
يديها المدلاة بجانبها . ولما رأتنى أدخلت قالت .

– هل جئت ؟ كنت أحاول أن أقرأ « كتاب التغييرات » ولكنني لم أجد

اليوم شيئاً في صفحاته يريحني

وهزت رأسها بشيء من الغموض حين كانت تتحدث ، وسقط الكتاب  
على الأرض ، فتركته مكانه هناك

انزعجتُ إزاء هذه الحيرة في التصرف ، فقد كانت أمي دائماً متمالكة  
النفس ، واثقة رابطة الجأش ، والآن رأيت أنها بقيت طويلاً وحدها ،  
فَأَنْبَتُ نفسي لأنني شُغلت عنها بحب ابني حباً خلب لُبِّي ، ووجدتُ في  
حُبِّ أبيه وحنانه ورقته تجاهي ما أراحني بعمق ، وجعلني رحية البال  
وقتاً طال مداه . لقد انقضت أيام عديدة منذ أن أتيتُ لزبارتها ، فكيف  
أستطيع أن أرفع معنوياتها وأحوّل أفكارها وألهيها عمّا هي فيه ؟ أخذتُ  
ابني وأوقفته على ساقيه السمينتين ، وثنيتُ يديه الصغيرتين وجعلته  
ينحني أمامها ، وهمست له .

- السيدة المبجلة الكبيرة . قُلْهَا أيها الطفل !

فقال متلعثمًا وهو ينظر إليها بدون أن يبتسم

- السيدة الكبيرة !

لقد أخبرتك أنها لم تره منذ شهره الثالث ، وأن تعرفين يا أختاه كم هو  
جميل ، بكل ما في الكلمة من معنى ! من ذا الذي يستطيع مقاومته ؟  
تركزت عينها عليه ، وتريثت متطلعة إليه ، توجهت إلى خزانة مطلية  
بالذهب وتناولت منها صندوقًا أحمرَ بورنيس اللُّك ، فتحتة ، فكان  
بداخله كعكات صغيرة يغطيها بذور السمسم ، أعطتها إياه مائة يديه ،  
فلما رأى تلك الحلوى ضحك عاليًا ، في حين افترَّ ثغرها عن ابتسامات  
باهتة وقالت .

– كُلُّ يَا قَرْنَ اللُّوتَسِ الصَّغِيرِ ا كُلُّ أَيُّهَا الْبَدِينِ الصَّغِيرِ ا

ولما رأيتُ أنها تلهت في تلك اللحظة وسُرَّت ، التقتُ الكتاب ، وصيبتُ  
الشاي في « السلطانية » من القدرِ الموضوع على المنضدة ، قدمته إليها  
بكلتا يدي .

طلبتُ مني أن أجلس ، ثم أخذ الطفل يلعب على الأرض ، ونحن نرقبه .  
انتظرتُ أن تتكلم ، ولم أكن أعرف ما إذا كانت ترغب في أن تطرق  
موضوع أخى أم لا ، ولكنها لم تقترب منه .  
وقالت أولاً .

– ها طفلك هنا يا بنيتي .

حينئذ تذكرتُ الليلة التي أخبرتها فيها بأحزاني والآن أطل علينا  
مصباح النهار ببهجته ، فقلت لها وأنا أبتسم .  
– نعم يا أمه .

فسألت وعيناها ما زالتا على الطفل .

– هل أنت سعيدة ؟

أجبتها .

– إن سيدي أمير بحنانه ورقته ولطفه معي ، أنا زوجته المتواضعة .

قالت وهي مستغرقة في التفكير وعيناها على الطفل :

– لقد حَمَلتِ وأنجبت طفلاً يُعدُّ نموذجًا للكمال .

ثم أردفت :

- وإنى لاحظت أنه بلغ أعلى درجات الكمال ، ولم يعد يعوزه أى جمال  
نرجوه له . آه !!

ثم تنهدت وقالت بتأثر وقلق .

- كان أخوك مثل هذا الطفل ! وإنى أود لو أنه مات فى ذلك الوقت ،  
حتى أظل أتذكره جميلاً وباراً بوالديه !

عندئذ فهمت أنها ترغب فى التحدث عن أخى ، ولكننى انتظرت حتى  
أدرك اتجاه أفكارها بوضوح أكثر . وبعد لحظة عاودت الحديث رافعة  
عينها نحوى .

- تسلمت رسالتى ؟

أجبتها وأنا أنحنى :

- رسالة أمى وصلتنى هذا الصباح بيد الخادمة .

تنهدت مرة أخرى ، ونهضت وتوجهت إلى درج المكتب وأخرجت منه  
رسالة أخرى .. وقفت أنتظر عودتها .. وعندما ناولتنى الرسالة تسلمتها  
بكلتا يديّ .

قالت :

- أقرئها .

كانت من صديق لأخى يدعى « تشو » سافر معه شقيقى من « بكين »

إلى أمريكا ، وقد كتبها بناءً على رجاء أخى ، وفيها يقول : إن «تشو كوو تينج» يكتب إلى السادة الأجلاء المسنين ليخبرهم بأن ابنهم حَظَبَ لنفسه - وفقاً للعادات الغربية - ابنه أحد مُدَرِّسيه في الجامعة . وهو ابنهم بيعث لوالديه بما يكره لهما من احترام بنوى ، ويرجوها أن يفسخا خطبته القديمة لابنة «لى» التى طالما أتعسته وأشقتة ، حتى حين يفكر فيها . إنه يعترف بفضل والديه السامى وعطفهم اللانهائى حياله ، ابنهما الذى لا يستحق كل هذا ، ومع ذلك فإنه يود أن يقول بوضوح . إنه لا يمكنه أن يتزوج الفتاة التى حُطبت له وفقاً للعادات الصينية ، لأن الزمن قد تغير ، وأنه رجل عصرى قرر أن يختار طريقة للزواج العصرى الحر المستقل .

وانتهت الرسالة بكثير من الكلمات التقليدية التى تعبر عن الحب والاحترام والطاعة بيد أن ما اعتزمه أخى فى قلبه كان واضحاً جلياً . وقد سأل صديقه أن يكتب له لأنه يود فقط أن يجنب والديه ونفسه جرح التحدى السافر . لقد احترق قلبى ضده عندما قرأت الرسالة . وعقب انتهائى منها طويتها وناولتها لأمى ثانية بدون أن أتفوه بكلمة . فقالت .

- لقد انتابه الجنون ، وإنى بعثت إليه برسالة شديدة اللهجة أمره بالعودة فوراً

هنا عرفتُ عظم تأثرها وتهيجها ، فأمى بكل كيانها من الصين القديمة .. وعندما نُصبت فى شوارع مدينتنا القديمة الجميلة أعمدة طويلة تحمل أسلاكاً - كما تحمل أغصان شجرة أنسجة العناكب - صاحت ضد ذلك التدنيس وقالت فى سخط .

- إن قدماءنا استعملوا الفرشاة والحبر ، فماذا لدينا - نحن أحفادهم  
التافهين - لنقوله أكثر أهمية من كلماتهم الجلية حتى نحتاج لمثل هذه  
السرعة ؟

وحين سمعتُ أن الكلمات يمكن أن تسافر حتى تحت البحر نفسه  
قالت .

- وماذا هناك ما نرغب في توصيله إلى هؤلاء الهمج ؟ ألم تقم الآلهة  
الحكيمة بصبّ البحر بيننا وبينهم لتفصلنا عنهم ؟ ليس من التقوى أن  
نصل ما فصلته الآلهة وعزلتنا عنه بمعرفتها .

ولكنها الآن أصبحت في حاجة إلى مثل هذه السرعة !

وقالت بحزن :

- لقد اعتقدتُ أنني لن استعمل أبداً تلك المخترعات الأجنبية ، كما  
ظننت أن ابني يجب أن يبقى في بلده ، ولكن حين يتعامل المرء مع  
الهمجيين، يكون مضطراً لأن يشد الشيطان نفسه إلى طاحونته !  
عندئذ تحدثت لأخفف عنها .

- أماه ، لا تبتئسى كثيراً . إن أخى مطيع ، وسيستمع لكِ ويكف عن  
الركض وراء امرأة أجنبية .

ولكنها هزت رأسها وأحنت جبهتها وأسندتها بيديها . انتابني قلق  
مفاجيء لَدَى رؤيتي لها في مثل تلك الحالة .. كانت في الواقع تبدو  
مريضة! لم تكن قط بدينة ، ولكنها الآن بدت مهزولة ، ويدها التي تسند

رأسها كانت ترتجف انحنيتُ إلى الأمام لأرقبها بمزيد من الاهتمام حين شرعتُ تتحدث ببطء ، فوصلنى صوتها خافتاً فى إرهاق شديد .

- لقد تعلمتُ منذ وقت طويل أنه إذا زحفت امرأة إلى قلب رجل ، تتركز عيناه بإحكام عليها ، حتى أنه يعمى عن رؤية أى شىء آخر عداها .

توقفتُ لوقتٍ قصير لتستريح ثم استأنفت الحديث ، فكانت كلماتها أشبه بالتهنيدات

- والدك . ألا يُعدُّ رجلاً شريفاً جديراً بالاحترام ؟ نعم لقد استسلمتُ منذ وقت بعيد وكَيْفَتُ نفسى وفق هذا الشىء بدون نذمر . فهو حين يستولى عليه جمال امرأة وتستاثر برغباته ، فإنه يُجنُّ لفترة من الوقت ، ويزايله فهم أى شىء معتدل يتسم بصواب الفكر . لقد عرَفْتُ عشرين فتاة من المغنيات ، إلى جانب هذه الأفواه الكسولة التافهة التى بجىء بها إلى البيت كمحظيات . ولدينا منهن ثلاثٌ . أما سبب عدم إحضاره أخرى فيعود إلى أن اشتهاه لفتاة « بكين » ضعف وانقطع قبل أن تنتهى المفاوضات ، فكيف يكون الابن أكثر حكمة من أبيه ؟

نهضت فجأة وقالت .

- الرجال !

ولَفَّتْ شفقتها حتى بدا فمها شيئاً حياً يجسد الهزء والسخرية والازدراء

- إن أفكارهم في باطنهم تتحوَّى (١) وتتجمَّع وتستدير كالحيات حول  
الجسد الحى لامرأة ما

جلستُ مرتعبةً من كلماتها ، إذ لم يسبق لها قط أن تحدثت من قبل  
عن أبى والمحظيات لقد تغلغلت على حين غرة إلى تجاويف قلبها  
الداخلية .. كانت المرارة وما لقيته من معاناة ومقاساة أوعية من النيران  
تتأجج بداخلها. لم أجد كلمات أخفف بها عنها . أنا المرأة التى يجبها  
زوجها ، حاولت أن أتصوره يتخذ له زوجة ثانية فلم أقو على ذلك ،  
واستطعت فقط أن أتذكر ساعات حبنا ، تطلعت عينائى لا إرادياً إلى ابننا  
الذى ما زال يلهو بكعكات السمسم الصغيرة . ماذا عسائى أقول لأمى  
حتى أُسرِّى عنها ؟

انقضت فترة طويلة قبل أن أبدأ الحديث فى خوف .

- لعل تلك المرأة الأجنبية ..

غير أن أمى ضربت الأرض بغليونها الطويل ، وكانت قد تناولته لتوها  
من فوق المنضدة ، وبدأت تحسوه على عجل بأصابع مرتعشة نافذة  
الصبر ، فقاطعتنى وقالت بحدّة

-- دعينا ، لا نتحدث فى ذلك الأمر

وأردفت :

- لقد تكلمتُ ، وعلى ابنى الآن أن يُطيع ، سعود ويتزوج ابنة «لى»

(١) تتحوَّى تلوى وتلمتُ

خطيبته ، ومنها يجب أن تأتي بِذُرَّتَهُ الأولى ، وبهذا يتحقق واجبه إزاء أسلافه القدماء ، وبعدها يستطيع أن يتخذ زوجةً صغيرةً له مِمَّنْ يشاء ، أسأنتظر أن يكون الابن أفضل من الأب ؟ .. لا عليك الآن إلا أن تصمتي وتركيني ، إنني متعبة مكدودة ، يجب أن أستريح هنيهة في فراشي .

لم أستطع أن أضيف شيئاً . لقد رأيت فعلاً أن وجهها كان شاحباً ممتقعاً ، وأن جسمها تهدل كقصبية من البوص ذابلة . ولذا حملت ابني وانسحبت من حضرتها .

\*\*\*

عندما عدتُ إلى بيتي أخبرتُ زوجي - والدموع تنحدر من عيني - أنني لم أتمكن من تخفيف أحزان أمي ، فواساني بوضع يده فوق يدي ، وطلب مني أن أنتظر صابرةً مجيء أخى . وحين تحدثتُ معي بهذه الرقة والدمامة انتعش الأمل في صدري تجاه المستقبل ، ولكنه حين توجه إلى عمله في صباح اليوم التالي سقطتُ فريسةً للشك مرةً أخرى .. لم أستطع أن أنسى أمي !

فمن خلال أحزان حياتها طيلة تلك السنوات داعبها ذلك الأمل العظيم في المستقبل .. أمل النساء الصالحات جميعاً ، حينما كانت تفكر في أن ينجب ابنها ابناً يكون سنداً لها في سننها المتقدم ، وتُحقق به واجبها نحو الأسرة ، فكيف تأتي لأخى أن يضع رغبته الطائشة في مسيرة حياة أمي ؟

سَأُؤَبِّخُ أَخِي .. سأخبره بكل ما قالته أُمِّي .. سأذُكِّرُه بأنه ابنها الوحيد ،  
وسأقول له بعدئذ .

كيف يمكنك أن تضع على رُكْبَتَيْ والدتنا طفل امرأة أجنبية ؟



## 6

لم نسمع جديدًا بعد يا أختاه ! إننى أبعث البستانى يوميًا إلى بيت أمى ليسأل عن صحتها ، وليعرف ما إذا كانت هناك رسالة جاءت من أخى .. وعلى مدى خمسة عشر يومًا

كان يجيبنا كل يوم

- إن السيدة الكبيرة المبجلة تقول إنها ليست مريضة ، ولكنها فى عيون خادماتها كانت تضعف وتهزل تدريجيًا ، لقد عزفت عن الطعام . أمًا بشأن السيد الصغير فلم يبعث بأى رسالة منه ، وربما لهذا السبب تدهورت صحتها ، ففى سنها لا يمكن تحمُّل القلق بسهولة .

أوه ، لماذا لم يبعث أخى بكلمة ؟ لقد أعددتُ طعامًا شهياً لأمى ، ووضعته فى أوعية جميلة من الخزف الصينى ، وبعثتُ الخادومات به وقلت .

- كلى يا أمى من هذا اللحم المتواضع . إنه لا طعم له ، ولكن لأنه من إعداد يديّ فتلطفى لتتناولى قليلاً منه .

وقد أخبروني أنها بدأت تأكل ، ثم وضعت العودين ( اللذين يتناول بهما الصينيون طعامهم ) جانباً . لم تستطع أن تحرر قلبها من قلقه . هل يُترك أخى ليقتل أمى ؟ يجب أن يعرف أنها لا يمكنها أن تحتل أساليب الغرب غير اللائقة التى تبيح عقوق الابن . من الخزى والمخجل أنه لا يتذكر واجبه !

\*\*\*

قضيتُ عدة ساعات أتأمل وأتعجب .. لا يمكننى أن أقرر ماذا سيفعله أخى .. وفى أول الأمر لم يساورنى الشك فى طاعته لأمننا فى النهاية. أو ليس جسده وجلده وشعره تنحدر منها ؟ أيمكنه إذن أن يلوث هذه القداسة مع فتاة أجنبية ؟

زِدْ على ذلك أن أخى قد تعلّم فى أوائل شبابه حكمة « السيد العظيم » التى تقول : « إن أول واجب للرجل أن يحرص باهتمام على كل رغبة لوالديه » . وعندما يعود أبى ويسمع بما انتواه أخى فمن المؤكد أنه سيرفضه أيضاً . وبهذا كنت أقنع نفسى كى تركز إلى الهدوء .

وهكذا كنت ألجأ إلى أعمال فكرى فى أول الأمر ، أمّا اليوم فأنا أشبه بجدول غير مستقر بغير اتجاه مياهه فوق الرمال فيدفع بها تحتها .

إنه زوجى يا أختاه هو الذى جعلنى أشك فى حكمة الأساليب القديمة، فمن حنايا حبه قادنى إلى الارتياب ! ففى الليلة الماضية قال أشياء غريبة . سأخبرك بها ، لقد كانت على النحو التالى :

جلسنا في الشرفة الصغيرة التي أقامها من القرميد في الناحية الجنوبية من البيت . كان ابننا نائمًا في فراشه الخيزراني بالطابق العلوى ، أمّا الخدم فقد انصرفوا إلى شئونهم الخاصة ، وجلست أنا على مقعد الحديد المصنوع من الخزف الصينى على بُعدٍ قليل من سيدى ، كما تقضى بذلك اللياقة ، واستلقى هو على مقعد طويل من الخيزران .

ورحنا نرقب القمر في كامل وجهه وهو يبدو عاليًا في السماوات وهبت رياح الليل ، وعبر السماء كان هناك موكب من السُّحب البيضاء تدور بسرعة الطيور الثلجية الضخمة فتُخفى وجه القمر تارة ، وتكشف سحره بجلاء تارة أخرى . وكانت السُّحب مسرعة ، حتى بدا القمر نفسه كأنه يدور فوق الأشجار . وتشبَّهت رائحةُ المطر بهواء الليل أبهجنى هذا الجمال والسلام ، وأحسستُ بهما ينبعان من داخلى . شعرت على نحو مفاجيء بالرضا العظيم بحياتى رفعتُ عينى ، فرأيت زوجى يتقرَّس في وجهى ، فانبعثتُ في داخلى متعة رائعة في خفر وحياء .

وأخيرًا قال بصوت يعبر عن رضائه

– يا له من قمرٍ أهلاً عزفتِ على قيثارتك القديمة يا « كواى لان » ؟

فأثرته بتأنيبٍ ساخر حين قلت

– إن الهارب له ست حالات بغیضة ممقوتة ، وسبعًا محرمة طبقًا لأسلافنا القدماء الذين وضعها .

تم استطردت .

- إن صوتها لا ينطلق في حالة الحزن ، وفي وجود آلات البهجة في أعياد القصف واللهو ، وإذا كان العازف شقيًا وتعييسًا ، وحين يكون شخصه مدنسًا سييء السمعة ، وعندما تكون أعواد البخور غير حديثة الاشتعال ، أو في حضور مستمع غير متعاطف . فإذا لم تنبعث الألحان منها في هذه الليلة يا سيدي ، فأى هذه الحالات الممقوتة تكون السبب ؟

اتخذ سيماء الوقار ثم قال

- كَلَّا يا قلبى ، إننى أعرف أنها في يوم من الأيام لم تكن لتبعث بصوتها لأننى كنت تلك الحالة الممقوتة . مستمعًا غير متعاطف ، أمّا الآن فدَعِى أَنَامِكِ تعزفُ الحانَ الحب القديمة ، وأغانى الشعراء .

عندئذ نهضتُ وأحضرتُ قيثارتى ، ووضعتها على الطاولة الحجرية الصغيرة التى بجانبه ، ووقفت ، ولأَمَسْتُ أصابعى أوتارها فى حين كنت أتأمل فيما أغنيه له . وأخيرًا غنيتُ هذه

باردة رياحُ الخريفِ ،

صافٍ قمرُ الخريفِ .

الأوراق الذابلة تسقطُ وتتناثر ثانية،

وغراب مُتَيِّمٌ بالصقيع ينطلق من الشجرة

أين أنتِ يا حبيبي ؟

هل سأراكِ مرة أخرى ؟

آه ، قلبى يبكى هذه الليلة ..

إننى وحيد !

ثم سمع صدى تلك العبارة « . وحيد .. وحيد . وحيد .. » تتكرر  
مرارًا من الأوتار بعد أن كَفَّتْ أناملى عن مداعبتها ، حملت الرياح الصدى،  
وامتلأت الحديقة فجأة بالصوت الحزين الذى اهتز فى أعماقى على نحو  
غريب ، وأعاد إلى حزننى الذى ظل قابلاً منسياً على مدى ساعة .. إنه حزن  
أمى . وضعتُ أصابعى على الأوتار برفق لأوقف أنينها ، وقلت

- إننى يا سيدى واحدة من الحالات المقوتة ، فإننى حزينة ، أنا  
العازفة، والقيثارة تنوح معى طوعًا .

نهض وأقبل نحوى وأمسك بيدي وقال .

- حزينة ؟

قلت بضعف :

- من أجل أمى !

وتجاسرتُ وأرحتُ رأسى لحظة فوق ذراعه ، وقلت .

- إنها حزينة ، وحزنها يحدثنى من خلال القيثارة ، إنه بسبب أخى ..  
إننى أشعر بقلقها فى هذه الليلة .. كل شىء قلق ينتظر مجيئه . ليس لديها  
الآن غيره . لقد انقطعت الصلة بين أبى وبينها منذ أمد بعيد ، وأنا الآن  
أنتمى إلى أسرة أخرى .. أُسْرَتِكَ .

لم يقل زوجى شيئاً فى بادىء الأمر . تناول تبغاً أجنبياً من جيبه  
وأشعله . وأخيراً تكلم بصوت هادىء

- يجب أن تعدى نفسك ، فمن الأفضل مواجهة الحقيقة . من  
المحتمل أنه لن يطيع أمك

أفزعنى ذلك وسألت

- لماذا تعتقد ذلك ؟

سأل بدوره وهو ينفث من فمه دخان التبغ متقطعاً .

- لماذا تعتقد أنى سيطيع ؟

استدرتُ نحوه قائلة .

- كلا ، لا تجيبنى بأسئلة توجهها لى ، إننى لا أعرف . أنا لستُ ذكية ،  
ولا أجد الإقناع بالحجة والمنطق ! وإذا كان لدى سبب حقيقى فلأن أذى  
قد تعلم طاعة الوالدين كأساس من أسس الدولة ، وكواجب من واجبات  
الابن .

فقاطعنى ورمقنى بنظرة ذات معنى .

- إن الأسس القديمة قد تحطمت ، ويجب أن تكون هناك أسباب أقوى  
من هذه فى أيامنا !

ملأنى الشك فى أثناء حديثه ، تم تذكرتُ سلوى سرية تريحنى ، هى  
شئى لم أتحدث عنه علانية ، كان هذا هو أفكارى الداخلية ، وهمست

قائلة

- ولكن النساء الأجنبية قبيحات ، فكيف يتزوج رجل من جنسنا  
منهن؟ لا سبيل لرجالهن سوى الالتجاء لهن ، ولكن ...

لُدْتُ بالصمت ، فقد خجلتُ أن أتحدث عن الرجال هكذا أمام زوجي .  
ومع ذلك فكيف يرغب الرجل في أمثال تلك النسوة التي رأيناها قبل مولد  
ابني ؟ مثل تلك العيون الفاتحة المسطحة ، والشعر الباهت ، والأيدي  
والأقدام الخشنة ؟ إنني عرفتُ أخي ! أليس هو ابن والدي ، أو لم يكن  
أبي مولعًا بالجمال في النساء فوق كل شيء في العالم ؟

ضحك زوجي ضحكة قصيرة وقال

- ها ! ليست كل النسوة الصينيات جميلات ، وليست كل الأجنبية  
قبيحات ! لقد سمعتُ أن ابنة « لي » التي خُطبت لأخيك ليست جميلة ..  
يقولون في مشارب الشاي إن شفيتها عريضتان إلى مدى بعيد ، وإنهما  
مُنحيتان إلى أسفل كمنجل الأرز .

صِحتُ في سخط :

- ما لكسالي مشارب الشاي والتحدث عن مثل ذلك الشيء ؟ إنها فتاة  
محترمة ، وأسرتها من النبلاء !

هز زوجي كتفيه وقال .

- لقد أشرتُ فقط إلى ما أسمع ، وإلى ما لاشك قد سمعه أخوك ، وقد  
يكون مثل هذا الحديث قد يَسَّرَ له أن يتعلق قلبه التائه بامرأة أخرى .

خيم علينا الصمت لحظة ، ثم أكمل حديثه وهو يدخن مفكرًا :

- وهاته النسوة الأجنبية ! بعضهن يشبهن النجم الأبيض في جمالهن ! عيون صافية ، وأجساد متحررة .

استدرتُ ونظرتُ لزوجي بعينين مفتوحتين إلى أقصى مدى ، ولكنه لم يَرِنِي وتابع حديثه :

- وأذرعهن تلك العارية الجميلة .. ويمكنني أن أقول لك إنهن متحررات كتحرر الشمس والرياح ، وبضحكهن ورقصهن يسلبن لبُّ الرجل ، ويجعلن قلبه ينساب بين أناملهن كضوء الشمس ، حتى ينطرح فوق الأرض .

توقف أنفاسي لحظة .. عمَّن تحدث زوجي إذن ؟ أية أجنبية علمته ذلك ؟ شعرت بغضب مريع يغلي في داخلي ، فقلت متلعثمة .

- أنت .. هل كان لديك ...

هز رأسه ، وضحك مني قليلاً وقال

- أية امرأة أنتِ ! كلا ، لم يحدث قط أن سلبت واحدة قلبي هكذا . لقد حفظته بطريقة ما حتى ....

وتغيرت نغمة صوته وهبطت إلى مستوى رقيق من الحب والحنان أدركها قلبي فاطمأنً ، وشعرت براحة البال

ثم همست .

- ولكن هل كان الأمرُ صعبًا ؟

- نعم في بعض الأحيان ، فنحن - الرجال الصينيين - أبقينا على عادة الانفصال ، فنسأوُنا متحفظات ، متظاهرات بالاحتشام ، لا يفصحن عن شىء ، وبالنسبة لشابٍ - وأخوك شاب - تبدو الأخريات ، أعنى النساء الأجنيات ببشراتهن الجميلة الناصعة البياض ، وأجسادهن الفاتنة ، يقدمن أنفسهن في الرقص ....

فقاطعته بوقار .

- صه يا سيدى .. هذا حديث رجال .. لن أستمع إليه .. هل حقيقة أن هؤلاء الناس يعوزهم التهذيب ، وغير متحضرين ، ومتوحشون كما صدر من بين شفقتك وطَرَقَ مسامعى ؟

أجاب بتمهل .

- كلاً ، إن بعض السبب يعود إلى أن بلدهم فتية ، والشباب فيها يستمتعون بشكل بسيط صريح ، ولكننى تحدثت عن ذلك لأن أخاك شاب أيضًا ، وحتى إذا كُنْتَ لا تودِّين سماع ذلك ، فإن الشىء الذى لا يُنسى هو أن شفتى خطيبته عريضتان ومقوستان كمنجل الأرز .

ابتسم ثانية ، وارتمى على مقعده وراح يحدق في القمر ..

زوجى حكيم ولا يمكننى أن أطرح كلماته جانبًا بسهولة ، ومما قاله بدأت أدرك أن هناك بعضًا من السحر يحوم حول اللحم العارى لتلك

النسوة الأجنبيات ، وحين تكلم أزعجنى ما سمعته ، ممّا حدّابى أن أتذكر  
عينى أبى المتألقين وضحكته ومحظيته الأثيرة لديه . ارتجفتُ ، ومع ذلك  
لم أستطع أن أنتزع أفكارى .

لقد تأملتُ وفكرت ملياً .. صحيح أن أخى رجل ، هذا بالإضافة إلى أن  
صمته المتواصل علامة سيئة . كانت هذه طريقته منذ طفولته ، إذ كان  
يلتزم بالصمت ، ويصرُّ على تنفيذ ما عقد عليه عزمه ، فحين كان طفلاً  
صغيراً إذا حدّث ومنعتُ أمى عنه شيئاً ، فإنه كان يلون بالصمت فجأة ،  
ويتشبّث بذلك الشىء بشدة ، كما قالت « وانج دا ما »

وأخيراً وضعتُ القيثارة فى علبتها المصقولة المطلية بورنيش اللك وأنا  
أتنهّد .. سلّم القمر نفسه للسحاب تماماً ، وبدأ رذاذ المطر يتساقط .. لقد  
تغير مزاج الليل ، فتوجهنا إلى البيت ، ونمتُ ليلة سيئة .

\* \* \*

طلع الفجر فى هذا اليوم تحت سماء رمادية ساكنة ، والهواء مثقل  
بحرارة حديثة ، ومشبع بالرطوبة . كان الطفل قلّقاً مضطرباً على الرغم  
من أننى لم أجد فيه مرضاً .

عادت الخادمة اليوم من بيت أمى بعد أن سألت عن صحتها ،  
وأخبرتنى أن أبى قد جاء .. يبدو أن « وانج دا ما » قد تجرأت وبعثت إليه  
برسالة ، بواسطة كاتب الرسائل المحترف الذى يجلس عند باب المعبد ،  
تتوسل إليه بتدليل أن يجىء لأن صحة أمى وضعفها لم يطرأ عليهما

تحسن . فهي تلازم حجرتها يوماً بعد يوم ، وغير قادرة على تناول الطعام . تسلم أبى الرسالة فحضر إلى البيت ليقضى فيه يومين .  
عندئذ عزمْتُ أن أذهب لأراه . ألبستُ ابني ثوبًا أحمر . إنها المرة الأولى التي يراه فيها أبى .

وجدت أبى جالسًا على مقربة من البركة في فناء الأسماك الذهبية ، لما كان الجو حارًا ، ونظرًا لأنه ازداد بدانةً الآن ، فقد جلس بجانب البركة متدثرًا فقط بسترته التحتية وسروال من الحرير الصيفي .. كان شاحبًا كالماء تحت أشجار الصفصاف . ووقفت السيدة الثانية بجواره تحرك الهواء قُبَالته بمروحة اليد . كانت حبات العرق تتدحرج على خديها لعدم تعوُّدها على مثل ذلك الإجهاد . وكان أحد أطفاله يجلس على رُكْبَتَيْهِ مرتديًا ثوبَ المهرجانات احتفاءً بعودته .

وعندما دخلتُ إلى الفناء صفق بيديه وصاح

- آها .. آها . ها هي ذى الأم وابنها تجيء !

أنزل ابنه عن ركبته ، وطلب من ابني أن يقترب وهو يغريه بصوت منخفض مبتسماً له . انحنيتُ بعمق تحية لأبى ، فردَّها بإيماءة من رأسه، وعيناه ما تزالان مُرَكَّزَتَيْنِ على ابني ، ثم ثنيتُ ذِرَاعِي طفلي ، وطلبتُ منه أن ينحني . سرَّ ذلك أبى أيما سرور ، وطفق يكرر بلطف .  
- آها .. آها .

ثم رفع ابني وأجلسه على ركبته ، وراح يتحسس ذراعيه المستديرتين وساقيه ، وضحك لمرأى عينيه المتسعيتين في دهشة .

صاح مبهتجًا :

- يا له من رجل ! دَعِيَ إحدى الجوارى تُحضر له الحلوى ، وثمرَ  
البرسيمون المكتسى بالسكر ، وبعضَ الكعك المكسو بالدهن !

لقد اتزعجت . ليس لطفلى غير عَشْر أسنان ، فكيف يستطيع أن يأكل  
ثمر البرسيمون المسكَّر ؟

فتوسلت إلى والدى

- أوه يا أبى المبجل ! إنَّ معدته الصغيرة اعتادت فقط على الطعام  
الخفيف . أرجوك ..

لكنَّ أبى لَوَّح بيده ليسكتنى وتحدث إلى الطفل ، فاضطرتُّ إلى أن  
أمتثل .

- ولكنك رجل ! أما تزال أمك تغذيك بثديها ؟ يا بنيتى إن لى أبناءً  
أيضًا .. أبناء كثيرون ، أربعة أو خمسة ؟ . لا أستطيع أن أتذكر .. على أية  
حال ، إننى أعرف عن الأبناء أكثر مما تعرف أم لواحد فقط ، وحتى أم  
لواحد كهذا !

قهقهه عاليًا ثم أكمل قائلاً .

- آه ، لو أن ابنى - أعنى أخاك - أنجبَ طفلًا كهذا من ابنة « لى » لَرَفَع  
من روحى المعنوية !

ولما ذَكَرَ أخى تملكتنى الشجاعة كى أسأل .

- ولكن ماذا إذا تزوج بأجنبية يا أبى ؟ هذا هو الخوف الذى يدمر قلب أمى حتى أخذ جسدها يذوى يوماً بعد يوم .

أجاب باستخفاف .

- يا لك من بَبْغَاء ! لن يستطيع .. كيف يمكنه أن يتزوج دون موافقتى ؟ هذا غير شرعى .. إنَّ أمك اهتزت واهتاجت لذلك الأمر بلا مبرر .. لقد قلت لها فى هذا الصباح

- كُفِّى عن غيظك الأحمق .. دَعِى الفتى يعبث بفتاته الأجنبية ، فهو فى الرابعة والعشرين من عمره ، ودمه يستحثه ويثيره ويدفعه بقوة ، وهذا لا شىء ، ففى مثل عمره كان لِدَى ثلاث مغنيات أحببتهن . دعيه يستمتع ، فإذا ما سئمها .. قولى فى شهرين ، أو إذا كانت جميلة حقاً ، ربما فى أربعة أو خمسة أشهر ، ولو أننى لا أتوقع ذلك ، فستهدأ أعصابه وسيحسم أمره ويصبح أكثر استعداداً لزواجه . إنه ليس من المفروض أن يعيش راهباً أربعة أعوام وهو فى بلاد أجنبية .. أليست النساء الأجنبية من الجنس اللطيف ؟

ثم قال .

- ولكنَّ أُمَّكَ كانت على الدوام مُبْهَمَةً لا يُسَبَّرُ غورها ، فمنذ البداية الأولى كان يملكها تأثر غريب .. كلا ، إننى لا أتحدث عنها بالسوء . فهى حكيمة ، ولم يُنْفَقْ ذهبى وفضتى من بين يديها بطيش ، وأنا لا أشكو ، ولم يحدث قط أن سَلَقْتَنِي بِأَلْسِنَةٍ جِدَادٍ كما تفعل بعض النساء لقد

مرت بي أوقات كنت أتمنى فيها لو تفعل ذلك لعلها لا تلقانى بذلك الصمت الذى حيرنى حتى منذ البداية أوه ، هذا ليس له أهمية الآن . لا أحد يفهم غرابة أطوارهن ونزواتهن وأهواتهن المفاجئة ، وميلهن إلى التغلب فى الرأى بلا أسباب ظاهرة ، ولكنها منذ شبابها كان عندها هذا العيب ، وقار ورزانة أشد مما تقتضيه مسائل الحياة اليومية من سهولة ويسر .. إنها تتمسك بفكر واحد فى واجبٍ تتخيله ، ومن ثمَّ تصبح الحياةُ نفسها بالنسبة إليها أمرًا مرهقًا شاقًا لا يحتمل .

ثم توقف فجأة عن حديثه تائرًا مهتاجا فى غضب منكر عنيف لا عهد لى به من قبل ، تناول مروحة اليد من السيدة الثانية وبدأ يحرك الهواء أمام وجهه بحدّة ، لقد وضع ابنى على الأرض وبدأ أنه نسيه . واستأنف حديثه فى غضب .

- وهى الآن لديها وهَمٌ نسائى عجيب ينحصر فى أن أول زواج لابننا يجب أن يثمر حفيدًا لنا ، واستحوذت عليها فكرة خرافية ، وهى أن الطفل سيكون عندئذ منحة من السماء . آه من النساء !! إنهن عنيدات متصلبات ' وأحسنهن جاهلات انغلقت على أنفسهن بعيدًا عن العالم .

أغلق عينيه وحركَ الهواء تجاهه بمروحة اليد فى صمت بضع لحظات ، وزايله الغضب ، وعاودته نظرتة المسالمة المعتادة ، وانفرجت أسارير وجهه وهو يبتسم فى مرح ، فتح عينيه وقدم الكعك لابنى فى عجلة قائلاً .

- كُلْ يا صغيرى ! ماذا عساه بهم ؟ لا تزعجى نفسك يَا بِنْتِي . أَوْ

يستطيعُ ابْنُ أن يعصى أباه ويعيش ؟ لا يمكن أن يقلقنى ويثيرنى ذلك .  
كنت لا أزال غير مقتنعة ، وبعد فترة صمت كان لىّ مزيد يجب أن  
أقوله .

- ولكن ماذا يا أبتاه لو رَفَضَ أن يتزوج خطيبته ؟ لقد سمعت أنه فى  
هذا الزمان المتغير...

لم يكن والدى مستعداً لسماع شىء عن ذلك بتاتا، ولوَّح بيده فى  
حركة خفيفة ولم يدعنى أكمل ، وابتسم قائلاً .

- يرفض ؟ لم أسمع من قبل فى أى مكان أنَّ ابناً يمكن أن يعصى أباه  
.. هَدَّئى من روعك يا بُنَيِّى ، فبعد سنة من الآن سينجب ابناً وفقاً  
للقانون من ابنة « لى » سيكون مماثلاً لابنك ، رجلنا الصغير !  
وَرَبَّتْ وَجَنَّةَ ابْنى .

\*\*\*

أخبرتُ زوجى بما قاله والدى، فاستمع لى وأجاب مستغرقاً فى  
التفكير.

- إن المشكلة فى كل ذلك قد ترجع إلى أن الأجنبية ليست على استعداد  
لتقبل مركزاً ثانوياً . ليس من عادات بلادهم أن يرتبط الرجال بزوجات  
ثانويات .

لم يكن لىّ ما أقوله فى إجابة فورية ، إذ لم يحدث لى أن فكرت فى

الفتاة الأجنبية ، وفيما تعتقده عن عاداتنا . ألم تنجح في جذب أخى وإغرائه ؟ فماذا تريد أكثر من ذلك ؟ لقد ذهب فكرى هكذا بعيداً من أجل أخى وواجهه نحو والديه .

سألت .

- هل تعنى أنها تتوقع أن تظل الزوجة الوحيدة طوال حياتها ؟

كنت ساخطة قليلاً ، كيف تتوقع أن تحرم أخى من حقه الشرعى الذى يكفله له قانون بلاده ؟ هل تطلب منه أكثر مما طلبت أمى النبيلة المبجلة من أبى ؟

قلت ذلك لزوجى وأنهيت حديثى كما يلى :

- أعتقد أنه من السهل لو تزوّجت رجلاً من جنسنا أن تعطيه الحرية التى اعتادها . إذ لا يمكنها أن تجلب أساليبها وعاداتها الأجنبية إلى هنا ؟ نظر زوجى نحوى وابتسم ابتسامة بالغة الغرابة .. لم أستطع أن أفهمه . ثم تحدث قائلاً .

- افرضى أننى أبدو رغبتى فى اتخاذ زوجة صغيرة .. محظية ؟

أصبت برعب شديد مفاجىء وأحسست بشىء بارد كما لو كان ثلجاً يسدد ضرباته ويطعننى فى صدرى الأعزل . فقلت هامسة :

- أوه ، كلاً يا سيدى !! لن تستطيع أبداً .. ليس الآن ! لقد أعطيتك ابناً!

قفز واقفاً على قدميه ، ولف ذراعه حول كتفى . وتمتم

- كلا ، كلا ، يا قلبى الصغير .. إننى لا أقصد ذلك .. لن أفعله .. وفى الواقع لن أستطيع .

ولكن كلماته الأخرى كانت مفاجئة ، وهى الكلمات التى تخشاها كثير من الزوجات ويتوقعنها ، أمّا أنا أتوقعها منذ أن أحببى . والآن - بدون سابق إنذار - دَفَعَ إلى قلبى كل الألام المبرحة التى عانتها أمى ومئات الأجيال من النساء اللاتى أحببن أسيادهن وفقدن الحظوة عندهم . انخرطُ على حين غرة فى بكاء لم أقوْ على كبحه .

وإذا بزوجى يُسرِّى عنى مدمدماً .. بيد أننى لا أستطيع يا أختاه أن أخبرك بكلماته ، إذ لو قيلت ثانية حتى فيما بيننا لأخجلتني . إننى أستحى حين أفكر فيها .. كانت كلمات حب بالغة الروعة . توقف بكائى من نفسه، وشعرت بالراحة .

ساد الصمت بيننا فترة سألتنى بعدها :

- ولكن لماذا بكيتِ ؟

نكست رأسى ، وأحسستُ بالدم يتصاعد سريعاً إلى وجنتيّ .

رفع رأسى بين يديه :

- لماذا ؟ لماذا ؟

وواصل السؤال بعزم وإصرار ، وكشأنى دائماً حين أُجيب عن أسئلته، أفلتت الحقيقة من بين شففتى .

- لأن سيدي قد سكن قلبي

ثم تلعثمت .

- وملاءة تماماً ، وسوف ....

ولأن صوتي بالصمت طوعاً ، غير أنني وجدتُ الإجابة في عينيه . تم  
قال بصوت خفيض يفيض رقة وحناناً

- وماذا لو كانت تُحب أخاك هكذا ؟ إن طبيعتها لا تختلف عن طبيعة  
سائر النساء لمجرد أنها وُلدت فيما وراء البحار الغربية . أنتن نساء ،  
وكلكن متشابهات في أرواحكن ورغباتكن

لم أكن قد فكرتُ فيها هكذا أرى أنني لم أكن أفهم شيئاً بوضوح  
إن زوجي هو الذي يعلمني دائماً

- أوه ، إنني خائفة .. خائفة ! لقد بدأت أفهم قليلاً الآن .

ماذا سنفعل إذا كان هناك مثل ذلك الحب بين الفتاة الأجنبية وأخي ؟



## 7

جاء خطاب من أختي .. لقد كتبت رسالة لي ولزوجي يلتمس فيها معاونتنا .. توسل إلي أن أتشفع له عند والديه . ثم راح يتحدث عنها الأجنبية - مستعملاً كلمات متألقة يصف بها ملاحظتها ، ويقول إنها تشبه شجرة صنوبر مغطاة بالثلج لفرط جمالها . ثم .. آه يا أختاه ! ها هو ذا يقول إنه تزوجها طبقاً لقانون بلادها ، وسيحضرها إلى البيت ، حيث تلقي الآن رسالة والدتنا التي طالبتة فيها بالعودة ، وهو يرجو مناً أن نساعدته من أجل حياته نفسها .. فكل واحدٍ منهما يحب الآخر !

إنني حائرة ، فبسبب ما بيني وبين زوجي أبدو مرتبكة تماماً . لم أعد أستطيع الآن أن أستمع لحديث أُمِّي .. إنني لا أتذكر حزنها ، ولا عصيان أختي لها ، ولا شيء غير هذا الذي يحثني عليه أختي .. وإذا كانت تحبه كما أحب سيدي فكيف أستطيع أن أرفض لهما شيئاً ؟

سأذهب إلى أُمِّي .

\*\*\*

مرت ثلاثة أيام الآن يا أختاه منذ أن التقيت بأمي كنت قد أعددتُ  
نفسى لأمتل بين يديها في تذلل . لقد انتقيتُ كلماتى مسبقاً كما يخنار  
العريس الحلى والمجوهرات لعروسه . مضيتُ إلى حجرتها وحدى ،  
ووقفت أمامها ، تكلمتُ برقةً وكياسة وأنا أتوسل إليها

لم تفهم شيئاً على الإطلاق يا أختاه ! لقد دبَّ النفور بين أُمى وبينى  
إنها تتهمنى في صمتها بمصادفة الفتاة الأجنبية ، وبمناصرة أختى  
والوقوف إلى جانبه ضد أمه . وعلى الرغم من أنها لم تقل هذا ، إلا أنني  
أعرف أنها في أعماقها تقول ذلك لنفسها إنها لن تستمع لشيء إذا  
شرحته أو فسرتُه لها

حدث هذا مع أننى خططتُ لحديثى معها بكل عناية فقلت في نفسى  
- سأوقظ ذكرياتها عن زواجها نفسه ، وعن الأيام الأولى لحب  
والدى لها حين كانت في أوج جمالها وعنقوان شبابها .

ولكن كيف لمتل تلك القوالب الشكلية الجامدة من الكلمات أن نحتوى  
عبير الحب الزكى ؟ إن هذا كمن يحاول أن يحبس سحابة وردية داخل  
وعاء حديدى ، أو يرسم فراشات بفرشاة خشنة من الخيزران . وحين  
تكلمتُ مترددة لرهافة الموضوع ، وعن سحر الحب بين الشابين ، وعن  
ذلك الانسجام الخفى الذى يربط بين قلبين دون توقع ، تملكها الاحتقار  
والازدراء ، وقالت بغطرسة

- ليس هناك مثل هذا الشيء بين رجل وامرأة ، إنها الرغبة فقط

.. لا تستعملى تعبيرات شعرية فيما يتعلق بذلك ، إنها الرغبة فقط ..  
رغبة الرجل فى المرأة ، ورغبة المرأة فى ابن . وإذا أُشبعَت تلك الرغبة لا  
يبقى هناك أى شىء .

حاولت من جديد .

- هل تذكرين يا أماه حين تزوجتما أنت وأبى ، كيف تحدثت  
روحكما ؟

ولكنها أغلقت شفتى بضربة من أصابعها النحيطة الساخنة فوقهما .  
- لا تتحدثى عنه .. كان فى قلبه مائة امرأة ، فإلى أى منهن تحدثت  
روحه ؟

سألنها برقة وأنا أتناول يدها فتوسدت بدى وهى ترتجف ، ولم تلبث  
أن سحبتها

- وقلبك يا أمى ؟

قالت

- إنه خالٍ أجوف . إنه ينتظر حفيدى ابن ابنى ، وحين سيتوجهون  
به ليقف أمام لوحات أسلافه يمكننى أن أموت فى سلام

استدارت مُزورةً عنى ، ورفضت أن تتحدث إلى أبعد من ذلك .

عُدْتُ حزينة . ترى ما الذى فرق بينى وبين أمى إلى ذلك المدى البعيد ؟

لقد صحنا عالياً ، ولكننا لم نسمع بعضنا بعضاً . أشعر أننى تغيرت ،  
وأعرف أن الحب غيرنى

إننى أشبهه بجسر ضعيف سهل الكسر يمتد عبر المسافة اللامتناهية  
بين الماضى والحاضر .. إننى أحتضن يد أمى ولا أستطيع أن أتركها ،  
لأنها دونى ستكون وحيدة ، ولكن يد زوجى تمسك بيدي .. تقبض عليها  
بإحكام .. لا يمكننى على الإطلاق أن أدعَ الحب يرحل !

فماذا عن المستقبل إذًا يا أختاه ؟

قضيتُ أيامى أنتظر . وَبَدَوْتُ أحلم ، وأرى فى الحلم على الدوام سفينة  
بيضاء تمخر عباب مياه زرقاء ، وتمضى كطائر ضخم يسرع إلى  
الشاطئ ، وإذا استطعت لمدت يدي إلى منتصف المحيط وأمسكت  
بالسفينة وتركتها هناك حتى لا تجيء أبداً . هل هناك طريقة أخرى  
يستطيع بها أخى أن يكون سعيداً بهذا الذى فعله ؟ لم يعد له مكان الآن  
فى بيته تحت سقف أبيه .

لكنَّ يديَّ الضعيفتين ليس فى إمكانهما إيقاف أى شىء .. إننى أحلم  
فقط ، ولا أستطيع أن أفكر بوضوح وجلاء لا شىء يمكن أن يعزل  
السفينة بعيداً سوى ابنى وهو يبتسم ويثرثر بكلماته الأولى ، إننى أبقيه  
بجانبي طوال اليوم ، ولكننى أستيقظ ليلاً وأسمع هدير الأمواج حولي ،  
وتندفع السفينة ساعة بعد ساعة ، ولا شىء يمكنه أن يوقفها ليمنعها من  
الاقتراب .

ما الذى سيحدث شبيهاً لذلك عندما يجيء أخى مستصحباً لها ؟  
إننى أخشى ذلك الشىء الغريب .. إننى بكماء صامته فى هذا الوقت من  
الانتظار، لا أعرف خيراً ولا شراً ، إننى أنتظر فحسب .

يقول زوجى . إن السفينة البيضاء ستصل بعد سبعة أيام إلى الميناء عند فوهة النهر ، الابن العظيم للبحر ، الذى يتدفق إلى ما وراء البوابة الشمالية للمدينة . وزوجى لا يمكنه أن يفهم لماذا أتتبع الساعات متمنية أن تمتد وتطول إلى مدى أبعد حتى اليوم الثامن . إننى لا أستطيع أن أصيغ له الكلمات لأعبر بها عن مخاوفى من هذا الشيء الغريب القادم .

إنه رجل ، كيف يستطيع أن يفهم قلب أمى ؟ لا يمكننى أن أنسى كيف تخشى مجيء أخى .. إن لم أذهب لأراها مرة أخرى . ليس لدينا الآن ما يقوله بعضنا لبعض ، فقط لا أستطيع أن أنساها ، وأنها وحيدة .

وأيضاً ليس فى مقدورى أن أنسى أخى ، ولا تلك التى يحبها .. إننى أتمزق هنا وهناك كشجرة خوخ ضعيفة لا تقوى على مقاومة رياح عارمة ضارية .

\* \* \*

لم أستطع أن أنتظر وقت فراغك يا أختاه ! جئتُ سعياً على الأقدام ، تركتُ ابنى ، إذ دفعتُ به إلى ذراعى حاضنته دون أن أبالى بصرخاته حين رآنى أغادر البيت . كلاً .. لا أريد شيئاً ! يجب أن أعود مباشرة ، لقد أسرعت إليك لأخبرك ..

- لقد جاءء ! أخى والمرأة الأجنبية جاءء ! لقد جاءء منذ ساعتين وتناولا الطعام معنا . وهأنذى قد رأيتها ، وسمعتها تتحدث ، ولكنى لم أستطع أن أفهم شيئاً مما تقوله . إنها غريبة ، حتى أننى ظللتُ أتفرس فيها دون إرادتى .

دخلا حينما كنا جالسَيْنِ إلى مائدة الإفطار ، وإذا بحارس البوابة جاء إلينا مندفعًا لا يكاد يتوقف حتى ينحنى ، وقال وهو يلهث :

- هناك رجل عند البوابة ومعه شخص أو شكل لم أر مثله من قبل ! ولا أعرف حتى إذا كان ذكرًا أم أنثى . إنه طويل القامة كرجل ، لكنَّ الوجه يبدو وجه امرأة !

نظرَ إلىَّ زوجى ، ووضع العودين اللَّذَيْنِ يتناول بهما الطعام جانبا ، وقال بهدوء مجيبيًا عن تساؤل عيني المندهشتين .  
هاهما .

ثم ذهب إلى البوابة بنفسه ، وسرعان ما دخلَ البيت . وقفتُ لأحييهما ، ولما رأيت الشخصية الأجنبية الفارعة الطول ، جَفَّتِ الكلماتُ في فمى ، كنت لا أكاد أرى أخى بأية حال ، وانصبَّ شعورى فقط عليها ، تلك الأجنبية بطول قامتها ونحافتها وهى ترتدى ثوبًا أزرق قاتمًا كان ينسدل إلى ما تحت ركبتهما .

غير أن زوجى لم يكن مرتبكاً على الإطلاق .. دعاهما للجلوس إلى المائدة معنا ، وأمر لهما بشأى جديد وأرز .. لم أَقُلْ شيئاً . طُفقتُ أنظر إليها فقط ، وأُعاود ذلك المرة تلو المرة .

وحتى الآن ما فتئت أقول مرارًا وتكرارًا :

- ماذا سنفعل مع تلك المرأة الأجنبية ؟ كيف يمكن أن تنتمى على الدوام إلى حياتنا ؟

لم أتذكر أن أخی يحبها .. إننى مرتبكة ومندهشة لوجودها هنا فى بيتنا .. هذا أشبه بحلم ، وحتى حين يراه المرء وهو يحلم يبدو غير حقيقى ، وسرعان ما يزول ، لأنه أبعد ما يكون عن الواقع .

أنتِ تسألين كيف تبدو ؟ إننى أعرف كيف أخبرك ، مع أننى - كما قلتُ لك - لم أفعل شيئاً سوى التفرس فيها منذ أن دخلتُ من الباب .. دعينى أفكر ماذا تبدو .

إنها أطول من أخی . شعرها مقصوص ، ولكنه لا ينسدل محتشماً فوق أذنيها ، ويبدو كأنه يطير مع الرياح فى الجهات الأربع ، لونه أسمر مشوب باصفرار يحاكى لون نبيذ عظام النمر .. عيناها بلون البحر تحت سماء عاصفة ، وهى لا تبتسم بسهولة .

وحينما رأيتها سألت نفسى على الفور : أهى جميلة ؟ ولكننى أجبب بأنها ليست مليحة ، فحاجباها ليسا رقيقين ناعمين مثل الفراشة كما نحب أن يكونا فى وجوه النساء . إنهما داكنان ومحدودان بدقة فوق عينيها المستغرقتين فى التفكير . ويبدو وجه أخی بجانبها أنصر ، بوجنتين أكثر استدارة . ومع ذلك فهى فى العشرين من عمرها وتصغره بأربعة أعوام .

وبالنسبة ليديها ، لو وُضِعَتَا بجانب يَدَيِّ أخی وأخفينا جسديهما لَقُلْتُ . إن يَدَيِّ أخی هما يدا المرأة ، إذ أنهما ناعمتان ، ولحمهما زيتونى ، أما عظام يديها فبارزة تحت الجلد ، ورسغاها أكثر خشونة من رسغى .

و حين شَدَّتْ على يدي أحسست براحتها خَشنة قوية . ذكرت ذلك  
لزوجي عقب الإفطار في لحظة كنا فيها وحدنا فقال إن ذلك يرجع إلى  
لعبة تسمى « التنس » تلعبها النساء الأجنبية مع أزواجهن لتسليتهم  
كما أتصور . ما أغرب توَدُّد النساء الأجنبية وسعيهن وراء الحب !  
وقدماها أطول من قدمي أخی ببوصتين على الأقل كما بدا لي . كم  
يكون ذلك مربكاً لكليهما !

وبالنسبة لأخي فقد كان يرتدي ثياباً غريبة ، وبدا لي أجنبيّاً في أشياء  
عديدة .. إنه يتحرك بسرعة ولا يهدأ وحين أنظر إليه لا أرى الشاب  
الخفيض الرأس ذا العينين اللتين لهما لمعان الفضة كما كان في وقت  
مضى إنه اليوم يرفع رأسه عالياً ، ولا يبدو الابتسام على وجهه ، إنه لم  
يكن يتحدث . وهو لا يضع أية خواتم أو حلّ عَدَا خاتمٍ ذهبيّ بسيط في  
الأصبع الثالث من إحدى يديه . وهذا الخاتم ليس مرصعاً بجوهر ثمين  
من أي نوع . أمّا ملابس الغرب القاتمة الضيقة التي يرتديها فقد أبرزت  
شحوب وجهه بوضوح أشد .

وحتى عندما يجلس فإنه يحاكي الأجانب في جلوسهم ، فيضع ساقاً  
فوق ساق . وهو يتحدث الأجنبية بطلاقة مع زوجي ومعها ، فتنثال  
الكلمات من أفواههم مُحدِثَةً جَلْبَةً كتلك الناجمة عن ارتطام الحَصَى  
بإحدى الصخور .

لقد تغير تماماً ، حتى عيناه تغيرتاً ، فلم تَعُودَا منكسرتين حزينتين كما

كانتاً من قبل ، فهما سريعتا الحركة ، جريئتان ، تنظران بجسارة تجاه الشخص الذى يتحدث معه . وهو يرتدى نظارة ذات إطار من الذهب وبعض الصدف القاتم اللأفت للنظر لغرابته ، وتجعله يبدو أكبر سنًا مما هو .

غير أن شفتيه ما زالتا كشفتى والدتنا ، رقيقتين منضغطين معاً فى استرخاء ، لا يزال بهما أثر قديم من عناد الطفولة الذى كان يجيء دائماً حين تُرْفَضُ له رغبة ، وبهذا عرفتُ أخى

أظن أننى وابنى كُنَّا الصينيين الوحيديين بينهم كانوا يقفون هناك فى بيتنا متلففين فى ثيابهم الغريبة ، يتحدثون بلسانهم العجيب ، ولم أكن أنا وابنى نفهم حديثهم .

كان عليهما أن يمكتا فى بيتنا حتى يستقبلهما أبى وأمى . وعندما تعرف والدتى بأننى سمحت بإقامتهما هنا سَتَسْتَأْطُ غضباً على ابنتها العاقَّة ، وسخطاً على السقف الذى سيؤويهما تحته . إننى أرتعد ، ومع ذلك فما يريده زوجى يجب أن يُنْفَذَ . وفوق كل ذلك أليس هذا هو أخى ابن أمِّ واحدة لنا ؟

\*\*\*

عندما جلسنا معاً لتناول الأرز ، لم تستطع استعمال العيِّدان .. كان مشهداً مسلئاً ، فضحكتُ خَفِيَّةً ، وقد أخففتُ فى الإمساك بهما ، ولا حتى كما يمسك بهما ابنى بيديه الصغيرتين . إنها تقبض عليهما بشدة ،

وانعقد حاجباها في سعيها الجاد لتتعلم ، بيد أن يديها تفتقران إلى المهارة في الأشياء الدقيقة .. إنها لا تعرف شيئاً .

وصوتها يا أختاه لا يشبه أى صوت سمعته من امرأة . إننا نحب أن نسمع صوت المرأة خفيفاً ناعماً كجدول ماء صغير ينساب بين صخرتين، أو كما تُغرد الطيور الصغيرة على عيدان البوص . ولكن صوتها كان عميقاً وممتلئاً ، ولما كانت لا تتحدث إلا نادراً فإن المرء يتوقف ليصغى إليها . إنَّ صَوْتَهَا ذو نغمة ثرية كطائر السُّمَّان الذي يجيء وقت الحصاد في الربيع ، حين يكون الأرز في انتظار لِئُحْصَدَ ويكوَّم في حزم . وحين تتكلم تنحدر كلماتها في عبارات سريعة إلى أختي وزوجي . وهى لا تتحدث معى ، لأننى لا أفهمها وهى لا تفهمنى .

ابتسمت لى مرتين ، ابتسامة مشرقة سريعة ، تنبعث من عينيها مثل وميض فضيّ يعكسه مياه جدول رقرق حين تسقط عليه أشعة الشمس، وحين تبتسم أفهمها ، فهى تقول .

– هل سنكون أصدقاء ؟

وتنظر كُلاً واحداً منا إلى الأخرى في شك .

ثم أجيبها في صمت .

– عندما ترين ابني سأعرف ما إذا كنا نستطيع أن نكون أصدقاء أم

لا .

ألبستُ ابني سترته الحريرية الحمراء وسرواله الأخضر ، وجعلته

ينتعل الحذاء المطرز بأزهار الكرز ، ووضعتُ على رأسه قبعته المستديرة ذات الطوق الرفيع المزين بصور « بوذا » الذهبية الدقيقة ، وحول عنقه كانت تتدلى سلسلة فضية . لقد بدأ في زيّه هذا أشبه بأمير ، وأحضرتُه إليها .. وقف قُبالتها مفتوح الساقين ، وراح يحدق فيها بدهشة .. طلبتُ منه أن ينحنى ، فضم يديه الصغيرتين معًا ، وانحنى وهو يتمايل ويترنح لما بذله من جهد في محاولته هذه .

تَفَرَّسْتُ فيه مبتسمة . وعندما انحنى أطلقت ضحكة بنبرة صوتها الطبيعية فبدت كنغمة صادرة من طَرْقَةٍ على ناقوس عميق ، ثم صاحت بكلمة حلوة مجهولة ، وأمسكت به وحملته قبالة صدرها وألصقت شفثيها بعنقه الناعم . سقطت قبعته ، ونظرت إلى من فوق رأسه الحليق .  
يا لها من نظرة يا أختاه ! قالت عيناها :

- أودُّ أن يكون لى واحد يُماثله تمامًا !

ابتسمتُ قائلة :

- إذا سنكون صديقتين !

أعتقد أنني بدأت أرى لماذا يحبها أختي .

\*\*\*

انقضى الآن اليوم الخامس منذ مجيئها دون أن يمثلا بين يدي أبي وأمي. انهمك زوجي وأختي عدة ساعات في حديث مقلق بذلك اللسان الأجنبي، ولا أعرف ما الذى انتهىا إليه، ومهما يكن ما توصلّا إليه فيجب

أن يتم إنجازه على مهل وفي تلك الأثناء كنت أرقب المرأة الأجنبية

إذا سألتني يا أختاه عن رأيي فيها لما عرفت من المؤكد أنها ليست مثل نساءنا . إن كل حركة من جسمها حرة وغير مقيدة ، ومفعمة بالحيوية والرشاقة ، ونظرتها مباشرة وجريئة ، وعيناها تسعى إلى عيني أحي دون خجل . إنها تستمع إلى أحاديث الرجال ، تم تقذف في حديثها بكلمة سريعة فيضحكان لقد اعتادت على الرجال مثلما كانت السيدة الرابعة .

ومع ذلك فهناك فرق بينهما ، إذ يبدو لي أن السيدة الرابعة على الرغم من ثققتها في جمالها فإنها كانت تشعر بالخوف في حضرة الرجال ، وإنني أعتقد أن خوفها - حتى وهي في أوج فتنتها - يرجع إلى خشيتها من اللحظة التي يبدأ فيها جمالها يخبو ، فلا يبقى لديها شيء تجذب به قلوب الرجال .

أما هذه الأجنبية فلا تخشى شيئاً ، على الرغم من أنها ليست جميلة مثلما كانت السيدة الرابعة ، وهي لا تزعج نفسها ، وتتقبل اهتمام الرجال بها كحق لها ، ولا تبذل أي جهد لتظفر بنظراتهم ، ويبدو أنها تقول « هذه هي أنا . إنني كما ترونني ، ولا أبالي أن أكون شيئاً آخر » .

وإنني أعتقد أنها ذات كبرياء شديد ، وهي على الأقل تبدو غير مكترثة - على نحو غريب - بالعقبات التي جلبتها لأسرتنا .. إنها تلاعب ابني بترائح وكسل ، وتقرأ كتباً .. لقد أحضرت معها صناديقها العديدة المملئة بالكتب .. وتكتب في الأدب .. وياله من أدب ! تفرست من فوق كتفيها

فرأيت الصفحة مغطاة بعلامات كبيرة ممتدة في غير نظام أو اتساق ،  
ومعقوفة ومتصلة ببعضها بما يشبه الخطاطيف .. إننى غير قادرة على  
عمل أى شىء يماثل ذلك .. وهى مولعة بالجلوس فى الحديقة لتحلم دون  
أن تفعل شيئاً على الإطلاق . ولم يحدث أن رأيتها مرة تطرز شيئاً فى  
يديها .

وذات يوم خرجت مع أختى فى الصباح الباكر ثم عاداً فى الظهر  
مُعَبَّرَيْنِ مُعَفَّرَيْنِ مُلَوَّئَيْنِ بِالأتربة والطين . سألت زوجى مندهشة . أين  
كانا ليعودا إلينا بمثل تلك الحالة ؟ أجاب

- كانا فيما يسميه الغربيون نُزْهَةً طويلة سيراً على القدمين .

سألته فى فضول

- ماذا تكون تلك النزهة ؟

فأجابنى

- إنها سير طويل سريع إلى بقعة معينة على مسافة بعيدة . وقد ذهبنا

اليوم إلى قمة الجبل البنفسجى .

سألت بدهشة كبيرة .

- لماذا ؟

قال .

- إنهم يعتبرون ذلك متعة .

هذا في منتهى الغرابة ! فهنا حتى المرأة المشتغلة بالزراعة تعتبر المشى هكذا لمسافة بعيدة عملاً شاقاً .

وعندما قلت ذلك لأخى أجاب .

- كانت حياتها في بلادها حُرَّةً طليقة ، وهى تشعر بنفسها مقيدة في هذه الحديقة الصغيرة خلف تلك الأسوار المرتفعة .

دُهِشت بشدة حين سمعت ذلك . فقد بدا لى أن حياتنا بلا شك تُعَدُّ عصرية تماماً وخالية من القيود القديمة . وسور الحديقة أقيم فقط للحفاظ على حُرْمَةِ البيوت ، حتى لا يتمكن أحد من بائعى الخُضْر أو الحلوى الجائلين من استراق النظر إلينا . وقد فكرت في نفسى متسائلة .

- ماذا ستفعل في أفنية البيت إذا ؟

ولكننى لم أجد إجابة لذلك

\*\*\*

إنها تُظهر حبها لأخى بصراحة . في الليلة الماضية جلسنا في الحديقة لنستمتع ببرودة الليل ، وجلستُ أنا في مكانى المعتاد على مقعد الخزف الصينى ، على بُعدٍ قليل من الرجال . أمّا هى فقد جلست بجوارى فوق «الدرابزين» القرميدى المنخفض الذى يحيط بالشرفة ، وبأسلوبها نصف المبتسم راحت - ونحن معاً ، حمرة الأفق عند غروب الشمس - تشير إلى شىء تلو الآخر ، وتساءلنى عن اسم كُلِّ منها ، وهى تكرر الكلمة من بعدى . إنها سريعة التعلُّم ، وهى لا تنسى أيّاً منها طالما سمعتها

صحيحة . كانت تكرر كل مقطع بصوت ناعم خفيض وهى تتذوق طريقة تنغيمة ، وتضحك قليلاً فى خجل حينما أُصَحِّحُ لها ما تخطىء فيه ، وهكذا سألنا أنفسنا بعض الوقت حين كان الرجلان يتحاوران .

ولما حلت عتمة الليل ، ولم نعد نميز الأشجار والأزهار والحجارة ، لزمت الصمت ، وانتابها القلق .. أدارات عينيها ناحية أختى ، وأخيراً وقفت على حين غرة وتوجَّهت إليه وهى تتمايل وتتثنى فى مشيتها ، وكان ثوبها الأبيض الهفاهف يتطاير كضباب رقيق ، ضحكت وقالت له شيئاً بصوت خافت ، ثم وقفت إلى جانبه ومدت يدها إلى يده دون تحفظ .

حولتُ بصرى عنهما .

وعندما حملتُ إليهما مرة أخرى ، متظاهرة بأننى أبحث عن شىء فى اتجاه الرياح ، كَوَمْتُ نَفْسَهَا بجانب مقعده على أرض الشرفة المرصوفة بالقرميد ، وَوَضَعْتُ وَجنتها على يده ! شعرتُ بغصّة تعاطفاً مع أختى ، إذ لا ريب أنه حَجَلٌ مما أبدته المرأة من حُبِّ وهيام بطريقة مبتذلة مكشوفة .. لم أستطع أن أرى وجهه فى الظلام ، غير أن الحديث قد توقف بأكمله ، ولم يكن هناك سوى دمدمة حشرات الصيف عبر الحديقة .. نهضتُ واقفةً وانسحبت .

ولما لحق بى زوجى بعد دقائق معدودات قلت له :

— هذه الأجنبية غير محتشمة !

ضحك ثم قال :

- أوه ، كلا . إنه بالنسبة لكِ فقط أيتها الصينية الصغيرة !

وخزنى السخط ، فاستدرت لأنظر إليه وسألت .

- هل تقبل إذا أن أتشبت بيدك أمام الناس ؟

ضحك ثانية وهو ينظر إلى

- كلا ، لأنك لو فعلتِ مثل ذلك فكم سيكون مخالفاً للاحتشام حقاً !

أدركت أنه كان يضحك ساخرًا منى بعض الشيء ، ولما كنت لا أعرف

لماذا فإننى لم أقل شيئاً

إننى لا أفهم حريتها هذه ، ومع ذلك فالأغرب أننى عندما أتأمل وأفكر

ملياً لا أتبين أى لحظة شرّ فيها إنها تجاهر بحبها لأخى ببساطة ، كطفل

ينشد رفيق لعبه ، لا يوجد شيء خفى أو ماكر خبيث فيها . ما أغرب

هذه " إنها ليست مثل نساتنا .

إنها كزهرة متفتحة في شجرة برتقال برية ، نقية لاذعة ، لكنها بلا

أريج أو عبير

\*\*\*

أخيراً اتفقنا على ما سيفعلانه . إنها سترتدى ثوباً صينياً ويمضيان

معاً للقاء المبجلين المسنين . وقد علمها أخى الطريقة المثلى التى تنحنى بها

أمامهما . وكان على أن أسبقهما لأمهّد الطريق وأحمل الهدايا .

لم أستطع أن أنام ليلاً ، إذ كنت أفكر في تلك الساعة . شفتاى جافتان ،

وحيث أُبْلِغُهُمَا بِلِسَانِي أَجِدُهُ جَافًا أَيْضًا دَاخِلَ فَمِي حَاوِلَ زَوْجِي أَنْ  
يَشْجِعَنِي بِالضَّحْكِ وَالْكَلِمَاتِ الْجَرِيئَةِ ، وَلَكِنَّهُ حِينَ يَتْرَكُنِي يِعَاوِدُنِي  
الْخَوْفُ .. إِنَّنِي أَخَذْتُ بِصِرَاحَةِ الْجَانِبِ الْمَضَادِّ لِأُمِّي ، أَنَا الَّتِي لَمْ أُعْصِ  
رَغْبَتَهَا مِنْ قَبْلِ طَوَالِ حَيَاتِي .

مِنْ أَيْنَ سَتَوَاتِنِي الشَّجَاعَةُ لِأَفْعَلُ هَذَا الشَّيْءَ ؟ إِنَّنِي مَخْلُوقَةٌ خَائِفَةٌ  
وَمُتَرَدِّدَةٌ دَائِمًا ، وَإِذَا تَرَكْتُ الْأَمْرَ لِنَفْسِي فَإِنَّنِي لَا أَجِدُ فِيهِ شَيْئًا غَيْرَ الشَّرِّ ..  
إِنَّنِي أَرَى بِوَضُوحٍ حَتَّى الْآنَ مَا يَعْتَمِلُ فِي قَلْبِ أُمِّي بِخُصُوصٍ ذَلِكَ  
الْمَوْضُوعِ ، فَحِينَ أَنْفَرْتُ بِنَفْسِي أَقُولُ إِنَّهَا عَلَيَّ حَقٌّ بِالنِّسْبَةِ لِعَادَاتِ شَعْبِنَا .  
إِنَّهُ زَوْجِي الَّذِي غَيْرَنِي ، حَتَّى أَنْنِي أَصْبَحْتُ أَتَجَاسَرُ - رَغْمَ خَوْفِي -  
عَلَى التَّحَدُّثِ عَنِ الْحُبِّ ضِدَّ تَقَالِيدِ أَسْلَافِي ، وَلَكِنِّي أَرْتَجِفُ ..

إِنَّ الْمَرْأَةَ الْأَجْنِبِيَّةَ هِيَ الْوَحِيدَةُ الْهَادِئَةُ بَيْنَنَا .

الفصل الثامن



## 8

إننى اليوم متعبة ، منهوكة القوى يا أختاه ، وكأننى أحس  
فى قلبى وتر قيثاره ظل مشدودًا بإحكام أيامًا عديدة ثم  
ارتخى فجأة ، فماتت الموسيقى فيه .

لقد انقضت الساعةُ التى كنت أخشاها ! كَلَّا ، لن أقول كيف مضت ..  
سأخبرك بالموضوع كاملاً ، ومن ثم يمكنك أن تحكى عليه بنفسك . أمَّا  
بالنسبة لى فلن أخبرك بالنهاية قبل البداية .

بعثنا برسولٍ إلى والدينا يحمل التماسنا أن يُسَمَّحَ لنا بالمثل فى اليوم  
التالى ظهرًا . فعاد يقول إن والدنا قد غادر البيت إلى « تيتنسين » حالما  
سمع بوصول أخى ، وبهذا تجنب اللحظة العصبية .. هكذا كان دائمًا  
يتحاشى اتخاذ القرارات والفصل فى المسائل .. وقد حددت والدتى نيابة  
عنه ساعة الظهر لتستقبلنى أنا وأخى . ولم تشر إلى الأجنبية بشيء ،  
ولكن أخى صاح .

- إذا ذهبْتُ فستذهب زوجتى أيضًا

ذهبت أنا أولاً إلى البيت في اليوم التالي في الساعة المحددة ، وسارت خادمة أمامي تحمل الهدايا . انتقى أخى هذه الهدايا من البلاد الأجنبية ، وكانت كلها عجيبة وأشياء ممتازة يندر أن نراها في مدينتنا . ساعة صغيرة مطلية بالذهب في بطن طفل مذهب ، وكلها لا يزيد ارتفاعها عن ست بوصات ، وساعة للمعصم مرصعة بالمجوهرات ببراعة ، وآلة إذا أُديرَت بمقبض استطاعت أن تتكلم وتصيح ، ومصباح يشتعل دون نار ، وَيُجَدِّدُ ضَوْءَهُ مَهْمَا ظَلَّ مُشْتَعِلاً ، ومروحة يد من ريش النعام بيضاء ككتلة من زهور الكمثرى

مضيتُ بهذه الهدايا للمتول بين يديها .. كانت والدتنا قد بعثت بكلمة قائلة إنها ستستقبلنا في قاعة الضيوف ، وحين دخلت كانت جالسة هناك على مقعد ثقيل من الخشب الأسود المنقوش ، على يمين المنضدة الموضوعة أسفل لوحة الإمبراطور « مينج » . رأيتها مرتدية ثوباً من الساتان الأسود المطرز بخيوط الذهب ، وقد زَيَّنَتْ شعرها بحلى ذهبية . كانت في يديها خواتم عديدة من الذهب مرصعة بالياقوت الأحمر والتوباز بمختلف أشكاله وألوانه وأنسجت تلك الأحجار الكريمة مع وقار سنها .. كانت تتكىء على عصا من الأبنوس والفضة لم يحدث قط أن شاهدها بمثل ذلك الجلال ، وتلك الفخامة في المظهر الخارجى .

بيد أننى كنتُ أعرفها جيداً ، لقد أنعمتُ النظر في وجهها عن كثب لأتبين كيف كانت صحتها ، فسقط قلبي من الخوف فلون ثيابها الأسود أكد نحافة وجهها بصورة جلية واضحة .. لقد أصبحت نحيلة

حتى أن شفقتها تقوست حتى كادت تُحاكى منحنيات الموت نفسه ،  
واتسعت عيناها وأصبحت غائرة كعيني مريض ميئوس من شفائه .  
وكانت الخواتم حول أصابعها سائبة وتصلصل حين تصطدم ببعضها ،  
وتصدر موسيقى قائمة إذا حَرَّكت يديها .. تلهفتُ على سؤالها عن حقيقة  
صحتها ، ولكنني لم أتجاسر على ذلك ، لمعرفة أن السؤال سينزعجها .  
لقد توترت أعصابها لتحضر هذا اللقاء ، وهي بحاجة إلى كل قواها .

ولهذا فإنها حين استقبلتني لم تنبس ببنتِ شَفَةٍ .. قُدِّمَتْ إليها الهدايا،  
فتناولت كل واحدة منها من يد الخادمة ، ثم وضعتها أمامها . عبرت عن  
شكرها بإحناءة وقورة من رأسها ، وأشارت إلى خادماتها اللاتي كُنَّ  
يقفن بالقرب منها لِتَلَقِّي أوامرهما أن يحملن الهدايا إلى حُجرة أخرى ، غير  
أن قبولها لها شجعني بعض الشيء ، فلو أنها رفضتها لكان ذلك معناه  
بلغة تقديم الهدايا أن أخی صار مرفوضاً . وعلى ذلك قلت :

- يا أمي المبجلة .. إن ابنك هنا وينتظر رِضَاءَكِ !

أجابت ببرود :

- لقد أَخْبِرْتُ بذلك .

وغامرتُ بضعف وتردد معتقدة أن من الأفضل اطلاعها فوراً بأسوأ  
الأخبار ، ومع ذلك شعرت بروحي تغوص في قلبي ..  
- لقد أحضرت المرأة الأجنبية .

تلقت ذلك بصمت . لم أستطع أن أصل إلى شيء من تعبيرات وجهها  
الذى ظل جامدًا .

سألت يائسة دون أن أعرف ماذا أقول ، عدا ما كان مُخَطَّطًا له .

- أيمكنها الحضور ؟

أجابت بالصوت نفسه

- دَعِيهِ يحضر.

ترددت ، دون أعرف كيف أو اصل سبيل إلى الإنجاز .. ألم تكن المرأة  
الأجنبية على العتبة ؟ توجهت إلى الباب حيث كانا ينتظران ، فأزحت  
الستار جانبًا ، وأخبرت أخي بما قالتها والدتنا ، وأنه من الأفضل أن  
يذهب بمفرده أولاً .

اكفهرَ وجهه بتلك النظرة القديمة التى تذكرتها فى صباح حين كان  
شئ يثير استياءه . تحاورَ لحظة مع تلك الأجنبية بلغتها . رَفَعَتْ  
حاجبيها حين سمعت كلماته ، هزت إحدى كتفيها هزة طفيفة ، ووقفت  
تنتظر فى هدوء ودون مبالاة، وما كان من أخى إلا أن أمسك بيدها على  
عجل ، ودخلًا معًا قبل أن أتمكن من الحيلولة دون ذلك .

ما أغرب تلك الشخصية التى كان عليها أن تدخل إلى القاعة العظمى  
لأسلافنا ! وَقَفْتُ متعلقةً بالستارة وأنا أكاد أكون مسلوية الحركة أمام  
ذلك المشهد . أول دم أجنبى غريب يتخطى هذه العتبة او قد حفزنى  
عجيبى من هذه الفكرة إلى أن أوصل التطلع إلى المرأة الأجنبية ، حتى أننى

نسيت أمى فى ثانية ، على الرغم من أننى عرفتُ حينئذٍ - وأنا نصف واعية - أن عزم أخى على ألاّ يدخل وحده ، لابد أنه أوقف فى لحظة ميل أمى نحوه وتشوفها الطبيعى لأن تراه مرة أخرى ، فلم أملك سوى التعجب فى هذه اللحظة

اختار أخى ثياباً من بلادنا لترديها الأجنبية ، ستره من الحرير الأزرق الباهت ، ثقيلة جداً من المخمل الأسود غير المطرز . وقد أبرزت هذه الملابس القائمة بياض بشرتها التى حاكت بياض اللآلىء اللامعة تحت ضوء القمر ، وراح شعرها يتمادى ويتوهج حول وجهها كإلسنة اللهب الصفراء ، وكانت عيناها فى زُرقة سماء اجتاحتها عاصفة رعديّة ، واسترخت شفاتها فى كبرياء . ودخلت مرتفعة الهامة فى عجرفة ، وقد دفعت برأسها إلى الوراء . التقت عيناها بعينى أمى بلا خوف أو ابتسام .

ولما رأيتُ هذا ضغطت بيدي على فمي لأمّنع صيحة كادت تفلت منى . لماذا لم يخبرها أخى بضرورة الدخول مسدلة العينين أمام من تكبرها سنّاً ؟ تأسفتُ كثيراً من أجله بسبب سلوكها المتغطرس . لقد دخلت كما تدخل الملكة الحاكمة فى حضرة أرملة عجوز مهيبة من الأباطرة .

تَبَّنتُ أمى عيناها على المرأة الأجنبية - تلاقى أعينهما ، وسرعان ما أعلننا عدواتهما .. ثم أدارت أمى عينيها بكبرياء بعيداً ناظرة إلى الفضاء فيما وراء الباب المفتوح . قالت المرأة الأجنبية شيئاً لأخى بصوت هادىء، عرفت فيما بعد ما سألته إياه .

- هل يجب أن أركع الآن ؟

أوما برأسه وَرَكَعًا مَعًا أَمَامَ والدتنا ، وشرع أخى يتحدث بالكلمات  
التي سبق أن أعدّها .

أيتها السيدة العريفة الجديرة بأسمى آيات التبجيل . لقد عُدْتُ من  
البلدان الأجنبية بناءً على أمرك ، كى أحظى بالمثل بين أيدى والدى  
الكريمين . أنا ابنك الذى لا يستحق عطفك .. لقد أبهجنى أن والدتنا رأت  
أنه من المناسب أن تقبل هدايانا عديمة الجدوى . أقول هدايانا لأننى  
أحضرت زوجتى معى التى كتبت رسالة عنها بيد أحد أصدقائى، لقد أتت  
لتكون زوجة لابنك ، وعلى الرغم من أن دماء أجنبية تجرى فى عروقها  
فإنها أرادت منى أن أخبر والدتنا المجبلة أنها منذ أن تزوجتني أصبح  
قلبها صينيًا ، وستأخذ طوعًا جنسيتنا وعادات أسرتنا وتتخلى عن  
عاداتها ، وسيكون أبناؤها جميعًا من أمتنا السماوية ، مواطنين من  
الجمهورية الساطعة المتألقة ، وورثة الإمبراطورية الوسطى ، وهى تقدم  
وَلَاءَهَا .

التَقَّتْ إلى المرأة الأجنبية التى كانت تنتظر فى هدوء حين كان يتحدث ،  
واعطاها إشارة .. انحنت بوقار فائق حتى لامست جبهتها الأرض أمام  
قدمى أمى .. لقد انحنت ثلاث مرات .. ثم انحنت مع أخى ثلاث مرات  
أخرى .. ثم نهضًا مَعًا فى انتظار كلمات أمى .

لم تقل شيئًا لفترة طويلة .. وظلت عيناها مُرَكَّزَتَيْنِ على الفضاء  
الفسيح فيما وراء الباب .. واستمرت هكذا عدة دقائق صامتة مرفوعة  
الهامة فى كبرياء .

يغلب على ظني أنها كانت في دخيلة نفسها حائرة إزاء جسارة أخي في تحدّيه بإدخال الأجنبية أمامها ، حين قالت إن عليه أن يأتي وحده .. أعتقد أنها كانت في صمتها تتعجب كيف تواجه اللحظة العسيرة العويضة .. تصاعد الدم على شكل بقعة على خَدَّيْهَا ، ورأيت عضلة تنتفض في فكها الرقيق ، ولكنها في سلوكها الثابت الصاعد لم يكن يبدو عليها أية علامة من الارتباك

جلستُ وكلتا يديها منثنيتان على الرأس الفضية للعصا . ولم تتذئذب عيناها وهي تحديق فوق رأسيهما انتظر الاثنان أمامها .. وأطبق الصمت على القاعة ثقيلًا مرهقًا وهما ينتظران .

وفجأة انفرجت أسارير وجه أُمى المتجهم .. لقد تغيرت ، وتراجع اللون بسرعة كما جاء ، وأصبحت وجنتاها ساحبتين سقطت إحدى يديها مرتخية في حجرها ، ونكَّستُ عينيها نحو الأرض في غموض ، وأُحْنَتُ كتفيها، وانكَمَشَت في مقعدها وقالت وهي على وشك الإغماء .

– يا بني .. يا بني !! مرحبًا بك على الدوام في بيتك .. سأتحدث فيما بعد.. والآن عليك بالانصراف

رفع أخي عينيه إلى وجهها يسبر غَوْزَه . لم تكن نظرتَه حادَّة قوية كنظرتي، ولكنه عرف أيضًا أن هناك شيئًا خاطئًا . تردد تم حدق في وجهي . رأيت أن في جعبته مزيدًا يريد أن يتحدث عنه ، أن يحتج على برودها ، إلَّا أنني كنتُ جزِعَةً من أجلها . هزرتُ له رأسي، فتحدث بكلمة إلى الأجنبية ثم انحنيا وانسحبا .

هرولتُ إلى جانب أمى ، ولكنها أشارت إلى كى أظل بعيدة دون أن تتفوه بكلمة . كنت أتلهَّفُ على أن أسألها العفو ، لكنها لم تسمح لى بالتحدث ، وقد استطعتُ أن أرى أن هناك ألماً خفياً يرهقها ، ولم يكن مسموحٌ لى بالبقاء، ولذلك انحنيتُ واستدرتُ خارجةً على مهل ، ولكننى نظرتُ ورائى من الفناء فرأيتها تسير ببطء عائدةً إلى مسكنها وهى تتكىء بكل ثقلها على جاريتين

تنهدتُ وعدتُ إلى بيتى . لا أستطيع أن أفعل شيئاً من أجل المستقبل ، أو أفكر فيه كما يجب .

أما بالنسبة لهذين - أختى والأجنبية - اللذين حطَّما قلب أمى ، فقد ذَهَبَا بعيداً ليستريحا من ذلك اليوم فى نزهة من نزهاتهما التى يسيران فيها طويلاً ، وحين هبط الليل عادًا ، ولم نتجاذب الحديث معًا .

\* \* \*

لقد طال غيابك يا أختاه ! ثلاثين يوماً بل إنها بلغت الأربعين تقريباً منذ رأيتك . شهر قمرى كامل وأكثر ! هل كانت الرحلة هادئة ؟ أشكر الآلهة لأنك عدت .

نعم ، إن ابنى بخير . إنه الآن يقول كل شىء ، وصوت كلامه يجرى ثابتاً خلال اليوم كجريان الماء فى العزير . إنه لا يسكت إلا فى أثناء النوم فقط . يا لحديثه العذب يا أختاه ! كلماته رقيقة ومتكررة وتثير فىنا الضحك ، نحن نحرض فى كثير من الأحيان ألا ندعه يرانا نبتسم ، لأنه إذا

عرف أننا نضحك منه لَغَضِبَ وضرب الأرض بأخمص قدميه  
الصغيرتين. إنه يعتبر نفسه رجلاً حبذا لو شاهده وهو يسير بجانب  
والده بساقيه السمينتين منفرجتين حتى يلحق بخطى والده السريعة .  
إنك تسألين عن زوجة أخى ' آه .. إن جوابى لك ليس إلا تنهيدة .  
فالأمر ليست على ما يرام مع أخى . نعم ، إنهما ما زالنا هنا ينتظران  
لم يتقرر شىء بعد .. وأخى قلق ، فالأيام تمر فى كسل دون أن تأتى  
بقرار . لقد تعلم نفاذ الصبر من الغرب ، وهو ينشد تلبية رغباته على  
الفور ، ناسياً أن الوقت فى بلادنا لا يساوى شيئاً ، وأن المصائر والأقدار  
قد تظل مجهولة حتى لو حمّ القضاء . ليس هناك تعجل يمكن أن يحدث  
الزمن على الإسراع ، ولكننى سأخبرك .

بعدأن قدّما نفسيهما لوالدتي ، دارت الأيام ، ثمانية أيام طويلة  
انتظرنا، ولكن لم تأت كلمة .. فى أول الأمر كان أخى يتوقع فى كل ساعة  
أن تأتى رسالة مّا . لم يسمح للأجنبية أن تفك أحزمة الصناديق  
الضخمة ، التى أحضراها معها ، لإفراغ محتوياتها ، وهتفت صائحاً

- لا داعى إلى ذلك الآن .. إن هى إلا يوم أو يومان .. كان قلقاً مزعزعاً  
فى مسلكه ، وسرعان ما يقهقه عالياً على لا شىء .. يمرح أحياناً ، ويصمت  
فجأة أحياناً أخرى بدون أن يسمع ما قيل له . كان أشبه بإنسان يصغى  
بلا انقطاع لبعض الأحاديث أو الأصوات التى لا يسمعا أحد سواه فى  
الحجرة .

غير أنه حين مر يوم وراء يوم دون أن تأتي رسالة لهما ، غضب وأصبح سريع التهيج والانفعال ، وكَفَّ عن الضحك على أى شىء ، وبدأ يتذكر ويعيد النظر فى الساعة التى فيها مع والدته ، وطفق يتحدث عنها مرارًا وتكرارًا ، ملقياً اللوم الآن على الأجنبية التى لم تكن أكثر تواضعًا أمام أمه ، ثم لا يلبث أن يلوم والدته لغطرستها وعجرفتها معلناً أن زوجته كانت على حق ، ومن السخف فى هذه الأيام الانحناء أمام أى أحد ونحن فى عهد الجمهورية . وحين سمعتُ ذلك أخذنى العجب وقلتُ .

– ألم تعد والدتنا هى والدتنا منذ أن أصبحت لنا جمهورية ؟

غير أنه أصبح نافذ الصبر ، ويثور مغتاضاً لأى شىء ، ولا يسمع شيئاً مما يُقال له .

ولكننى يجب أن أكون عادلة منصفة للأجنبية ، فهى فى الحقيقة لم تعترض على الانحناء أمام والدته ، وقيل لى إنها قالت

– إذا كانت هذه هى عادتكم فإننى سأفعل ذلك بلا ريب ، على الرغم من أننى أعتقد أنه من السخف بعض الشىء أن أنحنى بهذا الشكل أمام أى شخص !

كانت هادئة ، أكثر هدوءًا من أختى ، وأكثر ثقة بالمستقبل : كانت تفكر فيه على الدوام ، وكيف تنجح فى إعادة السعادة إليه . وفى بعض الأحيان عندما تراه غاضبًا تأخذ فى ملاطفته ، وتمضى به إلى الحديقة أو إلى خارج البوابة .

وذات مرة نظرتُ إليهما من النافذه ، ورأيتهما هناك في الحديقة .  
كانت تتحدث إليه بجد ، وأخيراً عندما ظل لا يجيبها ، واستمر ينظر إلى  
الأرض بكآبة وعبوس ، مدت يدها إلى وجنته برفق ، وحملت في وجهه  
نصف مبتسمة ، ونصف حزينة . ولا أعرف ماذا كانت تقول له عندما  
ينفردان معاً هكذا . أن أخی بعدئذ تحسَّن قليلاً ، وأصبح أكثر هدوءاً ،  
وإن كان باله لم يرتح قط ، وظل متوتراً من جراء الانتظار .

ولكنها لم تكن تُلاطفه هكذا على الدوام . إذ كانت تهز كتفيها في بعض  
الأحيان بطريقتها الخاصة ، وتدعه وحده غير أن عينيها كانتا تُتابعانه  
بتلك النظرة العميقة التي كانت تصوبها إليه كلما تفرست في وجهه . فإذا  
لم يأت إليها فإنها تحبه وتُحادثه بكلمات لا أستطيع أن أفهمها .

وقد بدأت أيضاً تتعلم منى شيئاً من موسيقى القيثارة القديمة ،  
وسرعان ما تعلمت ما يكفي لكي تعزف لحنًا مصاحبًا لأغانيها . إن  
صوتها حينما تغنى ممتلئ ومثير في عمقه ، على الرغم من أنه بالنسبة  
لأذناننا - التي اعتادت على النغمات الرقيقة العالية للصوت البشرى - كان  
يتصف بعدوية خشنة ، وهى تستطيع أن تجعل أخی يندمج على الفور  
منفعلًا مع أغانيها ، وأنا لا يمكننى فهم الأغانى ، ولكننى حين أسمعها  
أحس بألم خفى غامض مبهم .

وأخيراً ، عندما لم تصل رسالة من أمى ، بدا أنها كَفَّتْ عن التفكير في  
الموضوع ، وحوّلت ذهنها إلى الاهتمام بأشياء أخرى إن الأجنبية

تذهب يوماً لمسافات طويلة سيراً على الأقدام وحدها ، أو مع أخى .  
أدهشنى أن أخى يدعها تذهب وحدها ، إذ لا شك أن ذلك لا يناسب  
امرأة، ولكنه لم يقل شيئاً ، وكانت تعود وفى جعبتها الكثير للحديث عن  
الطرق ، متعجبة من مناظر لم يلاحظها الآخرون ، ومن رؤيتها لأماكن  
غريبة رائعة الجمال . وإنى أتذكر يوماً عادت فيه تبتسم ابتسامتها  
السريعة ، كما لو أن هناك ابتهاجاً فى أعماق نفسها لم يحس به الآخرون ،  
وحين سألتها أخى بخصوصه ، قالت بلغت ما أخبرنا به أخى فيما بعد

- شاهدت جمال الأرض وهى تضع حبوبها. فى متجر الحبوب فى  
الشارع الرئيسى كانوا يضعون فى سلال بنية صغيرة من الأغصان  
المجدولة شتى الحبوب بألوانها المحبوبة . الذرة الصفراء ، الفول  
الأحمر، الفاصوليا الجافة الرمادية ، السمسم العاجى اللون ، فول  
الصويا بلونه العسلى الشاحب ، القمح المتورد اللون ، الفول الأخضر .. لم  
أستطع أن أتجاوزها بسرعة. يالها من لوحة وِدِدْتُ أن أرسمها لو أتيح لى  
أن أغمس فيها قلمًا من الباستيل!

لم أتمكن من فهم ماذا تعنى بهذا كله ؟ ولكنها هى هكذا .. إنها تعيش  
داخل ذاتها ترى الجمال حيث لا يراه غيرها.. أنا لم أفكر فى متجر  
الحبوب بهذا الشكل، صحيح أن الحبوب هناك متعددة الألوان، ولكنها  
هكذا بوساطة الطبيعة . لم يقد أحد بتغيير ألوان الحبوب ، ولا شىء  
يدعو للدهشة . فهى دائماً هكذا .. ومتجر الحبوب فى أعيننا ليس إلا  
مكاناً لشراء الطعام.

بيد أنها ترى كل شىء بعيون غريبة، على الرغم من أنها نادراً ما كانت  
تُعلّق على ما تشاهده ، مكتفية فقط بإلقاء الأسئلة ، وتخترن إجاباتها في  
ذاكرتها

ولما كنت أحيا معها يوماً بعد يوم فقد أحببتها وأنا أنمو في كنفها ..  
وعندما أرقبها كنت أرى أحياناً بعض الجمال في بعض نظراتها  
وأساليها الغريبة ، ولاشك أنها كانت على درجة كبيرة من الكبرياء . إنها  
صريحة إلى أبعد حدود الصراحة ، ولا يكبحها شىء فيما تود أن تُدلى به ،  
حتى مع أخى - زوجها - لم تكن منواضعة فط . ولعل أغرب الأشياء  
جميعاً أنه لا يحتمل هذا من امرأة صينية، في حين يبدو أنه يجد منها ذلك  
مبعثاً لسروره، ويغضُّ الطرفَ عمّا قد يُحدثه هذا من وخرات الألم ، بل  
ويزداد افتتاحاً بها. وعندما يراها تتحول لتتسلى بدراساتها أو قراءاتها ،  
أو حتى باللعب مع ابني، ينتابه القلق ، ويحدق فيها المرة تلو المرة ،  
ويتحدث معها . وأخيراً إذا لم تعره انبهاً فإنه يدع تفكيره الطويل جانباً  
ويمضى إلى جانبها ، فتستحوذ عليه من جديد. وهذا لا يشبه شيئاً سبق  
أن رأيته قط ، ذلك الحب بينهما .

\* \* \*

وأخيراً جاء يوم .. أظن أنه كان الثانى والعشرين بعد مقابلة أمى ،  
حيث أرسلت تستدعى أحمى، وأبدت رغبتها في أن تلقاه وحده . كانت  
كلمات الرسالة رقيقة حتى بلغت حدّ الكرم والطف ، فبعثت ذلك الأمل

بين جوانحنا جميعًا ، وذهب أخى إلى هناك على الفور ، وانتظرت أنا والأجنبية عودته .

عاد بعد ساعة ! اجتاز الباب الأمامى بخطى واسعة ، وقدم إلى الحجرة التى كنا نجلس فيها . كان غاضباً ، متجهماً الوجه، مقطَّبَ الجبين، وطفق يقول مراراً وتكراراً . إنه سينفصل عن والديه إلى الأبد . لم نستطع فى أول الأمر أن نتبين شيئاً مرتباً منظماً من حديثه ، ولكننا أخيراً حين ضممنا هذا بذاك وصلنا إلى بعض الحقيقة .

يبدو أنه عندما كان فى طريقه إلى لقاء والدته كان مفعماً بالحب والرقّة والحنان ، والرغبة فى استمالتها واسترضائها ، ولكنه قال إنها منذ البداية لم ترغب فى تقديم أية تنازلات ، لقد استهلّت حديثها بالتأكيد على صحتها السيئة ، قائلة .

– لن يمضى وقت طويل حتى تنزعنى الآلهة لأرحل إلى دائرة أخرى من الوجود

تأثر بكلماتها فقال متوسلاً .

– لا تقولى ذلك يا أمى ! ما زال أمامك متسع من الحياة لترى أحفادك .  
وقد ندم على الفور أنه نبهها إلى تلك الفكرة .  
ردت يهدوء .

– أحفاد ؟ أه يا بنى ، من أين سيأتينى أى حفيد إلّا من صُلبك ؟ وابنة «لى» ، زوجة ابنى ، لا تزال عذراء تنتظر ا

ثم راحت دون استخدام مزيد من الكلام المهذب تتحدث ببساطة وتحثه على الزواج من خطيبته ليمنحها حفيداً قبل أن تموت . عندئذ قال : إنه الآن متزوج . فقالت بغضب : إنها لا توافق البتة أن تكون الأجنبية زوجة له .

هذا ما جمعناه ورتبناه مما قاله .. إننى لا أعرف ما جرى بينهما أكثر من ذلك .

لكن «وانج دا ما » الخادمة المخلصة ، تقول إنها أصاغت السمع من خلف الستارة ، وأن الحديث الساخن بينهما تطاير وتناثر وتطور بشكل غير متوقع ، على نحو غير ملائم بين أم وابن ، فقد كان كقصص الرعود عبر السماء ، وهى تقول إن أخى قد استمسك بالصبر إلى أن هدته أمى بحرمانه من ميراث الأسرة ، عندئذ قال لها بمرارة :

- وهل ستعطيك الآلهة ابناً آخر حتى تلقى بى بعيداً ؟ وهل سيخصبون رَجَمِكَ مرة أخرى فى مثل هذه السن ؟ وهل ستطأطئين رأسك وتنزلين إلى مستوى أدنى وتأخذين ابن إحدى المحظيات ابناً لك ؟

لا شك أنها كانت كلمات غير ملائمة من ابن !

ثم اندفع بقوة خارج المدخل ، وهَرَوَلَ قُدُماً خلال الأفنية لاعتنا أسلافه .. جثم ضمت عميق على حجرة أمى ، ثم سمعت « وانج دا ما » عويلاً .. كانت أمى تنوح .. دخلت « وانج دا ما » على وجه السرعة . لكن أمى صممت فى الحال ، وسألت الخادمة بصوت خافت وهى تعض شفتيها أن تعاونها فى الذهاب إلى فراشها .

من المخجل أن يتفوه أخى بمثل هذا الكلام لأمى ' إننى لا ألتمس له العذر مهما كان السبب .. كان يجب أن يتذكر سنّها ومكانتها .. إنه يفكر فقط فى نفسه .

أوه ، إننى أحياناً أمقتُ الأجنبية لأنها تحمل قلب أخى فى راحة يدها تماماً ' أتوق إلى الذهاب لأمى على الفور ، لكن زوجى توسل إلى أن أنتظر حتى تستدعينى . أمرنى أيضاً بالانتظار ، لأننى إذا ذهبتُ سيبدو ذلك عملاً ضد أخى ، ولما كان يتناول الآن أرزنا ، فذهابى سيكون جافاً فظاً ، ولهذا لم يكن لى ملاذ سوى الصبر . ويا له من طعام فقير لقلب قلق، يا أختاه '

وهكذا بقيت الأمور معنا .

\*\*\*

سَرّنى بالأمس أن السيدة « ليو » جاءت لزيارتنا قضينا يوماً عسيراً تذكرنا فيه اليوم السابق حين غضبت أمى على أخى ، فلم يتمر لقاؤهما غير خيبة الأمل أخذ أخى يتسكع فى الحجرات ، لا يكاد يُحادث أحداً ، ويحملك من خلال النافذة إلى الخارج وكان إذا التقط كتاباً ليقراه فإنه يلقيه بسرعة ليختار كتاباً آخر ، لا لشيء إلا ليعجل بطرحه جانباً .

أما الأجنبية حين لاحظته بهذا الشكل فقد انسحبت إلى أفكارها مع أحد كتبها الصغيرة وشغلتُ نفسى بابنى حتى لا أحتاج إلى الاقتراب منهما غير أن خيبة الأمل جثمت على البيت ثقيلة مرهقة ، حتى أن مَرَحَ

زوجى عندما يجيء ظَهْرًا لتناول الأرز ، نادرًا ما كان يُخفف من كآبة  
أخى. ولم تخرج الأجنبية عن صمتها ، لذا كان مجيء السيدة « ليو » بعد  
الظهر أشبه برياح باردة نقية تهب مخترقة حرارة كثيبة مُمَلَّة في أحد أيام  
الصيف

كانت زوجة أخى تجلس حاملة كتابها في يدها بلا مبالاة كما لو كانت  
نصف حاملة فوقه . تَفَرَّسَتْ قليلاً في السيدة « ليو » ، لم يكن يزونا أحد  
منذ مجيء أخى ، فقد عرف أصدقائنا موقفنا الصعب فلم يجيئوا  
لزيارتنا بدافع من كياستهم ، ومراعاتهم لأحاسيس الآخرين . كما أننا  
لم نَدْعُ أحداً ، لعدم معرفتنا كيفية تقديم الأجنبية إليهم. كنت أدعوها  
زوجة أخى مجاملة له ، مع أنها حتى الآن ليس لها موقف شرعى حتى  
يعترف أبى وأمى بها .

إن السيدة « ليو » لم تكن مُحَرَّجَةً على الإطلاق .. لقد أمسكت بيد  
الأجنبية ، وسرعان ما تحدثت الاثنتان بسهولة ويسر ، وضحكتنا أيضًا .  
لم أعرف ماذا تقولان ، إذ كانتا تتحدثان بالإنجليزية . وبدا أن الأجنبية  
تيقظت وانتبهت فجأة .. كنت أرقبها ، فدهشت لذلك التغيير .. إن لها  
هاتين الشخصيتين ، واحدة صامته ، منعزلة ، كثيبة بعض الشيء ،  
والأخرى هى هذه المبتهجة ، بل وتبدو شديدة المرح .. كنت أرقبهما ،  
فكرهتُ السيدة « ليو » لفترة قصيرة ، لأنها بدت غير مبالية بصعوبة  
موقفنا، ولكنها حين نهضت مستوية على قدميها لتنصرف ، شدت على  
يدي ، وقالت بلغتنا :

- إننى آسفة ، هذا صعب على كل إنسان .

واستدارت وقالت شيئاً للمرأة الأخرى ، شيئاً جعل عينيها الزرقاوين الداكنتين فجأة تتألقان كالفضة ، حيث اغرورقتا بالدموع . وقفنا ثلاثتنا ، ثم أخذ بعضنا يتطلع إلى بعض ، وقد تَرَدَّدْتُ كل منا في الحديث ، وفجأة - ودون سابق إنذار - استدارت الأجنبية وخرجت مسرعة من الحجرة . كانت السيدة « ليو » ترقبها بوجه اكتسى بشفقة هادئة ، وعادت تردد

- هذا صعب على كل إنسان . هل العلاقة بين الاثنين سعيدة ؟

ولما كانت السيدة « ليو » صريحة كزوجى فقد أحببتها دون مواربة

- هناك حب بين أختى وبينها ، ولكن أمى تموت من خيبة أملها

وأنت تعلمين كم هى ضعيفة واهنة الآن ، وقد أوغلت بها السن إلى هذا الحد

تنهدت وهزت رأسها

- آه .. إننى أعرف " كثيراً ما أرى ذلك الآن .. هذه أيام قاسية بالنسبة للمسنين . ليس هناك تفاهم ممكن بين الكبار والشباب من الواضح أنهم قد انفصل بعضهم عن بعض كما يحتز سكين مرهف النصل غصناً من شجرة .

قلت بصوت خافت :

- هذا خطأ كبير

أجابت .

- كلاً ، ليس خطأً ، إنما هو شيء محتوم يتعذر اجتنابه ، وهذا أكثر ما يدعو إلى الحزن في العالم .

\*\*\*

بينما كنا ننتظر يائسين عاجزين لأَعَوْنَ لنا ، نتطلع نحو إشارة أو علامة تهدينا سواء السبيل ، فإننى لم أستطع أن أنسى أمى ، فكرتُ ملياً فيما قالته السيدة « ليو » بأن هذه الأيام محزنة بالنسبة لكبار السن ، ولكى أُسْرَى عن نفسى قلت .

- سأخذ ابنى لزيارة وَالِدَى أبيه ، فهما أيضاً مُسِنَّان ، تعلق وجهيهما أماراتُ الأَسَى والاكتئاب .

لقد رَقَّ قلبى لكل هؤلاء المسنين .. ألبستُ ابنى سُترة الساتان الطويلة التى تشبه سُترة أبيه ، وكنا قد ابتعنا له فى عيد ميلاده الأول قبعة من المخمل الأسود مثل قبعات الرجال ، وكانت تُناسب رأسه بإحكام ، ولها زر أحمر فى أعلاها ، فوضعتها فوق رأسه ، ولمستُ ذقنه ووجنتيه وجبهته بفرشاة كانت مغموسة فى صبغ الزنجفر القرمزى ، ولما أنجزتُ ذلك بلغ من الجمال حدًا خشيت معه أن تعتبر الآلهة جماله أكثر مما يستحقه كائن بشرى فتعمل على إهلاكه .

وهذا ما اعتقدته جدته أيضاً حين رآته ، فحملته واحتضنته ، فاهتزت وجنتاها المستديرتان من الفرح والضحك ، وقد استنشقت بشرته التى يفوح منها أريج العطر ، وأخذتُ تُردد فى نشوة وابتهاج غامر :

- آه يا صغيرى !! آه يا بَن ابنى !

لقد هزنى انفعالها العاطفى ، وأُنْبِتُ نفسى لأننى لم أحضره إليها مرارًا ، ولم آسف أننا أخذناه لأنفسنا ؛ فهذا كان جزءًا محتومًا مما يتعذر اجتنابه .. ذلك الذى تحدثت عنه السيدة « ليو » . ولكننى شعرت بالأسى لهؤلاء الذين تتقدم بهم السن حتمًا دون أن يروا استمرارًا لوجودهم ، ولهذا وقفتُ أبتسم وهى تهيم بالطفل . ثم نَظَرْتُ إليه من جديد وقالت بسرعة ، وهى تدير وجهه بيديها من خديه يمينًا ويسارًا

- ولكن ما هذا ؟ إنك لم تفعل شيئًا لتقيه من الآلهة ! ما هذا

الاستخفاف واللامبالاة ؟

ثم استدارت نحو الجوارى وصاحت

- احضرن قرطًا ذهبياً وإبرة !

كنت قد فكرت قبل ذلك أنه يتعين على أن أثقب أذنه اليسرى ، وأُعلِّقُ فيها قرطًا ذهبياً لأخدع الآلهة كى يظنونه بنتًا لا جدوى منها لهم إنها وسيلة قديمة لتحاشى الموت المبكر للابن الوحيد . ولكنك تعرفين يا أختاه مدى رقة لحمه ، لقد تقلص جسمى ألماً من أجله ، وهذا ما حدث لى الآن أيضًا ، ولكننى لم تواتنى الجرأة على أن أنازع حماتى وأجادلها فى حكمتها .

إن ابنى حين لامستُ الإبرة شحمةً أذنه الصغيرة صرخ واتسعت عيناه رعبًا ، وجذب فمه إلى أسفل ، حتى أن جدته حين رأت ذلك لم تقو

على ثقبُ أذنه ، وأسقطت الإبرة ، وأخذت تهمهم وتدمدم لتهدئته، وطلبت خيطاً من الحرير الأحمر ، وربطت به القرط حول أذنه دون ثقبها . عندئذٍ ابتسم ، فأدخلت ابتسامته السرور على قلوبنا معاً .

ولما رأيت مكانة ابني بالنسبة لجدته وصلتُ إلى فهم عميق لمدى الألم الذي تُقاسيه أمى . إن ثمرة حياتها هو حفيدها الذي لم يُولد بعد ولكننى كنتُ سعيدة حين أدخلتُ السرور على قلب جدة ابني ، قد خفف ذلك بعض الشيء مما أشعرُ به من أَسَى وحزن من أجل المسنين .

\*\*\*

لقد سُرَّتِ الألهة يا أختاه لأننى كنتُ بارّة ومضيت بالأمس مع الطفل إلى جدته لأبيه ، ففي هذا الصباح أتى إلينا رسولٌ يحمل رسالة من أمى . كانت معنونة باسم أختى ، ولم يكن فيها شيء من كلماتها الغاضبة ، وطلبت من أختى ببساطة أن يذهب إلى البيت وقالت إنها لن تتحمل مزيداً من المسئولية تجاه الأجنبية . كانت المسألة ضخمة بالنسبة إليها ، ويجب أن يتولى والدنا وكبار رجال العشيرة اتخاذ قرار بشأنها .

وفي الوقت نفسه قالت إن أختى يمكنه أن يُحضرها معه إلى البيت ، وعليها أن تعيش في القاعة الخارجية ، إذ ليس من اللائق أن نجعلها تختلط بالمحظيات وأطفالهن . ثم انتهت الرسالة .

دُهشنا جميعاً إزاء ذلك التغيُّرِ في عقلية أمى .. اجتاح الأمل نفس أختى في الحال ، فارتسمت الابتسامات على وجهه ، وهو يصيح مردداً :

- كنت أعرف أنها ستتخلى عن عزمها في النهاية ، فأنا فوق كل شيء  
ابنها الوحيد !

وعندما ذكّرته بأنه لا يوجد اتجاه منها على أنها رضيت بالأجنبية ،  
قال

- طالما كانت داخل الأبواب فسيحبها الجميع .

عندئذ لم أقل شيئاً ، لعدم رغبتى في تثبيط همته ، ولكننى في قلبى كنت  
أعرفُ أن النساء الصينيات لا يحببن الآخرين بسهولة ، ومن المرجح أن  
النسوة سيتذكرن ابنة «لى» التى تنتظر إتمام زواجها .

سألتُ رسولَ أمى سرّاً ، فأجاب أنه في الليلة الماضية اشتد المرض على  
أمى حتى أنهم جميعاً خشوا في تلك اللحظة أن ترحل إلى مقر الموتى .  
ارتفعت الصلوات ، واستدعى الكهنة ، فتحسنت حالتها ، وفي الصباح  
عُوفيت بمعجزة ، حتى أنها استطاعت أن تكتب الرسالة بخط يدها .

لقد فهمت في الحال ما حدث حين رأت الموت يدنو منها ، خشيت ألا  
يعود ابنها إلى بيته أبداً ولا إلى تأدية واجبه ، فأقسمت في تلك اللحظة أنها  
ستستدعيه إذا حفظت الكهنة حياتها .

أحسّ قلبى بالألم إزاء مَذَلَّتِهَا ، وتَلَهَّفْتُ على الذهاب إليها فوراً ، ولكن  
زوجى قال :

- انتظرى ! ليس لديها قوة لتحتمل أكثر من شيء في وقت واحد .  
وحتى التعاطف يكون ثقیلاً ومرهقاً فوق احتمال المريض الضعيف .

عندئذ كبحْتُ جماحَ نفسى ، وعاونتُ زوجةَ أخى فى حزمِ صناديقها .  
ولو كان فى مقدورى أن أحدثها تلقائياً بلغتنا ، لقلت لها .  
- تذكرى أنها مُسِنَّةٌ ومريضة ، وأنت أخذتِ منها كل ما كان لها .  
بيد أننى لا أستطيع أن أقول شيئاً ، لأن حديثنا معاً تهشمه الكلمات  
غير المفهومة .

\*\*\*

رحل أخى اليوم هو وزوجته إلى بيت أسلافه ، وسيعيشان فى الشقق  
القديمة، حيث أمضى فيها أخى حادثته ، ولن يسمح لها أن تنام أو تأكل  
أو تتسكع فى شقق النساء ، وهكذا تكون أُمى غير معترفة بها .  
الآن وقد انصرفا ، أسعدنى أن أكون وحدى مع زوجى وطفلى ، ومع  
ذلك فقد رحلتُ بعض الحيوية من البيت حين غادراه ، وكأن رياح الغرب  
قد فارقتنا مع مغرب الشمس فتركتُ وراءها صمماً وسكوناً أقرب إلى  
الموت .

إننى أفكر فيهما وأتصورهما وحدهما فى الحجرات القديمة ، وقد قلت  
لزوجى فى الليلة الماضية :

- ماذا سيأتى من جرأ هذه المشكلة برمتها ؟

هز رأسه فى شك ثم قال :

- بهذين الاثنتين تحت سقف واحد ، العجوز والشابة ، أشبه بالحديد

يقدم حجر الصوان . مَنْ ذا الذى يستطيع أن يخبرنا أيهما سيمحو الآخر ؟

فقلت .

– وماذا سيجيء من وراء ذلك ؟

أجاب برزانة

– نوع من النيران ستشبه نتيجة ذلك . إنى أشفق على أخيك ليس هناك رجل يستطيع أن يقف مكتوف اليدين بين امرأتين متكبرتين متغطرتين ، إحداهما عجوز والأخرى شابة ، وكلتاهما تحبانه حباً عظيماً .

حمل ابنتا وأجلسه فوق ركبته ، وقد تعلّق بصره بالطفل ، واستغرق فى التفكير . لم أعرف ماذا كان يدور بخلده .. ولكن الطفل رفع براءة خصلة شعره من فوق أذنه ليكشف مزهواً عن القرط الذى علقته جدته فيها وهو يصيح .

– أَو ترى يادا . دى ؟

وفى الحال نسينا أختى وزوجته .. تطلّع إلى زوجى بنظرة شك وتأنيب،

وسأل

– « كواى لان » ما هذا ؟ لقد اعتقدتُ أننا انتهينا من تلك الأعمال

الخرافية الحمقاء !

قلت متعلّمة

- لقد وضعته والدتك في أذنه ، ولم يطاوعنى قلبى على ..

فصاح

- هراء ! يجب أن نفكر في الطفل أولاً ! ولا يمكننا أن ندعه يتلقى مثل هذه الأفكار .

وأخرج من جيبه مُدْيَةً صغيرة ، وقطع بحرص الخيط الحريري الذي يشد القرط ، ثم مال بجسده وألقى بالقرط خارج النافذة إلى الحديقة ..  
وحين تَنَّى الطفل شفّتيه استياءً ، قال له ضاحكاً .

- أنت رجل مثلى ! انظر . إننى لا أعلّق قرطاً في أذنى مثلما تفعل المرأة.. إننا رجال .. نحن لا نخشى الآلهة !  
ابتسم الطفل لكلمات أبيه المرحّة .

ولكننى في ظلمة الليل فكرتُ في ذلك نصف خائفة . أو يمكن أن يكون القدامى على خطأ دائماً ؟ وماذا لو كان هناك آلهة برغم ذلك ؟ لن أهمل شيئاً يجب أن أفعله من أجل ابنى .. آه ، كم أفهم أمى !



الفصل التاسع

بسم الله الرحمن الرحيم

9  
لم أزرُ بيتَ والدتي طوالَ عشرين يوماً ، كنت مرهقة ومتوعكة، وعندما كنتُ أفكرُ في أمي وأخي ، يزداد عقلي حيرة وارتباكاً ، فإذا تذكرتُ زوجي انعطفتُ قلبي إلى أخي ، وإذا حملتُ ابني بين ذراعيّ تعلقَ قلبي بأمي .

هكذا بالإضافة إلى أن أمي لم ترسل في استدعائي ، فإذا ذهبت من تلقاء نفسي فربما لا أعرف كيف أحييها ، أو أشرح سبب قدومي . ولما كنتُ أمكث وحدي في البيت الهادئ - وأنتِ تعرفين أن زوجي يعمل طوالَ اليوم ، وحتى ساعة متأخرة من الليل - فتنتابني الدهشة والتعجب ، وأتخيل وأتصور أشياء عديدة .

كيف تقضى الأجنبية الأيام الطويلة المتناقلة ؟ هل رأتها أمي مرة أخرى، وتحدثت إليها ؟ إنني أعرف أن الجوارى والمحظيات سيثيرهن ذلك فيرقبونهن من خلف الزوايا والأركان ، وأن الخدم سيتذرعون بإحضار الشاي إلى أخي ، ويتعلّلون بهذا أو ذاك من الحيل لكي يروها . ويدور الحديث في المطبخ عنها ، وعن أساليبها ونظراتها ، وكيف تتصرف

وتتكلم ، وينتهى حديثهم دائماً بإلقاء اللوم على وجودها في البيت ،  
وبالرتاء لابنة « لى » .

وأخيراً قدِمَ أخى ليرانى .. وجلستُ ذات صباح أُطرزُ زوجاً من  
الأحذية لابنى .. فأنت تعرفين أن مهرجان الربيع الصافى لم يبق على  
حلوله سوى سبعة أيام لا غير .. وفجأة فتح الباب ودخل أخى دون  
سابق إعلان .. كان يرتدى ثوباً صينيّاً ، وبدا منظره أشبه بما كان عليه  
في حادثته من أى وقت مضى منذ عودته ، إلا أن وجهه كان يخيم عليه  
الوجوم جلس وشرع يتحدث دون أن يحيينى ، كما لو كنا نُكمل حواراً  
بدأ من ساعةٍ مَضَتْ .

- هل ستأتين يا « كواى لان » ؟ إنَّ أُمى فى أشدِّ حالات الوهن  
والضعف ، وأعتقد أنها مريضة ، غير أن إرادتها وحدها بقيت قوية  
كعهدنا بها دائماً . لقد أصدرت قراراً بأن تعيش زوجتى لمدة عام وفقاً  
للحياة التى تتبعها المرأة الصينية فى مسكنها ، ولما كانت التركة كلها التى  
سأرتها تتوقف على طاعتها ، فإننا نحاول أن ننفذ رغبات أُمى .. ولكن ما  
أشبه ذلك بحبس طائر الصافر الذهبى فى قفص ! تعالى وأَحْضِرِى الطفلَ  
معك .

نهض وسار فى الحجرة جيئةً وذهاباً والقلق يبدو على وجهه ، وعندما  
رأيتُ اضطرابه ارتباكهُ وَعَدَّتُهُ بالحضور .

وعلى ذلك مضيتُ بعد ظهر ذلك اليوم لزيارة أُمى .. وطاقف، بذهنى أنه

يجب - وأنا في طريقي عبر الأفنية - أن أتوقف لرؤية تلك الأخرى ،  
زوجة أختي .. لم أتجاسر أن أدع أمتي تعرف أنني إنما جئت لأراها وحدها  
فقط دون أحد سواها . وفي الواقع عازمت على ألا أذكر الأجنبية أمام  
والدتي إلا إذا أتاحت لي الفرصة لذلك .

مضيتُ رأسًا للمثول بين يدي أمتي دون أن أتلكأ في الأفنية ، وعلى  
الرغم من ذلك فإنني لم أكد أصل إلى مساكن النساء حتى جاءت السيدة  
الثانية إلى مدخل بوابة القَمَر ، وأومات إليّ من وراء إحدى أشجار الدفلى ،  
ولكنني انحنيتُ لها فقط ، وغذيت السير للقاء أمتي

وبعد أداء التحيات ، استهللنا الحديث عن ابني ، ثم واتتني الشجاعة  
لأتفحص وجه أمتي . لقد بدأ عليها بعض التحسن على الرغم مما ذكره  
أختي ، أو على الأقل لم تكن مريضة بالدرجة التي كنتُ أخشاها ، لذا لم  
أسألها عن صحتها ، حيث كنتُ أعرف أن مثل تلك الأسئلة كانت دائمًا  
تثيرها ، على الرغم من أنها لم تكن تتقاعس عن الإجابة بكياسة ولطف .  
وبدلاً من ذلك سألتها

- كيف وجدّت مدى تغير ابنك - أختي - بعد سنواته التي قضاها  
بالخارج ؟

رفعت حاجبيها المزججين بدرجة طفيفة .

- نادرًا ما تحدثتُ إليه في شيء ذي أهمية أمّا مسألة زواجه من ابنة  
«لى» فهي بلا ريب تنتظر مجيء والده . إنه يبدو أشبه بمظهره السابق ،  
وعلى الأقل منذ أن أرسلتُ كلمة لافتة نظره إلى أن عليه أن يرتدى ملابسه

المعتادة حين عاد إلى البيت . لم يسرنى أن أرى ساقيه في سراويل على غرار تلك التى يرتديها السَّقَاء الذى يحمل المياه

ولما كانت قد تحدثت عن زواجه ، تعمدت أن أسأل فى غير مبالاة ،  
متظاهرة بأننى أتفحص الرسوم المنقوشة على رداىى الحريرى

- كيف وجدتِ الأجنبيّة ذات العينين الزرقاوين ؟

كنت مدركة أن جسم أُمى سيتصلب عندئذ ، إلا أنها سعلت فحسب ،  
ثم أجابت بصوت يُشتمُّ منه أنها تتحدث عن شىء مُهمِّلٍ تافه

- أما عن تلك الأجنبيّة التى تقطن داخل المساكن فلا أعرف عنها شيئاً. لقد أرسلتُ إليها ذات مرة لتعد لى الشاى بعد أن أرهقنى شقيقك بتوسلاته إلى كى أسمح لها بالحضور عندى . ولكننى وجدت أننى لا أستطيع تحمل يديها المرتبكتين غير البارعتين فى تناول الأدوات على نحو سريع ، ونظراتها الهمجية كانت خرقاء تعوزها الرقة معى . وقد أدركت أنها لم تتدرب قط على السلوك القويم مع من يكبرها سنّاً . لن أحاول أن أراها ثانية . إننى تزداد سعادتى حين أتمكن من نسيان الموضوع ، وأتذكر فقط أن ابنى قد عاد ليعيش تحت سقف أسلافه .

أدهشنى أن أذى لم يخبرنى بأنها استُدعيت كى تعد الشاى لوالدتنا . كانت لحظة لها أهميتها ، ولكننى حين قَلَبْتُ الأَمْرَ فى ذهنى اتضح لى أنه تعمّد عدم إخبارى به ، طالما أنها كانت كريمة فى نظر أُمنا ، ولكننى حين تذكرت قلق أذى تجاسرت على أن أسألها المزيد :

- أو أستطيع أن أدعوها لقضاء ساعة في بيتي المتواضع طالما أنها

غريبة هنا ؟

أجابت ببرود .

- كلا ، لقد فعلت ما فيه الكفاية ، لن أسمح لها بالخروج عبر البوابة الضخمة مرة أخرى طوال إقامتها هنا ، يجب أن نتعلم العزلة الجديرة بالسيدات إذا كانت ستعيش هنا .. لا يعني أن تتحدث المدينة بأسرها عن الموضوع .. إننى أدرك أنها جامحة متمردة على القانون ، لا يقيدها شيء ، ويجب أن تُراقب ويُكبح جماحها لتصبح منضبطة لا تتحدثى عنها أبعد من ذلك .

لم يكن لباقي حديثنا أهمية تُذكر ، ورأيت أنها لن تطرق في حديثها شيئاً غير مسائل الحياة اليومية العَرَضية كتمليح الخضراوات للخدم ، وارتفاع أسعار أقمشة ملابس الأطفال ، وأغراس أزهار الأقحوان الواعدة التى زُرعت لتُزهَرَ في الخريف ، ولذا ودَّعْتُها ومضيتُ خارجة .

بيد أننى حين عبرتُ البوابات الصغيرة متجهة إلى الخارج . قابلتُ أختي، كان ذاهباً إلى بوابة البيت الضخمة ليوجه إلى البواب بعض الأسئلة. ولكننى عرفت على الفور أنه كان ينتظر خروجى ، ولما دنوتُ منه نعرسب في وجهه فرأيت حزمًا وتصميمًا جعلاه يبدو غريبًا في عيني . إلا أنهما سرعان ما أفسحا الطريق للحيرة والقلق اللتين تضافرتا مع ملابسهن الصينية ورأسه الخفيض ليبدو ثانية مثل ذلك النلميذ نصف المكتئب الذى كانه قبل أن يذهب بعيدًا .

سألته قبل أن يتحدث .

- كيف حال زوجتك ؟

ارتعشت شفتاه ، وبللها بلسانه ، وقال :

- ليست على ما يرام . أوه يا شقيقتي ! نحن لا نستطيع احتمال هذه الحياة طويلاً ، يتحتم عليّ أن أفعل شيئاً . أرحل بعيداً ، وأبحث عن عمل .  
سكت عن الكلام ، ورحت أستحثة على الصبر قبل أن يقرر الرحيل ،  
والأ يستهن بسماح أمي للأجنبية بالمجيء إلى البيت ، وأن فترة سنة  
ليست بالطويلة .. ولكنه هز رأسه وقال مُثَقلاً مهموماً

- إن زوجتي بدأت نفسها تيبأس ، فهي لم تقنط ولم يهن عزمها حتى  
جئنا إلى هنا ، أمّا الآن فهي تذبل من يوم لآخر .. إنها لا تستسيغ طعامنا ،  
ولا أستطيع أن أدبّر لها طعاماً أجنبياً . وهي لا تأكل شيئاً .. كانت في  
وطنها معتادة على الحرية ، وتلقى هناك الثناء والتقدير . وتعدّ مليحة  
جميلة في بلدها ، وكثير من الرجال قد أحبوا ، وكنت فخوراً مزهواً أن  
أظفر بها من دونهم جميعاً . واعتقدت أن ذلك يثبت تفوق جنسنا .

ثم استطرده قائلاً

- ولكنها الآن تشبه زهرة قُطِفَتْ وَوُضِعَتْ في أنية للزينة ، ولكن دون  
ماء ، وهي تجلس صامتة يوماً بعد يوم ، وعيناها تحترقان في وجهها  
الناصع البياض الذي اعتراه الشحوب .

تعجبت وأنا أسمع شقيقي يعتبر محبة كثير من الرجال لإحدى النساء

مميزة من مزاياها ، وفضيلة من فضائلها . فمثل هذا الثناء والإطراء لا يليق هنا إلا بإحدى بائعات الهوى ، فكيف يتطرق إليها الأمل في أن تصبح واحدة منا في يوم من الأيام ' غير أنه بعد أن تحدّث قفزتُ إلى ذهنى فكرة جديدة ، فسألت في لهف :

– أو ترغب في العودة إلى دَويها؟

هنا رأيت حلًّا ، فهى إذا ذهبت بعيدًا وامتدت البحار بينهما مرة أخرى، فإن أخى مع ذلك ليس إلّا رجل ، سيكف عن التفكير فيها ، وسيعود إلى أداء واجبه ..ولكننى لن أسارع إلى نسيان نظرتة حينما قلت له هذا ، فقد لآح لى أن عينيه تنظران نحوى فى غضب ، وقال فى عنف فجائى .

– لو ذهبت فسأذهب معها ، وإذا ماتت فى بيتى هذا فلن أكون ابناً لوالدىّ إلى الأبد '

أَنبَتَتْ بَرَقَةَ لِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْعَاقَّةِ ، فإِذَا بِهِ لَشِدَّةَ دَهْشَتِي يَنْشَجُ وَيَنْفَجِرُ مَتْنَهْدًا بِأَنْفَاسٍ سَرِيعَةٍ مِتْلَاحِقَةٍ ، ثُمَّ اسْتَدَارَ وَهَرُولَ خَارِجًا .

وقفت هناك لا أكاد أعرف ماذا عساي فاعلة ، إننى أرقب شخصه المنحنى يتراجع إلى المسكن الآخر الذى يقطنه . عندئذ بعد أن مكثت برهة مترددة حائرة ، وفى الواقع نصف خائفة من أمى ، ذهبت فى إثره أنشد اللحاق به .

دخلت لأرى الأجنبية .. كانت تسير بقلق فى الفناء الداخلى لشقة أخى

.. كانت ترتدى زيها الأجنبي مرة أخرى ، ثوبًا مهندمًا ذا لون أزرق قاتم، مفتوحًا من أعلى ليكشف عن عنقها الأبيض العارى . وحملت في يدها كتابًا أجنبيًا مفتوحًا ، مطبوعًا بسطور قصيرة من الحروف الممتدة وسط كل صفحة، في مجموعات صغيرة .

كانت تتجول وهي تقرأ وتقطب جبينها وهي تلتهم السطور بعينيها ، ولكنها حين رأتنى انفرجت أساريرها وهي تبتسم ، ووقفت ساكنة حتى أصبحت بجوارها ، ثم تحدثنا بكلمات قليلة ، كلمات عرضية كيفما اتفق .. إنها تستطيع أن تتحدث الآن جيدًا إذا تكلم معها المرء في موضوعات بسيطة ، وقد رفضت أن أدخل إلى مقر إقامتها ، إذ يجب أن أعود لابنى ، فانتابها الأسف وأشرت إلى شجرة العرعر القديمة ، وهي من الفصيلة الصنوبرية ، الموجودة في الغناء ، وتحدثت عن لعبة كانت تصنعها لابنى من القماش المحشو بالقطن . شكرتها .. ولم يعد هناك ما نقوله . انتظرت، ثم شرعتُ أودعها ، وأنا أشعر بألم غامض ، لأن هناك بحرًا تفصل بيننا ، وليس بوسعى أن أفعل شيئًا لأساعد أختى وأمى .

ولكننى حين استدرتُ لأمضى خارجة ، أمسكتُ بيدي على حين غرة ، وتشبثت بها بشدة ، وهنا نظرتُ إليها ، فرأيت الدموع ترتعد في عينيها ، فَطَوَّحَتْ برأسها في حركة سريعة ، فطفرت الدموع منها وتساقطت . هزَّتنى الشفقة عليها وأنا أهمهم - دون أن أعرف ماذا أقول - عدا وعدى لها بزيارة سريعة ثانية . ارتجفت شفتاها وهي تحاول الابتسام .

\*\*\*

وهكذا مرَّ شهر قمرى آخر ، ثم عاد أبى إلى البيت . ومن الغريب أنه اهتم اهتماماً بالغاً بزوجة أخى ، ومال إليها . قالت « وانج داما » إنه ما إن دخل من البوابة الضخمة حتى سأل عمًا إذا كان أخى قد أحضر الأجنبية إلى البيت ، وحين سمع بحضورها غَيَّرَ ملابسه ، وأرسل بكلمة قائلاً : إنه سيزور شقة أخى حالما ينتهى من تناول طعامه .

دخل بلطف مبتسمًا ، وتقبل انحناءة احترام أخى ، وطلب أن يرى الأجنبية ، وعندما قَدِمَتْ ضَجَّ بالضحك ، وراح يتفحص مظهرها ، وعَلَّقَ بحرية على طلعتها وهيئتها ، وهو طَلَّقَ المحيًّا قائلاً في وُدِّ .

– إنها وسيمة تمامًا ، على طريقتها

ثم أردف

– حسنًا ، حسنًا ، هذا شيء جديد فى الأسرة .. وهل يمكنها أن تتكلم

لغتنا ؟

لقد استاء أخى من حريرته فى الحديث ، وأجاب باقتضاب . إنها

تتعلمها .

أفرط والدى فى الضحك وصاح :-

– لا بأس ، لا بأس .. أظن أن كلمات الحُبِّ لها صوت حلو عذب أيضًا

باللسان الأجنبى .. ها .. ها .. ها !

وانطلق يضحك حتى أخذ جسده البدين يهتز .

أمَّا هى فلم تستطع أن تفهم كل كلماته التى يقولها بطيش ولامبالاة

كدأبه حين يتحدث بصوته القوي العميق ، ولكنَّ الوُدَّ الدافئ الذي أبداهُ لها أوقع في نفسها شعورًا بالرضا والابتهاج ، ولم يستطع أخى أن يخبرها افتقار والده إلى احترامه لها .

وقد نَمَّا إلى أن أبى كثيرًا ما يزورها الآن ويُعابثها ، ويحديق فيها بحرية ، ويُعلِّمها كلمات وتعبيرات جديدة من لغتنا ، وأرسل لها حُلوى ، وفي إحدى المرات شجرة ليمون بحجم يد « بوذا » داخل إناء أخضر مصقول .. ومن ناحية ثانية كان أخى يحرص على أن يكون موجودًا في كل هذه المقابلات

إنها مثل الطفلة ، وهى لا تفهم شيئاً على الإطلاق .

\*\*\*

ذهبتُ لزيارة زوجة أخى مرة أخرى بالأمس ، بعد أن قدمتُ التهنئة لأمى بيوم العيد .. لم أجرؤ على أن أجازف بإثارة استياء أمى وغضبها بأكثر من الزيارات العابرة للأجنبية ، لئلا تمنعنى تماماً من الذهاب إلى شقة أخى .

سألتها

– هل أنتِ أسعدُ حالاً ؟

ابتسمت ابتسامة سريعة أضاءت وجهها المتجهم كشمس تشرق فجأة من خلف سحابة معتمة .

أجابت

- نعم ، ربما ! فالأمور على الأقل لا تسير معنا على نحو أسوأ . لم أرَ  
أمه سوى مرة واحدة حين طلبت منى أن أعد لها الشاي ، ولم يسبق لى  
قط طوال حياتى أن أعددتُ شيئاً بهذه الطريقة ! ولكنَّ أباه يأتى ليرانا كل  
يوم تقريباً .

قلت لها

- سنصبر ، فسيأتى يوم تلين فيه الأم الجليلة المهيبة  
قَساً وجهها على الفور ، وتحدثت بكلمات مركزة قالتها بصوت  
خافت

- ليس الأمر كما لو كنتُ قد فعلتُ شيئاً . لا ريب أنه ليس خطأ أن  
نحب ونتزوج ؟ إنَّ أباه هو الصديق الوحيد لى فى هذا البيت .. إنه ودود  
وشفوق معى ، ويمكننى أن أقول لك إننى بحاجة إلى العطف والحنان !  
ولا أعتقد أننى يمكننى الصمود أكثر من ذلك محبوسة بهذا الشكل !

طوحت بشعرها الأصفر القصير إلى الوراء ، وفجأة أطل الغضب من  
عينيهما ، واكفهرَّ وجهها .. رأيتها تنظر إلى الخارج نحو المساكن الأخرى ،  
فتتبعتها بعينى ، وإذا بها تصيح

- انظرى إلى هناك مرة أخرى ! هاهن . إننى أشبه بمسرحية بالنسبة  
لهؤلاء النساء ! إننى مرهقة وستمت حتى الموت من تحديقهن . لماذا هن  
هناك دائماً يتهامسن ، ويختلسن النظر ، ويُشرن نحوى ؟

أومات برأسها صوب بوابة القمر حين كانت تتحدث . هناك كانت

المحظيات ونصف دسته من الجوارى قد تجمعن عند المدخل . كن يأكلن  
الفول السوداني فى خمول ، ويلقمنه لأطفالهن ، ولكنهن كن يسترقن  
النظر خفية إلى الأجنبية ، واستطعت أن أسمعهن يضحكن . قطبتُ جبينى  
ونظرتُ إليهن بوجه متجهم ، ولكنهن تظاهرن بعدم رؤيتهن لى . وأخيراً  
سحبتنى معها إلى الحجرة ، صفقت ضلقتى الباب الخشبى الثقيل فى  
وجوههن ، وأحكمتُ غلْقَهُ بالمزلاج .

قالت وهى تتقدُّ غضباً .

- لا يمكننى احتمالهن ، ولا أستطيع فهم ما يَقُلْنَهُ ، ولكننى أعرف  
أنهن يتحدثن عنى من الصباح حتى المساء

قلت لتهدئتها

- لا تُعيرهنَّ انتباهاً ، فهن جميعاً جاهلات .

ولكنها هزت رأسها قائلة .

- لا يمكننى أن أحتمل ذلك يوماً بعد يوم .

لكنها قطبت وجهها وصمتت ، وبدا عليها التفكير ، وانتظرت ،  
وجلسنا معاً فى الحجرة الكبيرة المعتمة . وأخيراً تطلعت حولى ، طالما لم  
يكن هناك ما يقال ، ولاحظت التغييرات التى قامت بها لتجعل الحجرة  
على ما اعتقد ذات طابع غربى ، إلا أنها بدت فى عينى شديدة الغرابة .

كانت هناك بضع لوحات عُلِّقَتْ على الجدران بلا نظام ، ومن بينها

بعض الصور الفوتوغرافية داخل إطارات . ولما رأنتى أنظر إليها أشرق  
وجهاً وقالت بشوق

- إنهم والداى وشقيقتى

سألته .

- أليس لك أخ ؟

هزت رأسها ، وتكورت شفتها قليلاً .

- كلا ، ولكن هذا لا يهم ، فنحن لا نهتم بأبنائنا فقط .

تعجبت بعض الشيء من لهجتها ، ولكننى لم أفهمها ، واستويتُ  
واقفة لا تفحص الصور . كانت الأولى صورة رجلٍ عجوز وقور ذى لحية  
قصيرة بيضاء مدبية .. كانت عيناه تشبهان عينيها ، تأثرتين ثقيلتي  
الأجفان . وله أنف شامخ ، ورأسه أصلع

قالت وعيناها مثبتتان بحنان وإعزاز على وجه الرجل العجوز .

- إنه يعمل بمهنة التعليم ، فهو أستاذ فى الكلية التى حدث فيها أول  
لقاء بينى وبين أخيك من الغريب أن يُرى فى هذه الحجرة ، فهو غير  
مناسب هنا . تماماً كما أبدوا أنا أيضاً غير مناسبة .

وأضافت فى صوت خفيض حزين :

- ولكن وجه والدتى هو الذى لا أستطيع أن أحتمل التطلع إليه فى هذه

الأيام !

كانت قد جاءت ووقفت بجانبى بقامتها المديدة التى تفوقنى فى الطول كثيراً، إلا أنها استدرت مبتعدة عن الصورة الثانية ، ورجعت إلى المقعد الذى نهضت منه ، والتقطت قطعة من القماش الأبيض من فوق المنضدة القريبة ، وبدأت فى حياكتها . لم أكن رأيتها قط تمارس الحياكة قبل الآن . وقد وضعت فوق أصبعها قلنسوة معدنية غريبة لا يمكن أن تكون بأى حال مثل « الكستبان » الحقيقى الذى يحيط بالأصبع الوسطى ، وأمسكت بالإبرة كما لو كانت خنجراً . ولكننى لم أقل شيئاً . ذهبت لأتفحص وجه أمها . كان صغيراً ورقيقاً وناعماً حنوناً بطابعه الخاص، على الرغم من أن ملاحظته قد أفسدت طريقة تكتل الشعر الأبيض حوله . أما وجه الشقيقة فهو يشبه وجه أمها بوضوح ، على الرغم من أنه كان صغيراً وضاحكاً . سألتها بلطف

– هل تشتاقيين بشدة لرؤية والدتك ؟

ولكننى دهشت حين هزت رأسها وقالت بطريقتها المفاجئة القاطعة :

– كلا ، بل لا أستطيع حتى أن أكتب إليها

سألت متعجبة :

– لماذا ؟

– لأننى أخشى أن يتحقق كل ما كانت تخاف أن يحدث لى .. ولا أودُّ

لها البتة أن ترانى على الحال التى أعيشها هنا ! وهى تعرفنى جيداً ،

ستدرك بوضوح ما أعانيه إذا كتبت إليها . لم أكتب لها على الإطلاق منذ  
أن أتيتُ إلى هذا المكان .

ثم استرسلت :

- أوه ، هناك في بلادى بدًا كل شيء مدهشًا .. فقد اعتقدت شقيقتى  
الصغرى أن حبنا هو أكمل رومانسية يمكن تخيلها . والنسبة لى  
فإنك لا تعرفين كم كان مُحبًا مثاليًا . فقد اعتاد أن يقول أشياء بطريقة  
يبدو معها العزّل والحب الذى يبثه أى رجل آخر مملًا تافهًا ميتذلاً . كان  
عزّلُه يبدو جديدًا . غير أن أمى كانت دائمًا متخوفة !

سألتها مشدوهة .

- ما الذى كانت تخشاه؟

- ألا أكون سعيدة بذهابى هكذا بعيدًا .. وألا يتقبلنى أهله .. أو لعلمهم  
يفعلون شيئًا يودى إلى إخفاق الموضوع بأكمله . إننى أشعر بأن كل  
شء يسير على نحو خاطيء مغلوط ، ربما ! فأنا لا أعرف .. ولكن يبدو  
لى أن شبكة تتجمّع لتلتف حولى . إننى وأنا أعيش محبوسة خلف هذه  
الأسوار العالية أتخيل أشياء عدة .. لا يمكننى فهم ما يقوله هؤلاء  
الناس .. لا أعرف ماذا يضمرون .. إن وجوههم لا تفصح عن شيء ،  
ويعترينى الخوف ليلاً .

واستطردت قائلة

- ثم إننى أحيانًا أظن أن وجهه يُحاكى وجوههم ، ناعمًا جامدًا كما

لو كان يضع عليه قناعاً لا يكشف عمّا يعتمل داخله من مشاعر . أمّا هناك في بلادى فكان يبدو كواحد منا ، بل وكان أكثر سحرًا ، ويمتاز بفتنة جديدة لم أرها قط من قبل ولكنه يبدو هنا ينسلُّ عائداً القهقري ، وجانحاً إلى الغرابة .. إنه يفلت من بين يديّ بعيداً . أوه ، إننى لا أعرف كيف أعبّر عن ذلك ! لقد اعتدت دائماً على الصراحة والمرح ، وأن أتحدث في صدق بكلام مباشر مستقيم وهنا أجد الصمت المطبّق ، والانحناء ، والعيون المتلصصة تزحف نحوى . ربما أستطيع أن أتحمّل سلبيّ حريتي بهذا الشكل إذا عرفتُ ماذا وراء كل ذلك . ولكن . أو تعرفين أننى قد أخبرته هناك في وطنى أنه يمكننى أن أصبح صينية ، أو « هونتونية » ، أو أى شىء من أجله بيد أننى لا أستطيع ، لا أستطيع ! إننى سأظل أمريكية على الدوام !

لقد انهمر كل هذا ، واندفع متدفقاً ، نصفه بلغتها ، ونصفه بالقليل الذى تعرفه من لغتنا ، وكان حاجباها يلتويان ، ويدها تتحركان ، ووجهها مكفهرًا .. لم أحلم قط أن يكون فى جعبتها كل هذا الحديث لقد صبّته كما تنفجر المياه وتتدفق فجأة من إحدى الصخور الصماء . أصابنى ارتباك شديد ، لأننى لم أر قط قلب امرأة عارياً هكذا ، ومع ذلك فقد هزنى نوع من الشفقة الغامضة تجاوباً معها .

وبينما كنت أفكر فيما أقوله لها إذ دخل أخى من حجرتة المجاورة لنا ، كما لو كان سمع كل ما قيل ، وإذا به يتجاهلنى ، ومضى إليها ، وتناول يديها اللينى كانتا مشغولتين بالتطريز ، وركع إلى جانبها وهو ما زال

ممسكًا بيديها ، وراح يضغطهما على وجنتيه . ثم رفعهما فوق عينيه ونكس رأسه . ترددتُ ، فقد كنت لا أدري هل أذهب أو أبقى . تم نظر إليها بوجه أضناه القلق . وهمس بصوت أجش .

- ماري ، ماري ، لم أسمعك قط تتحدثين هكذا ! هل تشكين في حقِّه ؟ لقد قُلْتِ لي في بلدك إنكِ ستأخذين جنسى وقوميتي وتشاركينني إياهما . حسناً إذا كان ذلك مستحيلاً في نهاية ذلك العام ، فسنترك كل شيء خلفنا، وسأصبح أمريكياً معك ، فإذا تعذَّر هذا فسنجد دولة جديدة ، وجنساً جديداً في مكان ما ، حتى يمكننا أن نكون معاً يجب ألا ترتابى فيَّ يا حُبِّي !

لقد فهمتُ كثيراً مما قاله ، لأنه تحدث بلغته الأصلية ليعبر عمّا يجيش في نفسه بمزيد من الحرية ، ثم بدأ يتمم إليها بلغة أخرى ، ولا أعرف ماذا قال لها ، ولكنها ابتسمت ، ورأيت أنها تستطيع تحمُّل الكثير من أجله . أحنت رأسها حتى استكانت فوق كتفه ، وغابا في صمت خفق خلاله قلباهما . خجلت من أن أطيل بقائي أمام هذا المشهد من الحب المكشوف

لذا تسللت خارجة بهدوء ، متذرعة بتعنيف الجوارى اللاتي كن يختلسن النظر إليها من خلال البوابة . ومن الطبيعي أنني لم أستطع أن أوبخ محظيات أبي ، إلا أنني تعمدتُ أن أتحدث إلى الجوارى على مسمع منهن ، وهن لسن أكثر من خاويات جاهلات ، بل وفضوليات صفيقات .

وقد قالت المحظية البدينة وهى تمضغ بصوت عال ، وتتلمظ بشدة  
أمام كعكة ذات نكهة شهية .

- أئى امرىء ذى مظهر ساخر وهمجى يجب أن يتوقع تحديق الـ  
فيه، بل وضحكهم عليه أيضاً !

فقلت بقسوة وصرامة على قدر ما أمكننى

- ومع ذلك فإنها إنسانة ، ولها أحاسيس مثل أحاسيسنا .

غير أن السيدة الثانية هزت كتفيها وهى تلوك الطعام فى فد  
وتمسح أصابعها فى كم رداؤها

خرجتُ غاضبةً ، حتى أصبحتُ على مقربة من بيتى قبل أن أدر  
غضبى كان بأكمله من أجل زوجة أذى ، وليس ضدها .

\* \* \*

والآن يا أختاه ، لقد حدث ما كنا لا نرغب فيه .. فقد حملت  
أدركت ذلك منذ عدة أيام قبل أن تخبر به أذى بطريقتها الأجنبية الـ  
المتحفظة . وما إن أبلغته بهذا حتى أخبرنى به الآن .

وهذا شىء لا يبعث على الابتهاج ، وحين سمعتُ به أذى حملو  
فراشها ، ولم تعد قادرة على النهوض من فرط أساها ، فهذا ما  
تخشاه وترتعب منه ، ولم يعد جسمها الضعيف يستطيع أن يصمد  
خيبة الأمل هذه ، إنك تعلمين كيف كانت ترغب فى أن تكون أولى  
للأسرة من لحم أذى . والآن لما كان ذلك لن يتحقق ، فهى تعتق

الفضيلة قد غادرته من أجل لا شيء ، لأن ذلك الصبر من المسحيل أن  
تعتبره حفيداً لها .

عندئذ ذهبت لزيارة أمى ، فوجدتها مستلقية على فراشها دون حراك .  
كانت عيناها مغلقتين ، وفتحتهما برهة فقط لترانى قبل أن تغلقهما ثانية .  
جلستُ إلى جوارها بهدوء ، وانتظرتُ فى صمت . وفجأة تغير وجهها كما  
حدث فى يوم سابق ، فبدا مرهقاً منطفئاً ساكناً بلون الرماد المفزع ،  
وبدأتُ تتنفس بمشقة .

أصابنى الرعب ، وصفقت استدعى إحدى الجوارى ، فجاءت « وانج  
دا ما » نفسها وهى تعدو حاملة غليوتاً من الأفيون مشتعلاً ، تتصاعد  
منه سُحُب الدخان . أمسكت به أمى وراحت تدخن يائسة ، فسكن ألمها

ولكننى حين رأيتُ ذلك شعرت بعدم ارتياح ، فمن الواضح أن الألم  
كان مألوفاً حيث كان غليون الأفيون مُعداً ، والمصباح مشتعلاً . وحين  
هممتُ بالتحدث عن هذا ، فمنعتنى أمى قائلة بحدّة

– هذا لا شيء . لا تُزعجيني .

لم تقل شيئاً أكثر من ذلك . وبعد أن بقيت إلى جوارها قليلاً ، انحنيتُ  
وخرجتُ . ولما مررت خلال مقر الخدم ، سألت « وانج دا ما » بخصوص  
أمى ، فهزت رأسها :

– إن السيدة الأولى تعانى بهذا الشكل كل يوم عدة مرات تزيد على  
عدد أصابع اليدين . كان الألم عرضياً لسنين طويلة ، غير أنك تعرفين

أنها لن تبوح بشيء من شئونها الخاصة ، ولكنها بتأثير أحزان هذا العام  
أصبح الألم مستمرًا . إنى أحرص أن أكون على مقربة منها على الدوام ،  
فأرى وجهها حين يتحول إلى اللون الرمادى ، وعندما ينتفض ألمًا فى مطلع  
الفجر حينما أقدم لها الشاي . غير أن بعض الأمل قد ساندها على تحمُّل  
الألم حتى الأيام القلائل الأخيرة . أمّا الآن فقد انهارت كشجرة اجْتُثَّتْ  
آخر جذر فيها بضربة فأس قاطعة

أمسكتُ أمى بطرف مريلتها الزرقاء ، ومسحتُ عينيها ، ثم تنهدت .

آه ، إننى أعرف الأمل الذى قَوَّى من احتمال أمى ١ ولم أقل شيئًا ،  
ولكننى عُدْتُ إلى بيتى وبكىْتُ ، وأخبرت زوجى ، وتوسلت إليه أن يذهب  
معى لنراها ، بيد أنه نصحنى بأن أنتظر ، وقال .

- إذا أكرهت أو أُغضبتُ فستزداد حالتها سوءًا ، وعندما يجيء  
الوقت المناسب توسِّلى إليها كى ترى طبيبًا ، ولن تكون عليكِ مسئولية  
أكثر من ذلك نحو شخص بلغ من الكبر عتياً .

إننى أعرف أنه على حق دائمًا ، ولكننى لا أستطيع أن أطرح جانبًا  
إحساسى بنذير الشر

\*\*\*

يبدو أن والدى سرَّه أن الأجنبية ستلد طفلًا وها هو ذا يصيح عندما  
سمع بذلك

- آه ، ها ! الآن سيكون لنا أجنبيٌ صغيرٌ لنلعب معه ! هاى .. يا ! لعبة جديدة لاشك ! سندعوه المهرج الصغير ، وسوف يُسلينا !  
دمدم أخى متذمرًا من هذه الكلمات .. لقد بدأ يكره والدنا من أعماقه ،  
واستطعتُ أن أرى ذلك .

أما الأجنبية فقد تخلّت عن الحزن ، وزايلها اليأس .. وعندما ذهبت لرؤيتها كانت تغنى بلحن أجنبى غريب ، ولما سألتها عن معناه ، قلت إنها أغنية تجلب النعاس للطفل .. تعجبتُ ، كيف يمكن أن يهدأ الطفل وينام لدى سماعها !<sup>٩</sup> يبدو أنها نسيت ما كشفته لى عن تعاستها فى ذلك اليوم وهى وأخى قد جدّدا حُبهما ، ولم يعد الآن أى مكان فى عقلها لغير الطفل القادم .

إننى أتشوّ من أعماق قلبى لرؤية هذا الطفل الأجنبى ، لا يمكن أن يكون جماله مضارعًا لجمال ابنى ، قد تكون طفلة ، وربما سيكون لها شعر أمها الأصفر المتوهج . آه ، يا لأخى المسكين ! إنه تعيس مُحَبَّب ! هناك الآن طفل سيولد ، فأصبح أخى أكثر تلهفًا من أى وقت مضى على إثبات المكانة الشرعية لزوجته ، وهو يُلمحُ يوميًا إلى والدنا بهذا الموضوع ، ولكن أبانا يتملص منه بالابتسام ، والحديث المتمهل عن أشياء أخرى .

وفى اليوم الثانى من العيد قال أخى إنه سيلج على ذلك الأمر أمام رجال العشيرة فى قاعة الأسلاف قبالة لوحاتهم المقدسة ، حتى يولد الطفل شرعيًا كابنه البكر ، ومن الطبيعى إذا جاءت بنتًا فالأمر لن يكون ذا أهمية ، ولكننا لا نستطيع أن نتبيّن شيئًا من المستقبل

إننا الآن في الشهر القمري الحادى عشر من العام . الثلج يكسو الأرض ، يجثم ثقیلاً على أعواد الخيزران فى الحديقة ، فتبدو كبحر ندى موجات بيضاء يعلوها الرّبد حين تحركها الرياح بلطف . نالت زوجة أخی شهرة بالطفل الذى تحمله فى أحشائها ، ففى بيت أمى هناك إحساس ثقيل بالانتظار . إننى أسأل نفسى يومياً . لماذا ؟

حين نهضت من فراشى هذا اليوم رأيت الأشجار عارية ، واسودّت تحت سماء رمادية شتوية عاصفة . استيقظت فجأة وأنا أشعر بالخوف كما لو كنت أصحو من حلم مشئوم كرهه ، ومع ذلك فحين اختبرت ذاكرتى اكتشفتُ أننى لم أحلم بشىء . ترى ما معنى حياتنا ؟ إنها فى أيدى الآلهة ، ونحن لا نعرف شيئاً سوى الخوف

حاولتُ أن أتبين لماذا أنا خائفة ؟ هل من أجل ابنى ؟ ولكنه أسد صغير فى قوته ، وهو يتحدث الآن كملك يحكم العالم . لا أحد يجروُ على عدم طاعته ضاحكاً غير أبيه ، أمّا بالنسبة لى ، فأنا جاريتها ، وهو يعرف ذلك . يا للخبيث ! إنه يعرف كل شىء . كلاً إن خوفى لا يرجع إلى ابنى .

غير أننى مهما حاولتُ أن أتعقل الأمر فلا يمكننى أن أطرح قلقى جانباً، أو إحساسى الغريزى بالشر الذى سينقض علينا من السماء مستقبلاً، إننى أنتظر أن تعلنه الآلهة ، إننى متأكدة من مقصدهم المملوء بالحقد والغل . أیكون ابنى برغم كل شىء هو الهدف ؟ إننى مازلت نصف خائفة بعد أن طوّحنا بالقرط بعيداً .

وها هو ذا والده يضحك ، صحيح أنه سليم من رأسه إلى قدمه ،

وشهيته تكفى لإثارة دهشتى .. إنه الآن يدفع ثديى بعيداً عنه ، ويطلب الأرز والعودين اللذين يتناوله بهما ثلاث مرات يومياً . لقد فطمته عن الرضاع ، وهو رجل. أه ، لا يوجد من يماثل ابنى فى قوته ا

ازدادت أمى ضعفاً . وكم وددت ألا يرحل أبى ، فحينما أصبح أذى مزعجاً بإلحاحه من أجل زوجته ، وجد والدى ما يشغله من أعمال تجارية بإلحاحه من أجل زوجته ، وجدو والدى ما يشغله من أعمال تجارية فى «تينتسين» فتغيب شهوراً عدة ، أمّا الآن حين غدا الشمر معلقاً فوق بيته فيجب أن يعود . إنه لا يهتم بشىء سوى مسراته ، كعادته دائماً، ولكنه يجب أن يتذكر أنه ممثل أسرته أمام السماء .

ومع ذلك فلا أجرؤ على الكتابة إليه، فأنا مجرد امرأة تستحوذ عليها مخاوف النساء ، قد لا يكون هناك شىء ، ولكن إذا لم يكن هناك شىء فلماذا يصدق بنا هذا التوقع القاسى الذى ننتظره يوماً بعد يوم ؟

لقد أخذتُ بعضَ أعواد البخور وأحرقتها أمام الإلهة « كوان - ين » سرّاً ، مخافة أن يضحك زوجى منى . قد يكون سائغاً ألا نعتقد فى الآلهة حينما لا تكون هناك مشكلة تدنو منا ، ولكن إذا رفرِف الحزن بأجنحته السود فوق أحد البيوت فبمن نستغيث ؟ لقد صليتُ لها قبل أن يُولد طفلى فسمعتنى واستجابت لى .

\*\*\*

هذا اليوم يعلن بداية الشهر القمري الثانى عشر . إن أمى ترقد فى

فراشها ساكنة بلا حراك ، وقد بدأت أخشى عليها ألا تستطيع أبدًا النهوض منه. توسلتُ إليها أن تستدعى الألباء ، فوافقت في النهاية ، وأخاف أن يكون ذلك نتيجة تعبها منى فاستقدمت « تشانج » الطبيب الشهير ، والمشتغل بعلم التنجيم الذائع الصيت ليعنى بها ودفعت له أربعين أوقية من الفضة ، وقد وعدها بالشفاء . وأثلج صدرى حين قال هذا ، حيث يعرف الجميع أنه حكيم

ولكننى تعجبت متى تحل ساعة الفرج والتماثل للشفاء .. إنها تدخن الأفيون المحشو به غليونها على نحو متواصل لتقضى على الألم في أعضائها الحيوية ، وهى فى حالة نعاس لا يمكّنها من الحديث ، ووجهها أصفر باهت، وجلدها مشدود فوق العظام حتى أصبح جافًا ، وله ملمس الورق الرقيق .

التمستُ منها أن ترى زوجى لعله يحاول علاجها بالأدوية الغربية ، ولكنها أبت . وتمتت بأنها كانت شابة ، والآن صارت عجوزًا ، ولكنها لن تستطيع أبدًا احتمال الطرق والأساليب التى يتبعها الهمجيون . أمّا زوجى فهو يهز رأسه حين أُحدّثه عن أمى ، وإنى لأرى أنه يعتقد أنها قَابَ قَوْسَيْنِ أو أدنى من دخول ظُلْمَةِ الموت .

آه يا أمى ! يا أمى !

\*\*\*

أخى لا ينبس ببنت شفة من الصباح حتى الليل ، فهو يجلس فى

سكينة مستغرقةً في التفكير داخل شقته الخاصة ، محدقاً بعينه ، مقطباً جبينه ، وحين ينتبه من أعماق ذاته فإنما ليعبر فقط عن نوبة مسعورة من الحب والحنان نحو زوجته .. لقد صارا يعيشان في وجود خاص بهما، في عالم يقيما فيه وحدهما مع طفلهما الذي لم يُولد بعد

وقد قام بوضع حاجز من عصى الخيزران المجدولة على بوابة القمر حتى لا تتمكن النساء الخاملات من استراق النظر إليها

وعندما أتحدث معه عن والدتنا يتصامم غير راغب في الإصغاء .  
وينطلق قائلاً المرة تلو المرة كطفل غاضب

- لن أستطيع أن أسامحها .. لن أستطيع أن أسامحها !

لم يسبق قط طوال حياته أن رُفض له أى شىء ، وهو الآن لا يمكنه أن يسامح أمه !

وظل عدة أسابيع لا يذهب ليراها ، ولكنه أخيراً تأثر قليلاً بمخاوفي وتوسلاتى ، فمضى معى ووقف بجوار فراشها ، وظل واقفاً في صمت عنيد، رافضاً أن يُحييها . نظر إليها ، وفتحت عينيها وتطلعت إليه بثبات دون أن تنطق بكلمة .

ومع ذلك ، فحين انسحبنا معاً من حضرتها ، وعلى الرغم من أنه لم يتحدث عنها حتى معى ، فإننى لاحظتُ أن وجهها المريض قد هزه . كان يشك في أن هناك قراراً مريراً ستتخذه ضده هو الذى جعلها تُلَازِم

حجرتها، ولكنه أدرك الآن أنها مريضة على نحو مُميت ، ولذا فإنه صار بعد ذلك يذهب كل يوم كما أخبرتني « وانج دا ما » ، ويحمل إناء الشاي بكلتا يديه ويقدمه بنفسه لأمه ، دون كلام .

كانت تشكره أحياناً بصوت واهنٍ ، وفيما عدا ذلك لم يكن لديهما ما يقولانه بعد أن صار معروفاً أن زوجته تحمل في أحشائها طفلاً  
بعث أخى برسالة إلى والدنا ، وسيحضر غداً .

\*\*\*

لم تتحدث أُمى منذ عدة أيام ، وترقد مستغرقة في نوم عميق لم يسبق أن رأينا مثله قط . هز الطبيب « تشانج » كتفيه ، ومد يديه قائلاً :

- إذا قضت السماء بالموت ، فَمَنْ أنا لأمنع قضاءً علويّاً ؟

تناول أجره من الفضة ، ودفع يديه في كُمَيْهِ وانصرف . وحين مضى إلى حال سبيله ، هرولتُ إلى زوجي والتمستُ منه أن يأتي ليرى أُمى .  
وأنها الآن لا ترى شيئاً مما يجري حولها ، ولن تعرف ما إذا كان قد جاء أم لا . رفض في أول الأمر ، إلا أنه عندما رأى مدى خوفي عليها جاء كارهاً ، ووقف بجانب فراشها ، وكانت هذه أول مرة يرى فيها أُمى .

لم أره قط بمثل تلك الحالة من التأثر .. أطلال النظر إليها ، ثم ارتجف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وخرج مسرعاً . ذهلتُ ، خشية أن يكون مريضاً ، ولكنني حين سألته اكتفى بقوله :

- سبق السيفُ العَدَلُ .. سَبَقَ السيفُ العَدَلَ (١) .

ثم استدار نحوى فجأة وهو يصيح .

- إنها شديدة الشبه بك ، حتى خِلْتُ أَنَّ وجهك قد استلقى هناك وقد

فارقته الحياة !

وبكىنا معًا .

\*\*\*

إننى الآن أذهب إلى المعبد يوميًا ، حيث لم أعد أتوجه إلى هناك إلا نادرًا منذ أن وُلد ابنى ، وحين اكتحلت عيناى به لم يعد لى ما أريده من الآلهة، لذا فهم غضبوا لسعادتى ، عاقبوني من خلال أمى المحبوبة إننى أذهب إلى إله العمر الطويل . وأقدم أمامه قرابين من اللحم والنبيد . وقد نذرت للمعبد مائة حلقة من الفضة إذا أَبَلَّتْ أُمِّي من مرضها ولكن الإله لم يستجب لى . إنه يجلس بلا حراك خلف ستارته . ولست أعرف ما إذا كان يتقبل قرابينى أم لا .

من تحت حياتنا جميعًا تتأمر علينا هذه الآلهة من وراء الحجاب .

\*\*\*

آه يا أختاه ! لقد تحدثت الآلهة أخيرًا ، وأبانوا لنا عن ولعهم بالأذى ! انظرى ! إننى أرتدى كساءً من الخيش ! الأبيض الخشن ! من أجلها .. من

---

(١) مَثَلٌ يُضْرَبُ لِمَا قَدَفَاتِ وَلَا يُسْتَدْرَكُ .

أجل أمى آاه يا أمى ، يا أمى !. لا تمنعيني من البكاء .. يجب أن أبكى الآن .. لأنها قد ماتت!

كنتُ قد جلستُ معها وحدى فى منتصف الليل وكانت ترقد - كما استلقت طوال هذه الأيام العشرة - كأنها قطعة من البرونز . لا تتحرك .. لم تتكلم ولم تأكل .. لقد سمعتُ روحها فى ذلك الحين نداءً الأصوات العلوية ، ولم يبق لها سوى قلبها القوى ينبض بوهن فى سكون .

و حين أطلت ساعة ما قبل الفجر ، رأيتُ فى خوف مفاجئ أن هناك تغيراً ألم بها ، فصفتُ بيديّ ، وأرسلتُ الجارية التى كانت تؤدى الخدمة ليلاً إلى أخى كان يجلس فى الحجرة الخارجية مستعداً فى انتظار استدعائى له .. وحين جاء نظر إليها وهمس وهو نصف خائف .

- لقد حل التغير الأخير . لنرسل أحدهم إلى أبينا .

أشار إلى « وانج دا ما » التى كانت تقف بجانب الفراش تكفكف دموعها ، فانسحبت لتنفذ ما أمرها به . وقفنا ننتظر وقد تشابكت أيدينا ، وطفقنا نبكى فى رهبة .

وعلى حين عرة بدا أن أمى تحاول النهوض ، أدارتُ رأسها وحدقتُ فينا ، ورفعت ذراعيها ببطء كما لو كانتا تنوعان بحملٍ ثقيل ، وتنهدت بعمق مرّتين ، ثم سقط ذراعاها ، وفاضت روحها فى صمت كما كانت فى حياتها دون أن تبوح بشيء .

وعندما دخل والدنا وهو ما زال نصف نائم ، وأثوابه ملقاة بسرعة

حول جسده - أخبرناه .. وقف قبالتها يحدق فيها خائفاً .. فلطالما كان  
يخشاه في قلبه .. وشرع الآن يبكي ، وانهمرت دموعه كطفلٍ ، وصرخ  
بصوت عالٍ .

- زوجة فاضلة .. زوجة فاضلة !

قاده أخی بلطف بعيداً ، وأخذ يُهدئه وهو يطلب من « وانج دا ما » أن  
تحضر نبيذاً ليخفف عنه ، وليجد فيه سلوى وعزاء .

ثم تُرِكَتُ وحدى مع أمى ، فنظرتُ ثانية إلى الوجه الصامت المتيسس ،  
وكنتُ الوحيدة التى طالما رأيتها على حقيقتها ، وانصهر قلبى فى دموع  
حارة ملتهبه . وأخيراً أسدلتُ الستائر عليها ، وأغلقتُ الباب ، وتركتها  
للوحدى التى عاشت فيها .

أمّاه . آه يا أمى !

\*\*\*

عطرنا جسدها بزيت زهور « الأَقْنُثَا » ، وطوقناها بلفة تلو اللفة من  
الشاش الحريرى الأصفر . ووسدناها فى أحد تابوتين كبيرين صنعا من  
جذوع أشجار الكافور الضخمة ، وكانا قد أعدنا لها ولأبى منذ سنين  
عديدة حين مات جدى وجدتى .. ووضعنا حجر « اليشب » المقدس فوق  
عينيهما المغلقتين .

أحکمنا الآن إغلاق التابوت الكبير ، واستدعينا ضارب الرمل بغية  
التكهن وكشف الغيب ، واستشرناه ليدلنا على اليوم السادس من الشهر

القمرى السادس من العام الجديد .

عندئذ استدعينا الكهنة فجاءوا مرتدين ثياباً قرمزية وصفراء طبقاً  
لشعائرتهم وطقوسهم الدينية وفى موكب جليل مهيب بمصاحبة  
موسيقى حزينة معزوفة على المزامير ، أوصلناها إلى المعبد انتظاراً ليوم  
الدفن.

إنها ترقد هناك تحت أعين الآلهة فى صمت وغبار القرون . ليس ثمة  
صوت يعكر صفو نومها الطويل ، هناك فقط الأناشيد الخافتة التى يترنم  
بها الكهنة على الدوام فى الفجر فى حُمرَة الأفق عند غروب الشمس ، ورنين  
جرس المعبد الذى يدق على فترات متباعدة خلال الليل .

إنى لا أستطيع أن أفكر فى أَحَدٍ غيرها



الفصل العاشر

# 10

أمنَ الممكن أن تكون أربعة أشهر قمرية قد افترقنا فيها يا أختاه<sup>١</sup> إننى أضع فى شعرى سريط الحداد الابيض من أجلها ، تلك الأم العريقة . ولو أننى أعيش حياتى . إلا أننى لم أعد كما كنت لقد فصلتنى الآلهة من منبعى . من اللحم الذى صاغ لحمى ، والعظم الذى صنعت منه عظامى ، وسأظل أنزف على الدوام عند موضع الاتصال .

غير أننى أتأمل الأمر وأفكر فيه ملياً . لما كانت السماء لم تُلبَّ رغبة أمى الكبرى ، فهل كان من كرم الآلهة ومحبتهم لها أن نقلوها من عالم متغير لم يكن باستطاعتها أن تدركه قط<sup>٢</sup> لقد بلغت من العمر أرذله ، فكيف يمكنها أن تحتل ما سيجىء ؟ سأخبرك بكل شىء يا أختاه

لم يكد موكب الجنازة يمر عبر البوابة العظمى أمام المحظيات حتى بدأن يتشاجرن فيما بينهن حول من ستكون الأولى . لقد تآقت كل واحدة فى أن تكون السيدة الأولى مكان أمى ، مشتبهة أن ترندى الملابس السمراء ، التى لم يكن مسموح لهن كزوجات صغيرات أن يتدثرن بها وكانت كل

مسهن توّد أن تحظى بامتياز أن تُحمّل عبر البوابة العظمى حين تموت ،  
لأنك كما تعلمين يا أختاه ، أن جثمان المحظية داخل تابوتها يمر فقط من  
خلال بوابة جانبية ، وكل واحدة من هؤلاء الحمقاوات راحت تتزين من  
جديد لتظفر مرة أخرى بنظرات أبى .

أَوْ قَدْتُ كل واحدة « لقد نسيتُ تلك الأخرى ، « لا - ماى »

كل هذه الشهور التى طالت الآن إلى أعوام ، كانت تقيم فى ضياع  
الأسرة فى الريف ، وتحت وطأة الحزن الذى انتابنا ساعة موت أمى ،  
نسينا أن نكتب إليها .. وقد مرت عشرة أيام قبل أن يحمل خادم أبى كلمة  
إليها .. نعم فقد عاشت فعلاً وحدها هناك دون أن يكون معها أحد سوى  
ابنها والخادمات ، منذ أن تردد أن أبى سيتخذ محظية جديدة بالإضافة  
إليها ، وصحيح أنه لم يقدم على ذلك ، لأن رغبته فى المرأة التى أراد  
إضافتها كمحظية قد تضاءلت قبل المضى فى الترتيبات النهائية ، إذ قرر  
أنها لا تستحق كمية الأموال التى طلبتها أسرتها من أجلها ، غير أن « لا -  
ماى » لم تستطع أن تنسى أنه رغب فى غيرها ، وهى لم تعد إليه إطلاقاً ،  
ولما كان يكره الريف ، فقد عرفت أنه لن يذهب إليها هناك .

ولكنها حين سمعت بوفاة أمى جاءت على الفور ، وذهبت إلى المعبد  
حيث يرقد جثمان أمى ، وألقت بنفسها على التابوت ، وذرفت دموعها فى  
صمت طوال ثلاثة أيام دون طعام . وعندما أخبرتنى « وانج داما » بهذا  
مضيتُ إليها ورفعتها بذراعى ، واصطحبتها إلى بيتى .

لقد تغيرت حقاً . فقد زایلتها ضحكاتها وحيويتها ، ولم تعد ترتدى  
الحرير الزاهى ، وكَفَّتْ عن صبغ شفثيها اللتين أصبحنا ناحلتين باهتتين  
في وجهها الشاحب .. إنها تجلس مكتئبة في هدوء وصمت ، ولكنها ظلت  
محتفظة بترفها القديم ونظرتها الساخرة . وحين سمعت بتنازع  
المحظيات فيما بينهن تكورت شفثاها في هزة وازدراء ، وهى وحدها التى  
لا تبالى ولا تهتم بأن تكون السيدة الأولى .

وهى تتجنب ذِكْرَ أى شىء عن أبى . وقد سمعتُ أنها آلت على نفسها  
أن تتناول سُمًّا إذا عَنَّ له أن يقترب منها مرة أخرى . وهكذا تخنَّرتُ حبها في  
داخلها كما يتخثر اللبن ، وتحول إلى كراهية .

وعندما سمعت عن زوجة أخى الأجنبية لأذتُ بالصمت ، كأنها لم  
تسمع شيئاً ممَّا قُلْتَه ، ولما حدثتها بذلك ثانية ، استمعت ببرود ، وقالت  
بصوت خفيض حاد كالتلج .

- إنها محاولة كبرى لإثارة الشعور العام فيما يتصل بشىء سبق أن  
قررتَه الطبعة . هل يستطيع ابن مثل ذلك الأب أن يكون مخلصاً ؟ إنه  
الآن بكل كيانه في غمرة رغبته الجنسية .. إننى أعرف ماذا يعنى ذلك ..  
ولكن انتظرى حتى يُولد ابنها ويتمزق جمالها كما يتمزق غلاف أحد  
الكتب . هل يدور في خلدها أنه سيهتم بقراءة الكتاب حينئذ ؟ حتى لو لم  
تتحدث صفحاته بشىء سوى حبها له ؟

ولم تهتم بأكثر من ذلك ، ولم تتحدث عن أبى بأى كلمة في أثناء الأيام

الأربعة التي قضتها في بيتي ، لقد مات كل ما كان تمتلئ به جوانحها من مَرَحٍ وابتهاجٍ وتوقٍ إلى الحب .. إنها الآن غاضبة فقط ، دائماً غاضبة من كل شيء ، غير أن غضبها لا حرارة فيه ، فهو بارد لا مبرر له ، وليس هنا ما يدعو إليه ، مثل غضب الأفعى المتختم بالسم . لقد ارتعبتُ منها أحياناً ، وأخبرت زوجي بما كان منها بعد أن رحلت ، ووضعتُ يدي في يده أمسك يديّ بكلتا يديه فترة طويلة ، وأخيراً قال .

- إنها امرأة ساخرة . وفي ظل عاداتنا القديمة لم تلق المرأة اعتباراً لائقاً ، وكان يستخفُّ بها ، وهي لم تكن من اللواتي يحببن بسهولة ويتحملن نزع سهامه .

ما أفضع الحب إذا لم يستطع أن يتدفق عذباً نقياً ، نصيراً قوياً ، فيأضاً، من قلب إلى قلب !

ومن جهة « لا - ماى » فقد عادت إلى الريف بعد انتهاء فترة الحداد على أمي .

\*\*\*

أما بالنسبة للمحظيات الأخريات فلم يكن من المستطاع اتخاذ قرار بشأنهن حتى يعترف بزوجة أخى ، حيث إن زوجته الشرعية هي الأحق طبيعياً بأخذ مكان والدته كسيدة أولى .

ولكن هناك مسألة أصبحت الآن أكثر إلحاحاً لأن بيت « لى » الذى ما زال أخى خطيباً لابنته بدأ يبعث بالرسائل يومياً تقريباً مع الوسطاء يستحثنا على إنجاز الزواج فوراً .

من الطبيعي أن أخى لم يخبر الأجنبية بذلك ، ولكننى عرفت الأمر ، ففهمت عندئذ لماذا أصبح وجهه مُنْهَكًا ، وازداد قلقه حين أطبقت عليه هذه التعقيدات ، وأحدقت به . وكان أبى يستقبل الوسطاء ، فى حين أن أخى لم يرههم فى الواقع ، لم يستمع إلى كلماتهم . أمًا والذى فلم يكف عن ترديد ما قالوه بلا مبالاة وهو يضحج بالضحك .

ومنذ وفاة والدتنا جدد أخى والأجنبية ما بينهما من حب . وكان ذا فى حد ذاته أشبه بسكين مرهف النصل سُدد إلى أعضاء أخى الحيوية - كالدماغ والقلب - والتوى فيها ، فاجتث كل حديث عن أى زواج آخر وعلى الرغم من أن الأجنبية لم تحب أمى فإنها مع ذلك - حين أنبأ أخى نفسه فى النهاية لأنه كان فظًا غليظًا مع أمه إبَّان مرضها وضعفها ، وحين طفق يديق صدره عندما اعتقد أنه عجل بنهايتها كانت ( أى زوجته الأجنبية ) تصغى إليه بأناة متعاطفة معه ، وتُعامله بفيض من الرقة والحنان

كانت تستمع إلى ندمه ، وتحول أفكاره بلطف إلى مجيء الطفل ، ونحو المستقبل إنها حكيمة إن امرأة غيرها ذات أفق ضيق كانت تمتعض مستاءة من نواحه وتفجُّعه على أمه. ولكن الأجنبية حين تحدثت عن فضائل أمه - شأن كل مَنْ يتحدث عن هؤلاء الذين ماتوا - كانت تسلم بذلك معه ، وكانت تصمت بِسُمُوِّ ونُبل ولباقة فيما يتعلق بموقف أمى منها . بل قد أضافت إلى إطرائه وثنائه عليها احترامها لقوة روح أمى ، على الرغم من أنها كانت موجهة ضدها . وهكذا كان أخى يبثها ما يعتمل

في داخله ، مُنْفَسًا عَمَّا تنوء به نفسه من أشجان وأحزان ليتدفق حبه  
لزوجته مائلًا به فراغه الباطني من جديد .

ومن ثم مَكَّنَّا مَعًا في سكنهما بعيدًا عن كل شيء ، ونادرًا ما كنتُ  
أراهما طوال فترة ليست بالقصيرة ، وكأنهما كانا يعيشان في بلاد أخرى  
نائية ، ولم يكن أحد يستطيع الاتصال بهما ، وعندما كنت أذهب إليهما  
كانا يُرحبان بي دائمًا ، إلا أنهما - دون أن أعرف لماذا - سرعان ما  
ينسيان وجودي كانت أعينهما تلتقي سرًّا ، وتتحدثان مَعًا من خلال  
النظرات المتبادلة بينهما ، حتى حين كانت كلماتهما معي تخرج من بين  
شفاههما ، وإذا حَدَّثَ وكانا مبتعدين عن بعضهما - بجلوسهما عند  
طرفي الحجرة - فإنهما يندفعان دون وعي منهما حتى يُصبحا  
متجاورين .

وإني أعتقد أنه في تلك الأيام من الحب المتجدد بدأ أخى يرى بجلاء ما  
يجب عمله ، وامتد إلى روحه هدوء خاص حتى أصبح يتوق إلى منحها كل  
شيء عن طيب خاطر ، وزَايَلَهُ ما كان يعتريه من قلق وأَرْق

وحين كنتُ أرقبهما أدهشني أنهما زَرَعَا الدفء في قلبي ، ولو حدث  
أنى رأيتهما هكذا قبل زواجي لتقززت نفسي من مثل تلك الأحاسيس  
العاطفية بين رجل وزوجته، وَلَبَدًا لناظريَّ مشهدٌ يعوزه الوقار  
والكرامة، طالما كنت لا أستطيع فهمه . وَلَقَلَّتُ من شأن الحب نفسه ،  
واستهنتُ به ، معتقدة أنه جدير بالمحظيات والجوارى .

والآن هَأْتِدِي تَرِيْنَ كيفَ تَغَيَّرْتُ ، وكيفَ عَلَّمَنِي سَيِّدِي ! لا ريبَ أَنِّي  
كنت لا أعرف شيئاً حتى جاء  
وهكذا عاشاً معاً ، ينتظران المستقبل ، هذان الاثنان ، أخى وزوجته  
الأجنبية .

\* \* \*

ومع ذلك فلم يكن أخى فى أوج السعادة ، أمّا هى فقد كانت سعيدة ! لم  
يكن شيئاً ذا بالٍ الآن عَدَمُ كونها عضواً فى أسرة أخى ، فبرحيل والدته عن  
عالمنا - وعلى الرغم من مشاركتها الوجدانية - فقد انزاح عنها نوعٌ من  
الاسترقاق والعبودية ، ولما كانت تعرف أن طفلها يعيش فى أحشائها ،  
تحررت من بعض مخاوفها التى انتابتها من قبل ، ولم تعد تفكر فى شىء  
الآن غير زوجها ونفسها وطفلها . وعندما تحس بطفلها يتحرك بحيوية  
ونشاط كانت تبتسم وتقول :

- إنه هذا الإنسان الصغير الذى سيعلمنى كل شىء . سأتعلم منه  
كيف أنتمى إلى بلاد زوجى وجنسيته .. سيرينى مدى شبهه بوالده منذ  
أن كان طفلاً رضيعاً حتى بلغ سن الرجولة . لن أكون منعزلة ووحيدة  
بعد الآن .

وقالت لزوجها مرة أخرى :

- لا يهم الآن إن كانت أسرتك ستستقبلنى أم لا ، فقد دخل عظمك  
ودمك ودماعك فى كيانى ، وسألدُ ابناً منك ومن قومك .

ولكن أخى لم يكن مقتنعًا بقانون الروح هذا . لقد انحنى لها احترامًا حين تحدثت هكذا ، خرج من أمامها وقد غلى مرجل الغضب تجاه أبيه . وقال لى .

- يمكننا أن نعيش وحدنا - نحن الاثنين - إلى الأبد ، ولكن هل سنحرم الطفل مما سَيَقُولُ إليه بالميراث ؟ وهل يحق لنا أن نفعل ذلك ؟  
ولكننى لم أستطع أن أجيبه بشيء ، لأننى لم أكن أعرف ما هو الرأى الحكيم .

\*\*\*

حين اقترب موعد ولادة الطفل ، وأصبحت متوقعة ذلك فى أية ساعة ، فإن أخى ذهب مرة أخرى إلى أبى ليسأله منح زوجته اعتبارها الرسمى . وسأخبرك يا أختاه بما قاله لى أخى .

قال . إنه مضى إلى ساكن أبيه ، وهو يحاول أن يؤكد لنفسه ما سبق أن لاقته زوجته من استحسان وتأييد من والده ، وكان أخى يأمل أن يكون ذلك قد أسفر عن بعض الميل الحقيقى نحوها . أحنى أخى رأسه أمام أبيه وقال .

- يا أبى المبجل ، الآن وقد فَارَقَتْ عالمنا السيدة الأولى ، أمى المبجلة ، لتقيم بجوار الينابيع الصفراء ، فإنى ابنك التافه ، ألتمس أن تتفضل وتتنازل بالاستماع لى .

كان والده يجلس إلى المائدة يشرب ، وها هو ذا الآن قد أمال رأسه

وابتسم ، وما زال يبتسم ، وصب النبيذ من الإبريق الفضى ، وأخذ يرتشفه هاشًا هاشًا من طاس الخمر الصغيرة المصنوعة من « اليشب » التى كانت بيده ، ولم يجب بشىء ، ولذا تشجع أخى فأكمل حديثه قائلاً .

- إن الزهرة المسكينة التى جاءت من الأرض الأجنبية ، تسعى الآن لتحقيق وضعها فى المركز الملائم بيننا . وقد تزوجنا شرعياً طبقاً للعادات الغربية فى الزواج ، وهى فى نظر مواطنيها وأبناء بلدها تعد السيدة الأولى لى ، وهى تتوق إلى توطيد وضعها وفقاً لقوانين وطننا ، وهذا شىء فائق الأهمية طالما أنها على وشك أن تضع ابنى الأول

إن السيدة الأولى رحلت عن دنيانا ، ونحن سنظل نتفجع على فقدها إلى الأبد ، غير أنه من الضرورى أن نضع السيدة الأولى لابنها فى الترتيب الصحيح لجيلنا . إن الزهرة الأجنبية ترغب فى أن تكون واحدة منا ، وأن تنتمى إلى جذورنا ، كما ينقل جزء من عُصين شجرة الخوخ (١) ويُدفع فى شقّ طولى بجذع شجرة أخرى مثمرة فتندمج الخلايا وتلتحم الأنسجة الحية ، قبل أن يحمل الطَّعم ثمار الفاكهة .

إنها تريد لأطفالنا أن ينتموا إلى جنسنا الصينى العريق السماوى إلى الأبد ، ولم يبق الآن إلا أن يعترف بها والدنا ، وقد شجعها ما سبق أن أبداه نحوها من عطف ومُساندة ، وكَرَمٍ مُتَّسِمٍ بِسَمَاحَةِ النَفْسِ .

وظل أبوه صامتاً لا يقول شيئاً ، واستمر يبتسم ، وصب مزيداً من النبيذ واحتساه من طاس الخمر الصغيرة ، وأخيراً قال .

(١) وَيُسَمَّى : الطَّعْمُ . وَغُصْنٌ تَصْغِيرُ غُضَى

- إن الزهرة الأجنبية مليحة وما أجمل عينيها اللتين تشبهان  
جوهرتين قرمزيتين ! وما أنصع بياض لحمها الذى يُحاكى لُبَّ اللوز !  
لقد سَلَّتْنَا كَثِيرًا. أليس كذلك ؟ إننى أهنتك ، لأنها على وشك أن تهديك  
لعبة صغيرة!

صب النبيذ من الإبريق واحتساه ثانية ، وأكمل حديثه بأسلوبه  
الدمث العذب .

- اجلس يا بنى .. لقد أفرطتَ فى إرهابك نفسك .

وفتح درج المنضدة وأخرج طاسًا ثانيةً ، وأشار لأخى أن يجلس ،  
وملأ الطاس بالنبيذ حتى حافته ، بيد أن أخى رفض الشراب ، وظل واقفًا  
قبالته. وواصل أبوه حديثه ، وصوته الغليظ اللين ينساب فى سهولة  
ويُسْر

- آه ، ألا تحب النبيذ ؟

ابتسم وارتشفَ الخمر ، ثم مسح شفثيه بيده ، وعاود الابتسام ..  
وتكلم أخيرًا حين رأى أخى عاقداً العزم على أن يستمر واقفًا أمامه حتى  
يتلقى جوابًا :

- أما عن طلبك يا بنى فسأخذه بعين الاعتبار وأفكر فيه مليًا ، إننى  
مشغول جدًّا ، هذا بالإضافة إلى أن وفاة والدتك قد ملأتنى بلوعة الحزن  
حتى صرتُ غير قادر الآن على التركيز فى أى أمر من الأمور . سأرحل  
الليلة إلى « شنجهاى » لعلنى أجد بعض السلوى واللهم لأعيد إلى عقل.

جِدَّتَهُ وَمُضَاءَهُ ، حتى لا أسقط سقيماً علياً من فرط ما بليت به من  
أحزان وأشجان . بَلَّغُ تحياتى للسيدة التى تنتظر مولوداً ، وأخبرها  
بثنائى عليها .. أَوَدُّ أَنْ تُلِدَ ابناً كزهرة اللوتس « وداعاً يا بنى .. الابن  
الفاضل ! الابن الكفو !

نهض وهو ما زال يبتسم ، وانتقل إلى الحجرة الأخرى ، وسحب  
الستارة .

وحين حدثنى أخى عن كل ذلك ، كانت كراهيته قد بلغت حدّاً جعله  
يتحدث عن أبى كما لو كان شخصاً غريباً . آه ! لقد تعلمنا - حتى حين  
كنا أطفالاً - أن الأوامر العالية المقدسة تنص على أن الرجل لا يجب أن  
يحب زوجته أكثر من والديه ، فهذه خطيئة أمام لوحات الأسلاف  
والآلهة، ولكن أى قلب إنسانى ضعيف يستطيع أن يصد تيار الحب  
المتدفق فيه ؟ إن الحب يندفع داخله ، سواء قَبِلَهُ القلبُ أو رَفَضَهُ . كيف لم  
يعرف القدماء ذلك على الرغم مما كانوا يمتلكونه من حكمة ؟ إننى لا  
يمكننى أن ألوم أخى بعد الآن .

\*\*\*

من الغريب أن الأجنبية هى التى تقاسى الآن بشدة .. إن عداً أمى لها  
ونفورها منها لم تُسبب لها مثل ذلك الحزن إنها مسحوقة الفؤاد أسى  
ويأساً من إهمال والدى لها ولامبالاته حيالها . كانت فى أول الأمر  
غاضبة منه ، وتحدث عنه ببرود ، وحين سمعت بما جرى بين زوجها  
وأبيه قالت :

- هل كان إنذا كل ما أبداه من مَوَدَّةٍ نحوى كذبًا وادِّعَاءً وتصنُّعًا؟ لقد اعتقدت أنه استملحنى ومال إليّ . لقد شعرتُ أنني وجدتُ فيه صديقًا لي. ماذا كان يعنى ؟. أوه 'حقًا يا له من حيوان متوحش تتحكم فيه طبيعته البهيمية !

صعقنى مثل ذلك الحديث المكشوف الذى ينال ممن هو أكبر سنًا ، ونظرت إلى أخى لأرى ماذا سيقول لها مؤنَّبًا أو مستنكرًا لما بدَرَ منها ، ولكنه وقف صامتًا وقد أحنى رأسه ، فلم أستطع أن أرى وجهه .. كانت تنظر إليه وقد اتسعت عيناها رعبًا كما بدا لى ، وفجأة ودون إنذار - لأن طريقتها فى الحديث كانت فى منتهى البرود والتحرر - انفجرت متنهدة، وأسرعت إليه باكية :

- أوه يا أعز ما لَدَيَّ ، دعنا نغادر هذا المكان البشع البغيض !  
أذهلنى انفعالها المفاجيء .. غير أن أخى تلقاها بين ذراعيه ، وراح يُحدثها هامسًا ، ولذا سحبتُ نفسى وأنا أشد ما أكون ألمًا من أجلهما ، وقد انتابنى الشك تجاه المستقبل .

\* \* \*

الآن قد اتخذ والدنا قراره يا أختاه ! كان تلقى قراره أمرًا ثقیلاً على النفس ، ولكن معرفته خيرٌ من التعلق بأمل كاذب.

بعث رسولًا لأخى بالأمس ، وهو أحد أبناء العم الثالث ، ومستول فى عشيرة بيت أبى ، وكان يحمل إرادة والدنا إلى أخى بهذه الكلمات ، بعد أن تناول الشاي والمرطبات فى قاعة الضيوف

- اسمع ، يا بُن « يانج » إنَّ أباك يجيب على التماسك ببساطة  
ووضوح هكذا ، ويوافقه على ذلك أعضاء العشيرة ، حتى أدهام منزلة  
يؤيدونه . يقول والدك .

- من المستحيل أن نستقبل المرأة الأجنبية بيننا ، ففي عروقها تتدفق  
دماء غريبة غير قابلة للتغيير ، والأطفال من رحمها لا يمكن أن يكونوا من  
أبناء « هان » .. وحيث يكون الدم مختلطاً وغير نقي لا يمكن أن يُصبح  
القلب مستقرّاً راسخاً .

زدُ على ذلك أن ابنها لا يمكن قبوله عضواً في قاعة الأسلاف ، فكيف  
يمكن لأجنبي أن يركع أمام ذلك الصف الطويل والمقدس من القدماء  
العظام ؟ واحد فقط يستطيع أن يجثو هناك ، إذا كان وريث سلالة نقية ،  
وكان يجرى في بدنه دم الأسلاف الخالص

ثم أكمل حديثه قائلاً

- إن أباك كريم ، وهو يرسل إليك ألف قطعة فضية ، وعندما يولد  
الطفل ادفع لها ، ودعها تقفل راجعة إلى بلادها . لقد أطلقت العنان للعنث  
واللهو فترة طويلة ، وأنَّ لك أن تستأنف واجبانك . اسمع الأمر الذي  
صدرت تروج الفتاة التي أُختبرت لك إن ابنة « لى » قد ضاق صدرها بهذا  
التوانى الطويل . لقد صبرت، أسرة « لى » مفضلة إرجاء الزواج حتى  
ينتهى جنونك الذى تناقلته الألسن في كل أنحاء المدينة ، حتى ألحق  
الخزى والعاز بالعشيرة ، ولكنهم لن ينتظروا بعد الآن ، إنهم يطلبون

حقوقهم ، ولا يمكن تأجيل الزواج أكثر من ذلك .. إن الشباب سريع  
الزوال ، والأبناء الذين ينجبهم الآباء في شبابهم هم الأفضل .

ثم سَلَّم إلى أخی حقیبة متقلّة بالفضة .

غير أن أخی تناول الفضة وقذف بها فوق الأرض ، وانحنى إلى الأمام  
، وكانت عيناه أشبه بمدية ذات حَدَّين ظامئة إلى قلب الآخر .. كان غضبه  
يتجمع تحت وجهه الذى بدأ مكسواً بالجليد ، انفجر الآن رهيباً  
كومضات برق غير متوقع عبر سماء صافية . وصاح .

- ارجع إلى هذا المرء واطلب منه أن يأخذ فضته ! فَمِنَ اليوم لن يكون  
لى أب ، وليس لى عشيرة .. وَأَتَبَّرُ من اسم « يانج » ! أنزلوا اسمى من  
السجلات ! وسأمضى أنا وزوجتى قُدُومًا وفى هذا اليوم سنكون  
أحرارًا مثل غيرنا من شباب البلدان الأخرى . وسنبداً سلالة جديدة ..  
حُرّة . متحررة من هذه الروابط القديمة الكريهة التى جثمت ثقيلة  
مرهقة فوق أرواحنا !

ثم أسرع الخطى مغادرًا الحجرة .

التقط الرسول كيس الدراهم وهو يغمغم

- آه ، هناك أبناء آخرون .. هناك أبناء آخرون !

ثم عاد إلى والدى .

أواه يا أختاه ! هل ترين الآن لماذا قلت إنه كان من الخير أن أمى قد  
ماتت ؟ كيف كانت ستتحمّل رؤية مثل هذا اليوم ؟ كيف تستطيع احتمال

رؤية ابن إحدى المحظيات وهو يأخذ مكان ابنها الوحيد والوريث الذى  
سئول إليه ثروة أبيه ٩

وعلى ذلك فإن أذى الآن لا يملك شيئاً من ممتلكات الأسرة ، وسيدفع  
نصيبه إلى بيت « لى » تطيباً لخاطرهم إزاء الإهانة والإساءة التى لحقتهم  
.. وتقول « وانج دا ما » إنهم يتطلعون إلى زواج لتلك الفتاة التى كانت  
خطيبة أذى .

ما أعظم التضحية التى قدمها أذى فى سبيل حُبِّ لهذه الأجنبية !

\*\*\*

إن أذى لم يخبر زوجته بشيء عمَّا ضحى به حتى لا يوقع الكآبة فى  
نفسها ، خاصة أنها تنتظر مولوداً ، لئلا يُنغص عليها سعادته فى  
المستقبل ، واكتفى بقوله .

– دعينا نغادر هذا المكان يا عزيزتى ، إذ لا يمكن أن يكون لنا مأوى  
داخل هذه الجدران .

ابتهجت ، وذهبت معه فَرِحَةً جَذَلَةً .. وهكذا ترك أذى بيت أسلافه إلى  
غير رجعة ، ولم يكن هناك أحد فى وداعه ، فيما خلا « وانج دا ما » العجوز  
التي جاءت وبكت وأحنت رأسها أمامه حتى لامست التراب وهى تصرخ .  
– كيف يغادر ابن سيدتى تلك المساكن ؟ إنه الوقت الذى فارقت فيه  
الحياة .. إنه الوقت الذى مت فيه !

إنهما يعيشان الآن فى بيت صغير من طابقين ، مثل البيت الذى نطقن

فيه فى شارع الجسور . وقد تغير أذى خلال هذه الفترة القصيرة ، فبدا أكبر سنًا ، وأكثر هدوءًا ، ولأول مرة فى حياته كان عليه أن يفكر من أين يأتى بالطعام والثياب . وهو يذهب يوميًا فى الصباح الباكر ليعلم فى المدرسة الحكومية هنا وهو الذى لم يسبق له قط أن نهض من فراشه حتى تتوسط الشمس كبد السماء .. إن عينيه يبدو فىهما التصميم والعزم ، وصار أقل كلامًا وابتسامًا عمًا اعتاد عليه من قبل . وقد غامرت ذات يوم وقلت له

– هل تأسف على أى شىء يا أذى ؟

فالتمعت عيناه وهو يوجه نظراته السريعة القديمة نحوى من تحت

جفنيه ، وأجاب

– أبدًا !

آه ، أعتقد أن أمى كانت مخطئة ! فهو لم يكن ابن أبيه .. إنه ابن والدته

فى ثباته وحزمه .

\*\*\*

والآن ، ماذا تظنين يا أختى قد وقع ؟ لقد ضحكك حين سمعت به ، وفجأة دون أن أفهم انخرطت فى البكاء .

فى الليلة الماضية سمع أذى قرعًا عنيفًا على باب بيته الصغير ، فتوجه ليفتحه بنفسه ، إذ لم يكن لدهما سوى خادمة واحدة فى هذه

الأيام ، ولشدة دهشته وجد « وانج دا ما » تقف قبالة . لقد جاءت  
ممتطية عربة يد يعجلة واحدة ، وأحضرت معها كل حوائجها في سلة  
كبيرة من الخيزران وحزمة مربوطة في قطعة قماش زرقاء ، وحين رأت  
أخي قالت له في هدوء بالغ ورباطة جأش

- جئت لأعيش مع ابن سيدتى ، ولأخدم حفيدها .

فقال أخي

- ولكن ألا تعرفين أننى لم أعد اعتبر ابنَ أُمِّي ؟

أجابت « وانج دا ما » في عناد وهى تشدد قبضتها على السلة والحزمة  
في كل من يديها .

- والآن ماذا بعد ؟<sup>١٩</sup> أو تقف هناك وتقول ذاك الكلام ؟ أَلَمْ أَخُذْكَ مِنْ  
ذراعى أمك إلى هاتين الذراعين وأنت لم يكن طولك يبلغ قدماً ، وكنتَ  
عاريًا كإحدى الأسماك ؟ أو لم تَرَضَّعْ مِنْ ثَدْيِي ؟ وكما وُلدت فأنت كما  
أنت ، وابنك هو ابنك . دَعِ الْأُمُورَ تَجْرِي كما أقول !

لم يعرف أخي بماذا يجيب إلا بشق الأنفس .. لقد عرفتنا حقاً طيلة  
حياتنا ، وهى بالنسبة لنا أكثر من خادمة . وبينما كان يقف متردداً ،  
تحركت وأدخلت حزمته وسلتها فى القاعة الصغيرة ، وهى تدمدم  
وتلهث ، فقد تقدمت سِنَّها وأصبحت الآن بدينة ، وراحت تبحث عن كيس  
نقودها فى ارتباك . ولما عثرت عليه استدارت لتتشاجر بقوة مع صاحب  
العربة عن أجرة الركوب . وهكذا استقرت كما لو كانت فى بيتها .

لقد فعلت هذا من أجل أمى .. من العبث أن يُبالغ المرء في تأمل سلوك إحدى الخادِمات ، ومع ذلك فإن أخى يضحك ضحكة يشتم منها العطف حين يتحدث عنها . فقد سرَّه مجيئها ، وأن ابنه سينام ويلعب على ذراعِها.

وفى هذا الصباح قدمت لتقدم احتراماتها لى ، وكانت كما عهدناها . وقد يظن المرء أنها عاشت مع أخى أعوامًا عديدة فى هذا البيت الأجنبى ، على الرغم من أننى أعرف أنها تدهش سرًّا من أشياء كثيرة .. ويقول أخى إنها تتظاهر بعدم ملاحظتها لأى شىء غريب ، مع أنها لا تثق على وجه الخصوص بدرجات السلم ، ولا شىء يقنعها ويستميلها كى تصعد فوقها لأول مرة أمام الآخرين ، ولكنها أخبرتنى اليوم بأن التغييرات التى حدثت فى بيت أمى قد وقفت فى حلقها .

قالت · إن المحظية البدينة قد أصبحت السيدة الأولى فى مكان أمى .. وقد أعلن ذلك فى قاعة الأسلاف أمام اللوحات المقدسة . إنها تتجول فى زهو واختيال مرتدية ثياباً حمراء وأرجوانية رمزاً لمنزلتها الرفيعة ، وقد أحاطت أصابعها بخواتم عديدة ، بل وانتقلت إلى حجرات أمى ! وحين سمعتُ « وانج دا ما » تخبرنى بذلك أدركتُ أننى لا أستطيع أبداً أن أذهب إلى هناك مرة أخرى .

آه ، يا أمى !

\*\*\*

إن أخى رقيق مع زوجته ، ويحيطها بحنانة أكثر من ذى قبل منذ أن  
ضَحَّى بكل شىء من أجلها ، هذا الذى عاش حياة رغبة فى كنف ثروة  
والده قد أصبح الآن فقيرًا . ولكنه تعلَّم كيف يجعلها سعيدة .

حين توجهتُ بالأمس لأراها كان نظرها موجَّهاً إلى صفحة كانت  
تكتب عليها سطوراً طويلة متدفقة متخذة شكلاً لولبيًا، وعندما ولجتُ إلى  
الغرفة مع ابنى نظرتُ إلينا وهى تبتسم ، كما تفعل دائماً حين ترى  
الطفل.

قالت وقد لَمَعَتْ عيناها فجأة - كعادتهما عندما يشرق وجهها  
بالابتسام:

- إننى أكتب لوالدى ، وهأندى أخيراً! أستطيع أن أخبرها بكل شىء..  
سأقول لها إننى علقتُ ستائر صفراء على النوافذ ، وأن هناك أنية تطل  
منها زهور النرجس الذهبية فوق المائدة . وسأخبرها أننى قد بَطَّنتُ  
اليوم سلَّةً صغيرة بالحريز القرنفل لينام فيها .... إنها حريز بلون زهور  
التفاح الأمريكى ، ستقرأ ما بين السطور ، وترى من خلال كل كلمة  
وتعرف كم أنا سعيدة .. كم أنا سعيدة أخيراً !

هل سبق لكِ يا أختاه أن رأيتِ وادياً ممتعاً نالون رمادى تحت سماء  
مُلبَّدة بالغيوم ، مُنذرة بالمطر ، ثم تنقشع السحب فجأة وتسقط أشعة  
الشمس فتنتطق الحياة والألوان المتناغمة فرحة صاحبة من كل موقع فى  
ذلك الوادى ؟ هكذا هى الآن . فى عينيها حيوية الابتهاج والسرور ،

وصوتها أغنية متواضعة . وشفاتها لا تهدآن ، فهما تنحنيان  
وتتقوسان، وتتحركان على الدوام بقليل من الابتسامات ، وشظايا من  
الضحكات السريعة .. وهى فى الواقع ذات جمال أسير . كثيرًا ما تشككت  
فى جمالها من قبل ، لأنها لم تكن تشبه شيئًا سبق أن رأيتة ، ولكننى الآن  
أدركتة بجلاء . لقد انقشعت العاصفة والكآبة الحزن من عينيها .. إنهما  
زرقاوان مثل البحر تحت سماء مشرقة تتألق فتنة وسحرًا .

أمًا أختى ، فبعد أن أنجز ما قرر أن يفعله ، أصبح هادئًا ، رزينًا ، قانعًا ،  
راضيًا

إنه رجل .

وحين أفكر أن كُلاً منهما قد ترك عالمه من أجل الآخر ، أحنى رأسى  
أمام مثل ذلك الحب . إنه سينتج ثمرة ثمينة رائعة ، مثل حَجَر كريم  
كاليشب .

أما طفلهما فتراودنى عنه فكرة أنه سيكون له عالمه الخاص ليشيده  
ويبينه إنه لن يكون نقيًا خالصًا صافى الدم ، لا من الشرق ولا من  
الغرب ، وبسبب منبوذًا من كليهما ، إذ لن يفهمه أى منهما . غير أننى  
أعتقد أنه لو تحلّى بقوة والديه الاثنى ، فسيفهم كُلاً من هذين العالمين ،  
وهكذا سينصر

هذا ما أفكر فيه . فقط حين أرى أختى وزوجته .. إننى امرأة فحسب

يجب أن أتحدث مع زجى بهذا الشأن ، فهو حكيم وعليم ببواطن الأمور  
دون أن يخبره أحد أين تكمن الحقيقة .

آه ، ولكننى أعرف هذا 'إننى مشتاقة لمشاهدة طفلهما . وأود أن يكون  
أخاً لابنى .

\*\*\*

ها هى ذى الأجنبية تُغنى ، وساعة بعد ساعة تنبع الأغاني من قلبها  
وتصعد إلى شفيتها كما تصعد الفقاقيع خلال سائل، وهى مرحة وتشعر  
بفرح مذهل وأنا ، وقد سبق لى أن وضعتُ ابناً ، أبتهج معها أيما ابتهاج ،  
ونحن بتجربتنا وخبرتنا البشرية المشتركة مشدودتان معاً برباط واحد .  
إننا نحيك الملابس ، ملابس صينية صغيرة ، وحين تفكر فى أى الألوان  
تختار فإنها تعقد حاجبيها فوق شفيتها المبتسمتين ، وتسأل نفسها  
هكذا.

- الآن ، إذا كانت عيناه سوداوين فسيحتاج إلى هذا اللون القرمزى ،  
ولكن إذا كانتا رماديتين فيجب أن يحظى باللون القرنفلى الوردى .  
وتدير عينيها الضاحكين نحوى قائلة .

- هل ستكون عيناه سوداوين أم رماديتين يا أختى الصغيرة ؟

عندئذ أسألها وأنا ابتسم بدورى .

-- باى لون هما الآن فى قلبك ؟



فتقول وقد تدفق الدم فجأة في وجنتيها خجلًا أمامي

- إنهما سوداوان على الدوام ، دعينا نأخذ اللون القرمزى .

حينئذ أخبرها .

- إن القرمزى هو لون الفرح والسرور ، وهو دائمًا يناسب الابن .

وكنا نعرف معًا أننا قد اخترنا اللون بحكمة .

ثم جعلتها ترى الملابس الصغيرة الأولى الخاصة بابنى ، ووضعنا معًا نماذج التفصيل على قماش الساتان القرمزى المزين برسوم الأزهار ، وعلى الحرير القرمزى الناعم . وقد طرزت نماذج لنفس الأحذية الصغيرة التى لها شكل وجه النمر . وبمثل تلك المهام اقتربت كل واحدة مِن الأخرى .. ونسيتُ عن أى وقت مضى أنها غريبة ، لقد أصبحت أختى ، وتعلمتُ أن أناديها باسمها . ماري .. ماري !

\*\*\*

وعندما تم إعداد كل شيء ، قامت بعمل مجموعة صغيرة من الملابس الأجنبية لم يسبق أن رأيت مثلها لبساطتها ورقتها وأناققتها . وأدهشنى الثوب الرقيق . كان الكُمان الصغيران يتدليان إلى التنورة الطويلة بشرط مزركش ، يشد الخصر ، كان أروع من التطريز . ومع أن القماش لم يكن من الحرير فإنه كان ناعمًا كضباب رقيق ، وقد سألتها :

- كيف ستعرفين متى تلبسينه تلك الأثواب ؟

ابتسمت وربتت وجنتى بسرعة إن لها أساليب حلوة لطيفة حين أصبحت مرحلة الآن .

- ستة أيام من الأسبوع سيكون فيها طفل أبيه ، ولكننى فى اليوم السابع سأدثره الكتان والأشرطة المزركشة ، وسيصبح أمريكياً .

ثم اكتسى وجهها فجأة بالوقار ، وقالت فى ببطء ورزانة .

- لقد اعتقدت فى أول الأمر أننى أستطيع أن أجعله صينياً تماماً ، ولكننى أعرف الآن أننى يجب على أن أمنحه أمريكاً أيضاً ، لأنها نفسى ، وسوف ينتمى إلى طرْفِ العالم ، يا أختى الصغيرة .. إلى كلينا .. إليكم وإلى .

ابتسمت لها ثانية .. إننى أرى الآن كيف تمكنت من اجتذاب قلب أختى إليها ، واستحوذت عليه بقوة .

\*\*\*

الآن جاء ابنهما إلينا يا أختاه ! لقد تلقيتُهُ بين زَرَاعِيَّ من يَدَيَّ « وانج دا ما » . كانت تتمم وتضحك مزهوة وهى تناوله لى .. لقد تفرستُ فيه بشوق ولهف .

إنه طفل رجل .. طفل يتمتع بالقوة والنشاط ، على الرغم من أنه ليس فى جمال ابنى .. إنَّ ابناً شبيهاً بزوجى وبى لا يمكن أن يُولد مثيلٌ له مرة ثانية .. غير أن ابن أختى وأختى لا يشبه أحداً سواه . إن له عظاماً كبيرة ، ويتمتع بنشاط وقوة ، ومفعم بالحيوية ، تلك الحيوية التى يتسم بها

الغرب، ولكنَّ شعرَه أسودٌ، وعينه سودوان مثلنا، وبشرته - على الرغم من صفائها - كالشيب، إلا أنها سمراء. ويمكنني أن أرى الآن في عينيه وشفتيه سيماء وجه أمي .. يا له من مزيج من الألم والسرور وأنا أرى ذلك!

غير أنني لم أُحدِّثُ زوجة أخي عن هذا الشبه، وحملتُ إليها طفلها وأنا أضحك وأقول

- انظري ماذا فعلت يا أختي! بهذه العقدة الصغيرة قد قمتي بربط عالمين!

كانت مستلقية في ضعف وإرهاق وهي تبتسم، وهمست قائلة .

- ضِعِيهِ بجانبِي

ففعلتُ ذلك .

إنه يرقد على صدرها الناصع البياض بوجهه الأسمر، وعينه السوداوين. ركزتُ أمُّه عينيهما عليه، ولمست شعره الأسود بأناملها البيضاء.

قلت وأنا أبتسم لدى رؤيتي لهذا المشهد

- يجب أن يرتدى الثوب الأحمر، فهو شديد السُّمرة بالنسبة إلى لونك الأبيض.

قالت ببساطة .

- إنه يشبه والده ، وأنا قانعة راضية .  
ثم دَخَلَ زوجها ، فانسحبتُ .

\* \* \*

في الليلة الماضية - بعد مولد الطفل - وقفتُ بجوار زوجي في غرفة  
ابننا . نظرنا معًا من النافذة المفتوحة وتطلَّعنا إلى الليلة القمرية .. كان  
الهواء صافيًا شفافًا ، وكانت حديقتنا كلوحة أبدعتها الفرشاة بالأسود  
والأبيض .. وارتفعت الأشجار سامقة تجاه السماء ، وسقطت أشعة  
القمر على قممها الأبنوسية فبدت متألقة كالفضة

كان ابننا يرقد خلفنا نائمًا في سريرهِ الخيزراني لقد نما الآن وضاق  
به السرير ، وهو حين ينام يدفع بذراعيه إلى الخارج فترطم يداه بجوانب  
السرير في رفق . إنه هذه الأيام رجل بكل ما في الكلمة من معنى . نظر  
بعضنا إلى بعض . كنتُ أنا وزوجي في زهو وفخر حين سمعنا تنفسه  
القوى الثابت .

ثم طاف بذهني الطفل المولود حديثًا ، وكيف يبدو شبيهاً بأمي التي  
فارقت الحياة حين بدأت حياته . قلت بتؤدة ممتزجة ببعض الأسي .

- يا لآلم الانفصال الذي حَلَّ بحياة طفل أخينا وأختنا ! انفصال أمه  
عن بلادها وسلالتها ، وألم أمِّ أبيه وهي تتخلى عن ابنها الوحيد ، وألم  
أبيه وهو ينسحب قاطعًا صلته ببيته وأسلافه ، ضاربًا عرض الحائط  
بالماضى المقدس !

بيد أن زوجي قابلَ ذلك بالابتسام فحسب ، ووضع ذراع حول كتفيّ،  
ثم قال بوقار

- فَكَّرِي في هذا فقط .. إِنَّ فرحة مجيئه إلى العالم كثمرة لذلك الارتباط  
شيء رائع ! لقد أدمج قَلْبِي والديه في قلب واحد ، هذين القلبين بكل ما  
بينهما من اختلافات وفروق في المنبت والتربية . ففوق ترجع إلى قرون  
سابقة ! فيا له من زواج !

وهكذا أراحني وقَوَّاني عندما تذكرتُ ما مضى من أحزان ..  
إنه لا يدعني أتعلق بأى شيء لمجرد أنه قديم ، جاعلاً إِيَّايَ أَيْمَمٌ وجهي  
شطر المستقبل ، وهو يقول .

- يجب أن ندع كل ذلك يذهب أدراج الرياح يا حبي ! نحن لا نود  
لابننا أن يرسف في أغلال الأفكار القديمة البالية التي لا نفعَ فيها !  
إنني حين أفكر في هذين الاثنين ، ابني وأخيه ، أعنى ابن خاله ، أدرك  
أن زوجي على صواب . وأنه نورأى سديد على الدوام .

الـؤلف

عبدالله بن محمد



عليهما ، وهما بعنوان : « المنفية » ، وهو دراسة عن حياة والدتها ، و « الملك المناضل » الذى تصور فيه حياة والدها. والكتابان ضمهما مجلد واحد نُشر عام ١٩٣٧ .

ولدت « بىرل سيدينستريكر » فى السادس والعشرين من يونيه عام ١٨٩٢ فى بيت الأسرة فى «هيلز بورو» بولاية «وست فيرجينيا» حينما كان والدها «أبسالوم وكارولين سيدينستريكر» فى إجازة من عملهما كمبشرين فى إرسالية دينية بالصين . وعلى الرغم من أن « بىرل سيدينستريكر » قد وُلدت فى الولايات المتحدة ، فإنها انتقلت إلى الصين مع والديها وهى لم يتعد عمرها خمسة أشهر ، وتربت هناك ، حيث قضت باكورة سنواتها ذات الأثر الفعال فى تكوينها وقد شكلت الصين عقل الطفلة وخيالها ودمغتها بطابع لا يُمخى .. والصين عالم غريب . عالم من السقوف العتيقة الطراز المكسوة بالقرميد التى تعلو البيوت ، والمعابد البوذية ، وتمائيل عجيبة لآلهة غير معروفة تبعث خشية فى النفس ، واحتفالات الأعياد ، والمهرجانات الفريدة الغنية بالألوان ، والنابضة بالحياة . وهناك أنواع متباينة لا حصر لها من الناس تمتد من المتسولين المعدمين ، إلى الشخصيات الموهلة فى السن من ذوى الوقار والهيبة ، إلى اللصوص وقُطّاع الطرق الهمجين البعيدين عن المدينة فى التلال القريبة ، والذين كثيرًا ما يُهاجمون المدن والقرى الصغيرة وكان والدنا « بىرل سيدينستريكر » يأنفان دائمًا من تعقيدات الإرساليات الدينية المتحفظة المنقرّة التى يعملان فى حقلها ، وفَضَّلَا أن يعيشا ويعملا

بين أبناء الصين من عامة الشعب .. وهكذا نمت الطفلة الصغيرة على مقربة من سكان الصين الوطنيين فَأَلْفَتْهُمْ ، وحملت لهم مَوَدَّةً وصداقة حميمة وكانت تتحدث الصينية ، وتلعب مع الأطفال الصينيين ، وتزورهم في بيوتهم ، وتستمع إلى أفكارهم ، وعرفت مشاعرهم ووجهات نظرهم.

واستحوذت الحكايات والقصص على الفتاة الصغيرة ، وهي تعترف بأنها كانت فضولية أزججت كل امرئ بما تطرحه من أسئلة تكون أحياناً عميقة ، وتتسم بحب الاطلاع على شئون الآخرين الخاصة . إن قصة عن أى شخص في مكان قريب أو بعيد تأسرها وتثير اهتمامها ، إلا أنها كانت مولعة بوجه خاص بحياة من حولها من الناس . وهي تتذكر أنها كانت تستمع ساعات طويلة لأى امرئ يتحدث إليها ، ولاحظت أن الصينيين كانوا لا يكتفون ما يتصل بحياتهم الخاصة حين يتناقشون بشأنها ، بل يتحدثون عنها بالتفصيل.

وجدير بالذكر أن « بيرل سيدينستريكر » استمعت في صغرها إلى سلسلة لا نهاية لها من القصص رَوَتْهَا لها حاضنتها ومربيها العجوز وهى طفلة . وأعلنت « بيرل » فيما بعد أن تلك القصص كانت تمثل أول تأثير أدبى ترك بصماته عليها ، وكانت تلك الخادمة الصينية مولعة على وجه خاص بأن تروى الأساطير البوذية والطاوية .

أثارت الأساطير البوذية اهتمام الطفلة الأمريكية لما فيها من خيال

جامح، من تحليق وانطلاق ، وحركات سريعة ، وهروب وفرار ، مثلما جاء في قصة عن الخناجر العجيبة التي يمكن أن يتناقص حجمها وتصغر إلى درجة يمكن معها إخفاؤها في أُذن امرئ أو في زاوية عينه ، ولكنها عند الإمساك بها لخوض معركة أو للدفاع عن النفس تزداد طولاً وقوة .

أما بالنسبة للطاوية - وهى دين صينى خالص - فيعتبر الحكيم «لاوتسو» مُنشئاً له وتشمل الطاوية أفكار وفلسفة وتعاليم ذلك الحكيم الصينى الذى عاش فى القرن السادس قبل الميلاد . وكان مرجعهم فى ذلك كتابه « تاو تيه تشينج »

ويحتل دين الطاوية المنزلة نفسها مع الكونفوشيوسية والبوذية . وتتصف الطاوية باتجاه إيجابى نشط نحو الإيمان بالقوى الخفية الغامضة. وبإمكان إخضاعها للسيطرة البشرية بالسحر ، واتجاه إلى ما وراء الطبيعة أو الميتافيزيقا .

وكانت قصص الأساطير الطاوية التى ترويها الخادمة الصينية للطفلة الأمريكية تتناول الشياطين ، وحكايات الجن ، والأرواح الخيالية الفانتازية التى تعيش فى الصخور والأشجار ، والتنانين التى تقطن الرياح والعواصف .

وبالإضافة إلى الحكايات والقصص العجيبة التى كانت ترويها الخادمة الصينية سمعت « بيرل سيدينستريكر » من والدها قصصاً نادرة فريدة ومثيرة . فقد كان « أبسالوم سيدينستريكر » بحكم مهنته

كمبشر في إرسالية دينية يقوم برحلات إلى المناطق النائية المنعزلة في الصين ، ومر بتجارب ومخاطر نادرة ومثيرة . وعلى الرغم من أنه بطبيعته كان محتفظًا كتومًا ، إلا أنه لدى عودته كان يروى بعض مخاطراته ، وما مر به من خبرات وتجارب . وترك ذلك تأثيرًا عميقًا على ابنته الصغيرة .

أما « كارولين سيدينستريكر » والدة « بيرل » فقد كانت بطبيعتها راوية بارعة في سرد القصص والأخبار ، وتحب الغناء والاشتراك في الحفلات العامة . وكانت تحن في أفكارها إلى وطنها في أمريكا ، فبصرت ابنتها بالكثير عن حياتها كفتاة في « وست فرجينيا » حيث كانت الحياة هناك مخالفة تمامًا للحياة التي عرفتتها «بيرل» . وما هي ذى « مسز سيدينستريكر» تخبر ابنتها عن الحرب الأهلية الأمريكية وما حاق بأسرتها في هذه الجائحة . إنها تتحدث كثيرًا عن أقاربها وأسلاف الأسرة . كانت تنشد الأغاني ، وتتلو أشعار القصائد لتسلية أطفالها ، كما حاولت أن تزرع في نفوسهم حب الطبيعة والهواء الطلق في الخلاء والشئ الذي لا يُنسى أيضًا تلك الاستعدادات التي كانت تجرى للاحتفال بعيد الميلاد وما يحيط به من مباحج رائعة ومسرات عجيبة

كانت هناك أيضًا قصص وآراء ووجهات نظر من دول أخرى ، فطبيب العائلة كان من أبناء الهند ، وكان هو وزوجته يجيدان التحدث باللغة الإنجليزية . أمطرت الصغيرة «بيرل» الطبيب وزوجته بالأسئلة عن طفولتهما ، وعن تعليمهما المدرسى ، وعن الحياة في الهند بوجه عام . وهكذا أصبحت على وعى مبكر عن سحر وفتنة تلك الدولة

كما صادقت « بيرل » سيدة يابانية تقيم على مقربة منهم ، كانت تزورها كثيرًا ، حيث كانت على معرفة واسعة بأناس من بورما ، وسيام ، واندونيسيا ، وغيرها من الدول القريبة من الصين . وأسعد هؤلاء الأفراد الذين يقيمون في الصين أن يتحدثوا عن أوطانهم . وهذه الصداقات قد أمدت « بيرل » بثروة من القصص والتجارب والخبرات التي ساعدت على تطوير عقل وخيال طفلة يقظة نشِطَة ذكية .. وليس هذا فحسب ، بل زودتها أيضًا بمادة ضخمة لرواياتها وقصصها القصيرة .

وعزمت « بيرل سيدينستريكر » حتى وهى طفلة على أن تصبح كاتبة قصصية ، ولنستمع إليها وهى تقول « إن المرء يشقائق أن يعمل ما يحبه ، وأنا قبل كل شيء أحببتُ سماعَ القصص عن الناس . وأخشى أننى كنت طفلة مزعجة ، يدفعنى الفضول دائمًا إلى حب الاطلاع على شئون الناس ، ولماذا كانوا كما وجدتهم .» لقد شعرت منذ طفولتها بدافع قوى لكتابة الروايات . وهى تعترف بأن الهواجس قد انتابتها تجاه ذلك ، واستحوذت عليها هذه الفكرة واستبدت بها ، وتسلم بأنها لن تذوقَ طعم السعادة أبدًا ما لم تداوم على الكتابة

وبالإضافة إلى استماعها لقصص مختلف الناس فى شتى الأمكنة ، فإن الفتاة كانت كَلْفَةً بالقراءة بدون انقطاع ، وتنفق كل ما تحصل عليه من نقود فى شراء الكتب . ونظرًا لندرة كتب الأطفال فى الصين فقد انحصرت معظم قراءاتها فى الروايات ، وكانت غالبية تلك الأعمال من الروايات الإنجليزية ، لقلة الكتب الأمريكية التى يصعب الحصول عليها .

ومعظم قراءاتها في صغرها كانت تشمل الأعمال الكاملة أو نصف الكاملة لشكسبير ، وسير والتر سكوت ، ووليم ثاكري ، وجورج إليوت ، وتشارلز ديكنز . وقد بدأت في قراءة « أوليفر تويست » حين كانت في السابعة من عمرها . وهي تتذكر أنها كانت تقرأ جميع روايات ديكنز مرة على الأقل في العام ، وتعيد قراءتها سنوياً على مدى فترة تقرب من عشرة أعوام لقد أسعدها ديكنز وأثر فيها ، مما دعاها إلى كتابة مقال حماسي تعبر عن إعجابها بقلمه ، وبقوة خياله .

حدثت « بيرل سيدينستريكر » اللغة الصينية قبل أن تتكلم الإنجليزية ، ولكنها سرعان ما تمكنت من القراءة والكتابة بالإنجليزية أكثر من الصينية، فقد تلقت من والدتها دروساً مكثفة في اللغة الإنجليزية ، وكانت أمها تصر على أن تؤدى « بيرل » عديداً من التمارين ، وتناقشها وتراجعها معها ، وتؤكد أهمية استعمال لغة إنجليزية صحيحة دقيقة . ونشرت كثيراً من الكتابات التي كانت تتدرب عليها « بيرل » في شبابها في القسم المخصص للأطفال بجريدة « شانجهاى ميركورى » التي كانت تطبع بالإنجليزية . وظلت تُسهم بما تكتبه بضع سنوات ، وكانت تمهرها بتوقيع « المبتدئة » . وثابرت « مسز سيدينستريكر » على تشجيع ابنتها على التعبير عن أفكارها فيما تكتبه . ولا ريب أن هذا الإصرار على التدريب على الأساسيات قد آتى أكله في تنمية الإحساس بالكلمات ، والقدرة على التعبير عن الأفكار بطريقة جلية قوية ، وأسلوب متميز واضح سلس .

وبالإضافة إلى التدريب الذى تلقته في اللغة الإنجليزية ، فإن الفتاة

الصغيرة تعلمت على يد « السيد / كونج » وهو مدرس خصوصي خريج مؤسسة كونفوشيوسية ، سبق أن قدمت له منحة للدراسة فيها . لقد علّم «بيرل» قراءة وكتابة اللغة الصينية وليس هذا فحسب ، بل علمها أيضًا كثيرًا من مبادئ وقواعد السلوك ومعتقدات الكونفوشيوسية ، ودرست معه التاريخ الصينى ، وتنبعت إلى الإمبريالية والاستعمار الغربى واستغلاله لموارد الشرق الأقصى. وهى لا تنسى أبدًا مناقشاته وما درسه لها عن ثورة « البوكسر » تلك الجمعية السرية التى حاولت عام ١٩٠٠ طرد الأجانب من الصين ، وحمل المتنصرين الصينيين على الارتداد عن المسيحية، ( ومن أثر ما فعلته هذه الثورة أنهم اضطروا فى وقت سابق إلى الهروب هى ووالدتها وشقيقتها إلى ساحل البحر للنجاة بجلودهن ) . وقد نصّح « السيد / كونج » تلميذته المشمولة برعايته ، وكل الأجانب من الجنس الأبيض أن يلوذوا بالفرار من الصين نفسها لإنقاذ حياتهم .

إن هذه العاقبة هى نتيجة منطقية للاستغلال الغربى ، وما عاناه الصينيون من جَوْرهم وأعمالهم الظالمة .

وبعد وفاة الدارس المجتهد « السيد / كونج » فى عام ١٩٠٥ تعلمت «بيرل» فى إحدى مدارس-الإرساليات ، ثم سافرت إلى « شانجهاى » لتلتحق هناك بمدرسة الأنسة جوويل ومن منظور أدبى كان أثنى شىء فى السنة التى قضتها « بيرل » فى هذه المدرسة هى الخبرات التى نالتها فى شتى الأعمال الاجتماعية التى كانت تؤديها مديرة المدرسة . وأولها هى

تلك الزيارات إلى مؤسسة للجوارى اللاتي هربن من قسوة معاملة مَنْ يملكونهن . ولما كانت « بيرل سيدينستريكر » تتحدث الصينية بطلاقة فقد أجرت كثيراً من المناقشات والحوارات الطويلة مع أولئك التعيسات ، وعلمت منهن خلفياتهن وخبراتهم وتجاربهن . وفي محاولة لزيارة وتقوية مشاعر « بيرل » الدينية ، ولكى ترى ضرورة القيام بأعمال طيبة صالحة ، كانت الأنسة « جوويل » كثيراً ما تصحبها معها إلى مؤسسة تؤوى نساءً بيضاوات فقيرات منبوذات ، وكانت غالبيتهن من بائعات الهوى . وفي ذلك الوقت كانت « بيرل » فى طور المراهقة ، فأخذت على عاتقها تعليم النزيلات الحياكة ، وقراءة الكتب والقصص لهن ، وأدت غير ذلك من الأعمال الخيرية ولكنها حين ذهبت لزيارة والديها فى عطلة أعياد الربيع ، وتحدثت عن إسهامها فى الأعمال الخيرية التى تقوم بها الأنسة « جوويل » رفضت أمها السماح لها بالعودة إلى هناك . وإذا افترضنا أن السنة التى أمضتها « بيرل » فى مدرسة الأنسة جوويل لم تتح لها مزيداً من التعلم من الكتب ، فإنها وسعت وعمقت خبراتها وتجاربها الإنسانية ، ومنحتها مزيداً من معرفة العالم .

هذه الخلفية العريضة ، والتدريب التربوى المتنوع أثبت نفعه حين سافرت « بيرل سيدينستريكر » فى عام ١٩١٠ إلى الولايات المتحدة لتلتحق بكلية « راندولف ماكون » النسائية بولاية « فرجينيا » وهناك كانت تكتب قصصاً فى المجالات والصحف التى تُصدرها الكلية ، وأسهمت فى كتابة مسرحية تُمثَّل فى الفصل وفازت بجائزتين أدبيتين فى

عام التخرج ، كانت إحداهما عن أفضل قصة قصيرة تكتبها طالبة في كلية « راندولف ماكون » ، والجائزة الأخرى عن أحسن قصيدة .

وسرعان ما أدركت « بيرل » خلفيتها الصينية ووعتها جيداً حين لفتت أنظار زميلاتهن من الطالبات اللاتي كُنَّ ينظران إليها بفضول ، واعتبرنها غريبة الأطوار . وحتى تصبح جزءاً من المجموع رأت أنها يجب أن تَقْصِلُ إلى درجة ما بين عالميها ، ولهذا بدأت تلبس وتتحدث بمزيد من الأسلوب الغربي . وحين أتمت أول أعوامها هناك ، كان انتسابها إلى عالم جديد قد اكتمل تقريباً ، ومع ذلك فقد سجلت أنها لم تكن مرتاحة ومتحررة من القلق تماماً في السنوات التي أمضتها في كلية « راندولف ماكون » ، ولكنها أخيراً أصبحت في مكان الصدارة على فصلها .

وكان من أشق الأمور أن تتكيف مع أقارب والديها ، والذين كانت كثيراً ما تزورهم في العطلات . لقد أصبحت مولعة بمنطقة جبال « أليجيني » التي يقطنون فيها، غير أن طفولتها والتعليم الذي تلقته في الشرق الأقصى حال بينها وبين أن تصبح جزءاً متكاملًا مع حياتهم ، ومع ذلك ، فبينما كانت تشعر في بعض الأحيان أن الشد والتوتر الشرقي والغربي في خلفيتها منقسمان ، فإنها أصبحت تدرك أن تلك التوترات كانت في الحقيقة مشدودة ومرتبطة معاً بشكل دائم في عقلها وقلبها .

وبعد أن حصلت على بكالوريوس في الآداب من كلية « راندولف ماكون » النسائية في عام ١٩١٤ دُعِيَتْ إلى العمل بها كمدرسة مساعدة في قسم علم النفس والفلسفة ، وقد قبلت هذا المركز بعض الوقت ، غير أن

مرض أمها الخطير جعلها تعود إلى الصين قبل نهاية عام ١٩١٤ . كان والداها قد أنجبا سبعة أطفال ، لم يعيش منهم إلى طور المراهقة سوى ثلاثة فقط . إن شقيقها الذى يكبرها بعشرة أعوام سافر ليدرس فى الولايات المتحدة ، حيث استقر هناك نهائياً . ولما كانت شقيقتها «جريس» تصغرها بسبع سنوات ، ونظراً لانشغال والداها فى أنشطته الخاصة بإرساليته الدينية، كان لزاماً على « بيرل » أن تعود إلى الصين لرعاية أمها المريضة وقد أخذت على عاتقها العناية بها وقامت أيضاً بتدريس اللغة الإنجليزية لطلبة السنة النهائية فى المدرسة العالية . وفى أوقات الفراغ واصلت دراسة الكتابة الصينية بشكل أعمق ومكثف . وعندما استردت والدتها صحتها جعلتها ترأس جلسات اللقاءات التى تُعقد مع النساء الصينيات لمناقشة مشاكلهن والاستماع إلى وجهات نظرهن . وأخيراً أتاح لها شفاء أمها فرصة تكريس كل وقتها لمزيد من الدراسة بجانب الاضطلاع بمهنة التدريس .

وبعد انقضاء ثلاثة أعوام على عودة « بيرل سيدينستريكر » إلى الصين ، تزوجت « د جون لوسينج باك » وهو خبير زراعى أمريكى جاء أصلاً من ولاية نيويورك ، وكانت هيئة الإرساليات البروتستانتية قد عينته لتعليم الصينيين طُرُق الزراعة الأمريكية . ونهبت «بيرل» وزوجها ليعيشا فى «نانهسوتشو» فى إقليم « أنهواى » بشمال الصين . وهناك اطلعتُ بعمق على أحوال الفلاح الصينى ، وطُرُق الزراعة التى يتبعها ، وكفاحه مع الجفاف والقحط والمجاعة ، وأساليب نشاطه المعتاد يوماً

ببوم من أجل البقاء . وكانت تُصاحب زوجها في رحلاته العديدة للريف . وبينما كان هو يناقش الرجال في طُرق الزراعة وأساليبها التكنولوجية ، كانت « بيرل » تختلط مع النساء والأطفال وتلاحظ حياتهم .

وفي تلك المنطقة الواقعة في شمال الصين ، لم يكن سوى قلة من الجنس الأبيض يعيشون هناك ، وكانت هي أول شخصية بيضاء تقع عليها أنظار معظم السكان في ذلك المكان ، وكانت تستمتع بزيارة هؤلاء الناس وتغريهم بالمشاركة في الحوار الطويل معهم لكي تعلم الكثير عن حياتهم . وقد فتنتها تلك الأُسُر الريفية التي كانت تعمل بالزراعة على نحو بالغ المشقة ولا تحصل إلا على قدر ضئيل من المال . ولما كان زوجها على معرفة عريضة بشئون الزراعة ، أمكنها أن تستقى معلوماتها مباشرة وبدقة من ملاحظاتها الشخصية ، ومما درسه زوجها وتخصص فيه . وقد رأت « بيرل باك » في هؤلاء الناس الذين يعلمون بالزراعة في شمال الصين أنهم يمثلون الصينيين الأكثر أصالة والتصافاً بالأرض في السراء والضراء ، وفي الضحك والبكاء ، من المهد إلى اللحد . وتقول « بيرل باك » إن زيارتها للإسُر الريفية قد أصبحت وسيلتها الخاصة وراء البحث عن الحقيقة ، وأنها وجدت بينهم الإنسان الأشد قرباً من الكائن البشرى ومنذ ذلك الوقت تغلغل في أعماقها ، وانتشر بين جوانحها حب ثابت صامد مخلص للفلاح الصيني الذي غرس حبها له في كل كيانها ، وارتحل معها إلى أعمالها الأدبية .

مكثت « بيرل باك » خمسة أعوام في شمال الصين ، ثم رحلت مع

زوجها جنوباً إلى « نانكينج » حيث حصل « جون لوسينج باك » على وظيفة مدرس في جامعة « نانكينج » لتدريس طرق الزراعة ، في حين وافقت « بيرل » على تدريس الأدب الإنجليزي بالجامعة نفسها . وكان ذلك بداية لفترة تقرب من عشر سنوات ، قامت خلالها « بيرل » بالتدريس، ليس في جامعة « نانكينج » فقط ، بل في الجامعة الشرقية الجنوبية أيضاً ، وفي جامعة « تشونج يانج » .

وفي أكتوبر عام ١٩٢١ توفيت « كارولين سيدينستريكر » والدة «بيرل»، وعقب موتها بدأت ابنتها تكتب سيرة حياتها كزوجة لمبشر في رسالية دينية ، وكان ما كتبتة تذكارة لأسرتها . وقد أنجزت مخطوطها الذي وُضِعَ جانباً طوال سنوات عديدة . وكانت تلك السيرة الذاتية في الحقيقة أول كتاب لبيرل باك ، وعلى الرغم من أنه قد تمت مراجعته وتوسيعه وإيضاحه بالتفصيل فيما بعد ، فإنه لم يُطَبَع إلا في عام ١٩٣٦ .

كانت حياة « بيرل باك » في « نانكينج » مختلفة تماماً عن الحياة الريفية في شمال الصين ، فقد بدأت الأفكار الحديثة تتسلل الآن إلى العادات التقليدية الصينية القديمة وطُرق معيشتهم ، وكان كثير من الشباب الصينيين قلقين، والثورة تتأججُ في نفوسهم ، وكان طلبة الجامعة بوجه خاص في حالة حيرة وارتباك .. لقد تربوا في نظام محافظ بمجتمع أبوى يتميز بسُلطة الأب المطلقة على الأسرة ، وهم الآن يواجهون أفكاراً متحررة ، وأساليب تفكير حديثة . . وكانت الثورة السياسية والاجتماعية تطلق في الأجواء ، وظهرت المناداة بالشيوعية ، وشعر

هؤلاء الطلبة بوقوعهم بين فكَّين طريقة الحياة القديمة ، والأفكار الديناميكية التقدمية الجديدة . وتطلع الكثيرون منهم إلى الدول الغربية سعيًا وراء التنوير ، ومع ذلك فقد رَأَوْا تناقضًا وعدم ترابط منطقي وفسادًا ، ولاحظوا أن المثالية الغربية كثيرًا ما كانت تخالف التطبيق العملي في الغرب .

كانت حياة « بيرل » في الصين شيئًا أسيرًا فاتنًا ، تفجرت فيه مواهبها. وبذلت جهدًا كبيرًا في كتابة سيرة حياة والدتها . كما عازمت على تسجيل بعض انطباعاتها عن دولة كانت تعاني آلام مخاض التغيير . وأرسلت أولى مقالاتها عن هذا الموضوع إلى مجلة « أطلانتيك » الشهرية التي نشرتها في عدد يناير عام ١٩٢٣ ، وكانت بعنوان « في الصين أيضًا » وقد ناقشت في هذا البحث بعض الممارسات الجديدة انتشار تدخين السجائر شعبيًا ، نمو الاختلاط الاجتماعي الودّي بين الجنسين والصداقة بينهما ، الرقص الأمريكي ، والتمرد ضد السلطة الأبوية . وكانت مشكلة الزواج في تلك الأعوام شديدة التعقيد ، مثيرة للحيرة ، ففي الأزمنة السابقة كان الآباء يختارون للابن البنت التي ستشاركه الحياة الزوجية ، وكذلك ينتقون لابنتهم الزوج الذي سيرتبط بها ، ويتولى هؤلاء الآباء أيضًا إعداد ترتيبات الزفاف ، أمّا الآن فإن الكثيرين من الشباب الصيني يطالبون بحق اتخاذ قرار الزواج بأنفسهم ، على النمط السائد في الغرب .

واصلت « بيرل باك » الكتابة عن تيمات معاصرة ، كما بدأت تظهر لها

مقالات إضافية في « فورم » و « نيشن » وغيرها من المجالات . وفي أثناء ذلك الوقت بدأت تكتب أيضًا قصصًا قصيرة ، وتخطط لراويتها الأولى . وكانت تواصل القراءة بنهم ، ليس في الأدب الصيني التقليدي فحسب ، بل أيضًا للكُتَّاب الغربيين ، مثل الروائيين الفرنسيين « إميل زولا » ، و «مارسيل بروست » ، والروائي والقصاص الأمريكي « إرنست هيمنجواي » ، وكاتب المقالات الأمريكي « هنري دافيد ثورو » الذي تأثر بتولستوى ، وكذلك بفغاندى ، الذى أوحى إليه بمقاله عن العصيان المدنى، الذى تطور إلى المقاومة السلبية . وبوجه خاص فازت أعمال الروائي الأمريكي « تيودور درايزر » بإعجابها . وقد سجلت « بيرل » أنها قبل أن تبلغ العشرين من عمرها كان الروائي الإنجليزي « تشارلز ديكنز » كاتبها المفضل . وقالت عنه : « لقد فتح عينيَّ على الناس ، وعلمنى حب شتى صنوف البشر » . لكنها بعد سن العشرين أصبح الروائي الأمريكي « تيودور درايزر » على رأس الكُتَّاب الذين تختار أعمالهم، وتبعه الروائي الأمريكي « سينكلير لويس » . وكانت « بيرل » مولعة بما تبوح به الشخصيات ، وما يتكشف للعيان ، خاصة إذا كان مثيرًا للدهشة على نحو مفاجئ . ونظرت بعين الاحترام والتقدير إلى « درايزر » و « لويس » والروائية الأمريكية « إيلين جلاسجو » لمقدرتهم على تحليل الشخصية الأمريكية .

وبالإضافة إلى الكتابة والقراءة على نطاق واسع في أثناء تلك الفترة ، واصلت نشاطها بكل طاقتها في مسيرة حياتها المتعددة الجوانب بكل كدٍّ

ومثابرة ، وبدون كلل أو ملل .. تلك التى أصبحت من الصفات الأساسية التى تتسم بها حياتها . واحتفظت بموقفها كمحاضرة جامعية فى الادب ، مع قيامها بواجباتها المنزلية ، وأزعجها وأرهقها كثيرًا حالة طفلتها الأولى «كارول» التى كانت تنذر بعلامات تثير الذعر ، تشير إلى تخلفها عقليًا ، فسافرت بها إلى الولايات المتحدة لتتلقى علاجًا طبيًا ، ومع ذلك فقد اكتشفت أن ابنتها الصغيرة ستظل مُعاقّة دائمًا .

ولكى تحوّل انتباهها عن هذه المأساة سجلت نفسها فى جامعة «كورنيل» كدراسة للحصول على درجة الماجستير فى الأدب الإنجليزى ، وكان زوجها يدرس هناك أيضًا، فغاب عن الصين لمدة عام . وفى السنة التالية أنجزت رسالتها عن كتّاب المقالات البريطانيين فى القرن التاسع عشر ، ونالت درجة الماجستير عام ١٩٢٦

وحينما كانت فى « كورنيل » عانت من شدة حاجتها إلى المال ، فعزمت على الاشتراك فى المنافسة من أجل الفوز بالجائزة الكبرى التى قدمتها الجامعة ، وقدرها مائتا دولارٍ تُمنح لأفضل مقال عن موضوع دولى هام . وقد حاول أستاذاها أن يثنيها عن عزمها ، ناصحًا إياها بأنه لا حظ أن تلك الجائزة تُمنح عادة لطالب فى قسم التاريخ . وعلى الرغم من ذلك دخلت المسابقة ، وفازت بالجائزة . وكان موضوع مقالها عن « الصين والغرب» . وهكذا التقى عالما الشرق والغرب بما يحملان من دلالة ومغزى فى حياتها مرة أخرى .

وقد استقالت « بيرل باك » من هيئة الإرساليات الدينية التبشيرية فى

عام ١٩٣٣ ، بعد أن نشرت مقالاً نقدياً عن المرسلين التبشيريين .

وفي عام ١٩٣٥ طُلِّقَتْ من « جون لوسينج باك » . وفي العام نفسه تزوجت « ريتشارد جون والش » رئيس شركة « جون داي » للطباعة والنشر ، ورئيس تحرير مجلة آسيا . وأقاما فيما بعد في الولايات المتحدة . واستمرت هذه الزيجة حتى وفاته عام ١٩٦٠ .

وقد اختيرت « بيرل » في عام ١٩٣٦ عضواً بالمعهد القومي للفنون والآداب . وامتد تعاطف « بيرل » نحو الجميع ، وخاصة الأطفال والبنساء الذين لَاعَوْنَ لهم . وبعد الحرب العظمى الثانية أنشأت مع زوجها في عام ١٩٤٩ « بيت الترحيب » وكالة لتبني الأطفال غير الشرعيين من أصل أمريكي آسيوي . وفي عام ١٩٦٤ أنشأت مؤسسة «بيرل سيدينستريكر باك » لرعاية الأطفال الأمريكيين الذين بقوا فيما وراء البحار . وفي عام ١٩٦٧ تبرعت لهذه المؤسسة بمعظم ما كسبته من أموال ، والتي تجاوزت سبعة ملايين دولار . وعملت أيضاً على إنشاء مدارس مهنية للمعوقين . ومن أجل مجهوداتها الإنسانية مُنحت جائزة الإخاء من مؤتمر المسيحيين واليهود ، وجائزة « ويزلي » لما أدته من خدمات بارزة للإنسانية ، وأكثر من اثنتي عشرة درجة من درجات الشرف من الكليات والجامعات الأمريكية

لم تكن رواية « رياح الشرق .. رياح الغرب » أول رواية تكتبها «بيرل باك » فقد كتبت رواية قبلها ، غير أن جنود الثورة الشيوعية القومية التي نشبت من ١٩٢٦ إلى ١٩٢٧ حين استولوا على « نانكينج »

اقتحموا منزلها وأتلفوا تلك الرواية . وكانت السيدة « لو » قد أسرع  
قبل ذلك إلى البوابة الخلفية حيث أنقذت أصدقاءها البيض .. « بيرل باك »  
وأسرتها ، وأخفتهم في كوخها الطيني . وعمل جيرانها الصينيون على  
حماية تلك الأسرة ، ونقشت في ذاكرة « بيرل » امتنانها لكثير من  
الصينيين الذين خاطروا بحياتهم في تلك الفترة العصبية لمعاونة الأجانب  
البيض . كانت هناك خسائر مادية ، ولكن شعورها بأهمية العلاقات  
الإنسانية تغلغل في أعماق قلبها . ولاغرابة أن كتابها « عوالمى المتعددة »  
عن سيرتها الذاتية ، والذي يُعدُّ وثيقة حارّة عن الإنسانية ، نراها تعترف  
بنزاهةٍ - ودون تحيزٍ - أنها لو كانت صينية شابة - تعلمت ودرست عن  
شتى الحروب التى شنّها الرجال البيض ، والامتيازات التى حصلوا  
عليها ، واغتصابهم للسلطة ، وعقدهم للمعاهدات غير المتكافئة ، وغير  
ذلك من المظالم التى جلبوها إلى الصين - فإنها أيضًا كانت ستتوق إلى  
إقصاء وطرد البيض من بلدها وقد أشارت « بيرل باك » فى الوقت نفسه  
إلى أن هناك كثيرًا من الصينيين مَجَّدُوا الإنسانية والرحمة ، ورفعوهما  
فوق الحقد والعداء ، على الرغم من أنهم كانوا على وعى وإدراك بمظالم  
الماضى .. وقد نبع اقترابها الإنسانى من الناس فى كل مكان من مثل هذه  
الخبرات والأفكار .

و « بيرل باك » لا تشجب التفرقة العنصرية حيثما تجدها فحسب ، بل  
نراها أيضًا فى معظم أعمالها الروائية وغيرها من فروع الأدب ومقالاتها  
تسعى إلى شرح وتوضيح صورة الآسيويين إلى الأمريكيين ، والأمريكيين

إلى الآسيويين ، هادفة إلى تحقيق فهم متبادل لمواقف وأوجه الخلاف ، ومشاكل كل من الطرفين .

ومن أوائل مقالات « بيرل سيدينستريكر » التي نُشرت في مجلة «كريستيان سينشري» في عام ١٩٣٣ بعنوان « هل هناك قضية بخصوص الإرساليات التبشيرية الأجنبية » ، والتي أثارت غضباً من جراء اتهامها لتلك الإرساليات ، وما شنته من هجوم ضدها وضد الكنائس نفسها ، التي تفتقر إلى التعاطف مع الناس ، وكل همها ينحصر في أعداد المهتمين إلى الدين الجديد أكثر من رعايتها لما يحتاجه جمهورهم إن « بيرل باك » كاتبة غزيرة الإنتاج ، وكانت أحياناً تكتب باسم مستعار « جون سيدجيز » لتجد حرية في كتابة روايات تتناول موضوعات أمريكية .

### ومن أهم أعمالها الروائية :

« رياح الشرق رياح الغرب » (١٩٣٠) - « الأرض الطيبة » (١٩٣١) - « الأبناء » (١٩٣٢) - « الأم » (١٩٣٤) - « بيت منقسم » (١٩٣٥) - « بيت من الطين » وهي ثلاثية تشمل الأرض الطيبة - الأبناء - بيت منقسم .. في مجلد واحد (١٩٣٦) - « هذا القلب المتكبر » (١٩٣٨) - « الوطنى » (١٩٣٩) - « آلهة آخرون » . أسطورة أمريكية (١٩٤٠) - « بذرة التنين » (١٩٤٢) - « سماء الصين » (١٩٤٢) - « الوعد » (١٩٤٣) - « انطلاق الصين » (١٩٤٥) - « صورة زواج » (١٩٤٥) - « أحد أبناء المدن » (١٩٤٥) ( باسمها المستعار جون

سيدجيز) - « جناح الحريم » (١٩٤٦) - « الزوجة الغاضبة » (١٩٤٧) -  
(باسمها المستعار : جون سيدجيز) - « نبات الفاوانيا » (١٩٤٨) -  
« الأنباء » (١٩٤٩) - « الحب المديد » (١٩٤٩) (باسمها المستعار جون  
سيدجيز) - « رجال الله » (١٩٥١) - « الزهرة الخفية » (١٩٥٢) -  
الموكب المتألق » (١٩٥٢) (باسمها المستعار جون سيدجيز) - « تعالى  
يا محبوبتي » (١٩٥٣) - « أصوات في البيت » (١٩٥٣) (باسمها  
المستعار جون سيدجيز) - « امرأة إمبراطورية » (١٩٥٦) - عن آخر  
إمبراطورة صينية - « رسالة من بكين » (١٩٥٧) - « فلتأمر الصباح  
(١٩٥٩) - « الشيطان لا ينام أبداً » (١٩٦٢) - « القصب الحى »  
(١٩٦٣) - « موت في القلعة » (١٩٦٥) - « الوقت ظهراً » (١٩٦٧) -  
« العام الجديد » (١٩٦٨) - « بنات السيدة ليأتج الثلاث » (١٩٦٩) -  
« الماندالا » (١٩٧٠) . رمز الكون عند البوذيين - « الإلهة باقية »  
(١٩٧٢) - « كلهم يلتحفون السماء » (١٩٧٣) - « قوس قزح »  
(١٩٧٤).

هذا ، وقد حظيت رواية « رياح الشرق .. رياح الغرب » بشعبية  
كبيرة ، حتى أنها طُبِعَتْ ثلاث مرات في أقل من سنة ، وهى تدور عن فتاة  
تدعى «كوای لان» وزوجها الطبيب . وطبقاً للعادات الصينية القديمة ،  
قامت أسرة «كوای لان» بخطبتها إلى زوجها المستقبل حتى من قبل أن  
تولد . كانت كوای لان وأسرتهما يتمسكون بالتقاليد والسلوكيات القديمة.  
ولكن زوج «كوای لان» الذى تعلّم في الخارج طوال اثنى عشر عاماً

يعتقد في المساواة ، والاتجاهات الحديثة ، والممارسات الديمقراطية الغربية. ومن هذا الانقسام والانفصال الناجم عن الولاء والإخلاص لقضيتين مختلفتين ينشأ الصراع الأساسي في الرواية . وكان ذلك الصراع مشكلة حيوية بالنسبة للصين في القرن العشرين ، ومبعث حيرة وارتباك وتعقيد في العشرينيات والثلاثينيات على وجه خاص .

وفي هذه الرواية تكتب « كواي لان » قصتها على شكل مونولوج تتحدث فيه طويلاً في سلسلة رسائل إلى صديقة لها - قَدِمَتْ من بلد أجنبي لكنها استقرت في الصين وقد اختارت « كواي لان » هذه المرأة دون ذكر اسمها ، متخذةً منها مستمعة فقط ، لأنها تعرف كلاً من اتجاهات الغرب وممارسات الشرق . وقد شرعت « كواي لان » تروى قصتها ، لأنها لم تكن سعيدة في بداية زواجها ، وفي أمْس الحاجة إلى سرد حالتها التعيسة ، والمأزق الذي تعيش فيه ، وإلى أذن حانية متعاطفة معها.

في ليلة زفاف « كواي لان » أخبرها زوجها أنه يعتبرها على قدم المساواة معه ، كرفيقة له وليست جارية أو إحدى ممتلكاته ، وقد شرح ذلك مبيناً أنه يريد أن يتبع الأساليب الحديثة السائدة في الحياة الغربية ، ووافق على منحها وقتاً كى تكيف نفسها مع هذا الوضع . صُعقت « كواي لان » فهي - طبقاً للعادات والأساليب القديمة - تعتبر نفسها في مرتبة أدنى من زوجها ، وأنها مجرد تابعة له ، ولم تستطع أن تفهم رغباته . والأدهى من ذلك أنها تحيرت وارتبكت حين رفض زوجها أن

تقوم بواجباتها وخدماتها لوالدته ، وأنه لن يسمح بقيام زوجته بعمل الخادمة . كذلك كان من المعتاد أن يعيش الزوجان مع والدَي الزوج ، إلا أن زوج « كواى لان » أصر على أن يعيشا معاً في بيت مبنى على النموذج الغربى . وحين تقابل « كواى لان » بعض أصدقاء زوجها الغربيين ، تبدو غير مرتاحة ، إذ وجدت الأساليب الغربية عجيبة ، وشعرت بالقلق إزاء عزلة زوجها الذى يستغرق تماماً في اهتماماته الطبية . وعلى الرغم من أن أسرته بالغة الثراء ، ويمكنه أن ينفق أيامه في راحة وحمول ، وأن يختار حياةً مرفهَةً ، فإنه يرفض ذلك ، ويمارس عمله كطبيب بنشاط وحماس .

وأصرَّ زوجها على حل رباط قدميها ويقول : إنها قبيحتان ويرسم لهما صوراً تحمل تلك الصفة ، ويرسم العظام منحنية ملتوية . وفجعت « كواى لان » باقتراح زوجها ، وهى التى كانت دائماً فخورة بقدميها الصغيرتين كمظهر عام من الجمال . وطوال مرحلة طفولتها كانت أمها تشرف بنفسها على نَقْعِهَا في الماء الساخن وشَدَّهَا بالأربطة « ويزداد الشدُّ يوماً بعد يوم ، وعندما بكت من الألم المبرح دعته إلى تذكُّر أن زوجها في يوم من الأيام سيثنى على جمال قدميها . وهى ذى الآن تعلم أن زوجها ينتقد ويعارض بشدة هذه الممارسة

حملت « كواى لان » مشكلتها إلى أمها ، التى ذهلت مِمَّا قصته عليها ابنتها . وعلى الرغم من أنها ربتها وَفَّقَ الطرق والأساليب القديمة ، فإنها أخبرتها أنها منذ أن تزوجت لم تعد تنتمى لأسرة والديها ، ولكن لزوجها ، وليس عليها سوى طاعته والخضوع لإرادته . كانت تحب زوجها .

ورويداً رويداً كانت معرفتها للطرق والأساليب الحديثة تنمو ببطء ، ووافقت على حلّ رباط قدميها ، وأذعنت لما يرغبه زوجها . وحين فهم أنها تحاول اتباع العادات الغربية عن طيب خاطر ، كَفَّتْ عن حياة العزلة ، وبدأ يُعَلِّمُهَا بعضاً من أساسيات العلم ، والأفكار الحديثة . ابتهجت «كواى لان» باهتمام زوجها ورعايته لها ، وأصبح زواجها الآن ناجحاً .

أما القسم الثانى من رواية « رياح الشرق .. رياح الغرب » فيتناول شقيق « كواى لان » ويضيف مشكلة الزواج المتبادل بين الأجناس والسلالات المختلفة إلى الصراع الرئيسى بين الطرق والأساليب السائدة فى كل من الشرق والغرب. وتواصل « كواى لان » مرة أخرى سرد الأحداث فى سلسلة رسائلها التى تبعث بها إلى نفس صديقتها

وقد علمنا فى القسم الأول من الرواية أنّ والدة « كواى لان » وأباها انزعجا حين رفض شقيقها الزواج من الفتاة « لى » التى خطبتها له أسرته. ومن ثمّ رَحَلَ فيما وراء البحار ليدرس العلوم الطبيعية . ثم نعلم الآن أنه يود أن يتزوج فتاة أمريكية تدعى « ماري » . وها هو ذا يكتب رسالة إلى والديه يسألهما السماح له بالزواج منها ، وفسخ خطبته القديمة لابنة « لى » حين كان طفلاً . رفض والده إجابته إلى طلبه ، وأمراه أن يعود ويؤدى واجبه الحقيقى نحو أسرته . ولكنه على الرغم من ذلك يتزوج « ماري » فى الولايات المتحدة ويعود معها إلى الصين .

يغضب والداه غضباً منكرًا عنيفاً ، وتميّرًا غيظًا.. وفى أول الأمر

ترفض أمه استقبال الزوجة الأجنبية ، ويعمد والده إلى الغياب لانشغاله في إنجاز أعماله . وأخيراً تُدثر « كواى لان » زوجة أخيها بثوبٍ صيني ، وتُدبّر الأمر، كي تقدمها إلى الوالدة ، ولكن الأم لاتقر تلك العلاقة ، وتجهض محاولات « كواى لان » كي تتوسط لإصلاح ذات البين ويشتد اضطراب الأم ، ويزداد اهتياجها ، وتمرض في النهاية . وتحت وطأة هذه الظروف تكتب إلى ابنها موافقة على مجيئه مع زوجته ليقطن في أحد مساكن بيت الأسرة . وعاونت « كواى لان » زوجة أخيها في حزم صناديقها ، وغادر شقيقها وزوجته بيت أخته راجلين إلى بيت أسلافه . وهناك نبذت الأسرة الزوجة الأجنبية ، وأرغمت على أن تعيش كسجينة معزولة عن العالم . وبعد أن تعلم الأم بأن الزوجة الأجنبية حامل ، تنهار في حالة إحباط ووهن وضعف . وسرعان ما تقضى نحبها دون أن تعترف بالأجنبية كزوجة لابنها . وطبقاً للقانون الصينى ، لا يحصل الابن على ميراثه الشرعى ما لم يعترف أحد الوالدين بزواجه

وبعد وفاة والدته يسأل الابنُ أباه أن يعترف بزواجه الشرعى، وبعد مراوغة يرفض الأب التماسه ، ويُطلب منه والده - كما سبق أن طلبت ذلك أمه - أن يتزوج الفتاة التى اختيرت له ، وهى ابنة « لى » ، وبذلك يقدم الدليل على مَوَدَّة الأسرة وفى فقرة درامية مكثفة يتبرأ شقيق « كواى لان » من أسرته ، ويصر على إزالة اسمه من سجلات العشيرة ، وقطع علاقته تماماً بأقاربه وأسلافه وغادر هو وزوجته بيت أبيه ، وحصل على وظيفة مدرس بمدرسة حكومية وأنجبت له زوجته ابناً .

وتصف « كواى لان » الحُزْنَ الذى أحاط بمولد هذا الابن ، فقد انفصلت أمه عن بلدها ومواطنيها ، وحَطَّم أبوه روابط أسلافه . هذا صحيح ، ولكن الطفل قد وَحَّدَ فى الوقت نفسه بين القديم والحديث ، وبين الشرق والغرب . وتختتم « كواى لان » حديثها مقررّة أن الطفل المولود حديثاً سيصل إلى فهم كل من العَالَمَيْنِ - الشرق والغرب - ويصبح أكثر قوة ، وأبلغ حِكْمَةً ، من ذلك المنطلق .

أبانت « بيرل باك » عن حِسِّ مُرْهَفٍ وهى تكتب بأسلوب شاعرى ورومانتيكى حافل بكثير من الصور الثرية بالألوان التى تنبض بالحياة ، وتذكرنا بالترجمة الإنجليزية الشهيرة المتألقة التى قام بها « إدوارد فيتزجيرالد » فى القرن التاسع عشر لرباعيات الخيام ، التى جادت بها قريحة الشاعر الفارسى عمر الخيام وهو يصور مباحج الحب وأحزانه .

وفى تصوير « بيرل باك » لشخصيات المحظيات فى بيت والد « كواى لان » بأدق التفاصيل ، حقق لها ما تقصده ، وهى تعدد لنا أسلوب حياة وسلوكيات الأُسَرِ الصينية الأرستقراطية ، وأتاحت لنا التأكيد من الفروق الكاملة فى العادات بين الصين والغرب .

وكانت « بيرل » مقنعة فى سردها لواقعية المشكلة بطريقة معقولة توحى بالثقة . ونقلت إلينا الرواية ببراعةٍ نكهةً محددةً واضحة للخلفية والمشهد ، والمكان ، وبصدق أصبح فيما بعد صفة جوهرية فى روايات وقصص «بيرل باك» .

وأحيانا تسود النزعة العاطفية ، وخاصة في مشاعر « كواى لان » نحو بيت أسرتها ، وقرحها وسرورها بمولد ابن لها ، ورد الفعل بالنسبة لابن زوجة أخيها . وهناك أيضاً نزعة إلى الاستفاضة في التشابه بين « كواى لان » وزوجة أخيها في تأثرهما بجمال وسحر الأطفال ، إلا أن ذلك يقوى ويعزز نظرة عالمية واحدة ، وأن الناس في انفعالاتهم وعواطفهم ومشاعرهم متشابهون كثيراً ، بغض النظر عن اختلاف أجناسهم .

وتحوى رواية « رياح الشرق .. رياح الغرب » كثيراً من الفقرات المؤثرة، وتيمتها ذات معنى وهدف . والشخص تقع في أسر مأزق التحرر من القديم ، والأخذ بالأفكار العصرية . وكان الحل السعيد في حالة «كواى لان» والحل شبه المأساوى بالنسبة لأخيها ، مقنعين . وكان اعتراض الوالدين الصينيين على زوجة ابنهما الأجنبية ورفضها لها يضرب على وتر حساس عام ، وكانت التوترات الناجمة عن تحاملهما . وتحيزهما المغرض ، ومواقفهم الغريزية تلفت الأنظار إلى المشكلة ، وتثير الاهتمام بها. وتشير إلى أن « بيرل باك » ضليعة متمكنة من معرفتها لموضوعها ، وتمتلك ناصية حس قصصى أصيل . وأبانت عن أنها روائية تمتاز بفهم عميق لكل من الجانبين في شتى صراعاتهما بين عالمين مختلفين ، وبين العادات القديمة والجديدة . وهكذا أقامت محوراً صلباً أدارت حوله عديداً من أعمالها التي تتناول تلك التيمات.

ومن حياتها في الصين حملت « بيرل باك » إعجاباً حاراً للناس العاديين الذين يعملون في الحقول ، فالصين دولة زراعية ، وهؤلاء

الفلاحون يُكوّنون أربعة أخماس تعداد الشعب ، وعلى الرغم من كثرتهم الساحقة فإنهم كانوا أكثر الناس تعرّضاً للمظالم ، وسوء المعاملة المستمرة على أيدي موظفي الحكومة ، واللصوص وقطّاع الطرق ، ومُلاك الأراضى ، هذا بالإضافة أنه كان عليهم الكفاح من أجل البقاء وهم يواجهون أخطاراً رهيبية من الفيضانات والمجاعات ، وحتى عندما كانوا يضطرون إلى الهرب جنوباً أو إلى مناطق أخرى بسبب تلك الكوارث ، فإنهم لا يلبثون أن يعودوا إلى الأرض كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . وقد اقتنعت « بيرل باك » بأن هؤلاء الفلاحين الطيبين يُكوّنون القلب الأساسى للصين ، واهتمامها بهم كأناص منحها نقطة انطلاق في أعمالها الإبداعية ، وأصبح حبها وتأييدها للفلاح الصينى من العناصر الأساسية في أفكارها وكتاباتها .

وفي رواية « الأرض الطيبة » تصف « بيرل باك » كفاح فلاح صينى وزوجته التى كانت جارية ، وتحلل لنا نمو الأسرة حين تتطور وتكتسب تدريجياً قوّة وتروية . وتُبيّن « بيرل باك » أن مثل تلك الأسر تبدأ من الأرض ، وإذا نشأت ظروف مواتية ، تزداد الأسرة مكانة ومنزلة وأهمية . وقد استوقفنى اعتراف « بيرل باك » بأنها حين تهيأت لكتابة « الأرض الطيبة » لم تكن هناك حبكة أو خطة ، وأن الرجل والمرأة وأطفالهما تمثلتهم أمامها ، وهذا يُذكرنى بما قاله الكاتب الروائى والقصاص الإنجليزى « إدوارد مورجان فورستر » ، فقد كان فى سلسلة محاضراته بجامعة « كامبردج » لا يحفل بالشكل ، وحسب الكاتب فى رأيه

أن يثب بنا إلى الاقتناع بشخصياته ، وأن يقدم لنا الحياة .. وهذا ما فعلته  
« بيرل باك » .

وتجيد « بيرل باك » مزج الواقع مع الرومانتيكية بنسب صحيحة .  
وقد تُرجمت رواية « الأرض الطيبة » إلى كثير من اللغات ، ومنها  
الصينية والعربية

وإذا انتقلنا إلى رواية « الأم » نجد أن « بيرل باك » كتبتها بالأسلوب  
البسيط المتماusk نفسه ، والشاعري أحياناً ، إلا أن المؤلفة تصور هنا  
جانباً مختلفاً من حياة الفلاح الصيني .. إذ أنه أكثر قسوة ووحشية وألماً.  
والشخصية الرئيسية بلا اسم ، وتُدعى فقط « الأم » ، وهى مرسومة  
بعناية. أمّا الشخصيات الأخرى فهى مسطحة ولا تتطور ، واستُخدمت  
فقط كأهداف تجذب انتباه « الأم » .

كان عالم تلك « الأم » مخالفاً لعالم « وانج لو ونج » فى رواية « الأرض  
الطيبة » ، الذى شَمَّر عن ساعد الجد والاجتهاد ، وعمل بأمانة فأقبلت  
عليه الدنيا ، بعكس « الأم » التى عاشت فى عالمٍ من الضحايا والفساد  
والانحراف الخُلُقَى ، والمشوهين من ذوى العاهات .. عالم تشوبه  
الكراهية والقسوة ، فيالها من لوحة تصور حياة امرأة فى الصين ، حيث  
كانت الإناث - من الأطفال الرُّضَّع - يُقْتَلْنَ روتينياً ، فى حين كانت تباع  
الفتيات الصغيرات من الأسر الفقيرة كجوارٍ . ولم يكن هناك سوى  
الفرحة التى تثيرها مجيء حياة جديدة .. ولادة الأطفال ونموهم لتحديث  
توازناً مع الحياة البائسة التى عاشتها الأم .

وعلى الرغم مما يقابلنا في عالم تلك الروايات من المأسى والأحزان ، والإحباط والسخرية ، والخيبة والفشل، فإنها ليست عالمًا بلا أمل . و «بيرل باك» تذكرني هنا بالأديب الروسى الشهير « أنطون تشيخوف » الذى تُعانى شخوصه من اليأس ، والإحساس بالتفاهة والبلادة ، ومع ذلك فإنهم يتشبثون بالحياة ، وعند فشلهم يطمون بالمستقبل .

و « بيرل باك » تكتب رواياتها وقصصها بلغة بسيطة ، تبدو فيها متأثرة بلغة الإنجيل ، الذى كانت أمها تجعلها تقرأه منذ صغرها بصوت عالٍ . هذا بجانب أنها متأثرة أيضاً بأسلوب القصصيين الذين تتدفق كلماتهم دون أى تكنيك آخر سوى مقدار قليل من الوصف يأتى عرضاً ، بحيث يكفى فقط لإعطاء حيوية للمكان أو للشخص ، على ألا يؤدي ذلك إلى إبطاء أحداث القصة

وعلى الرغم من أن معظم جمل « بيرل » طويلة ، فإنها أحياناً تتكسر إلى جمل أقصر ، تنقطع متغيرة إلى أجزاء من الفكر ، تتموج في حركتها .

ونلاحظ أيضاً أن « بيرل باك » كثيراً ما تكرر الكلمات للتأكيد على نقاط معينة ، وهى لا تستخدم أى كلمة باللغة الصينية ، ولم تكن فى حاجة إلى شرح إحداها ، بل كانت تترجم الكلمة الصينية إلى اللغة الإنجليزية كما تعنى بالنسبة للصينيين .

و « بيرل باك » تتناول رواياتها - مثل « رياح الشرق .. رياح الغرب » و « الأرض الطيبة » و « الأم » وكثير من أعمالها - بطريقة موضوعية ، متجردة غير متحيزة ، ومستقلة فى الرأى . شأن ما يتصف

به الأستاذ عالم الطب وهو يقوم بفحص المرضى أو تشريح الجثث على مشاهد من الطلاب متوخياً الدقة، وإيضاح كل شيء بإسهاب ، دون أن يُحجب عنهم أية تفاصيل أو يستغنى عنها . وبالمثل نجد « بيرل باك » لم تبخل على القارئ بأية تفاصيل . وروايتها تزخر بشتى الأحاسيس والانفعالات ، والعواطف، والآلام ، والأحزان ، وخيبة الأمل ، والغضب ، والحقد ، والقلق ، والارتباك ، والحيرة ، والشك ، ومشاعر الخوف والحرج ، والإشفاق والابتهاج . و « بيرل باك » تتحرك هنا في إطار المدرسة الطبيعية في الأدب ، ورائدة الأخوان « جونكور » . « إدمون دي جونكور » و « جول دي جونكور » ، وهما كاتبان فرنسيان عاشا في القرن التاسع عشر ومن رُؤاد المدرسة الطبيعية أيضاً الروائي الفرنسي الذائع الصيت « إميل زولا » من القرن التاسع عشر أيضاً ، وكان من أكبر المعجبين بالأخوين «جونكور» .

والطبيعية في الأدب محاولة لتطبيق الأسلوب العلمي في الكتابة الإبداعية . ويركز الكُتّاب الطبيعيون على العالم الطبيعي ، واستبعاد كل ما هو « فوق طبيعي » أى إقصاء أى قوة خارقة للطبيعة . ونادى « زولا » بأن الطبيعية هي تسجيل وثائقي لشريحة من الحياة بكل واقعيتها الخشنة المؤلمة ، وفحصها ودراستها ، كما يفعل العالم عندما يفحص عيّنة تحت المجهر «الميكروسكوب» . ويعتقد الكُتّاب الطبيعيون أن كل ما يفعله الإنسان تحدده الوراثة أو البيئة ، أو كلاهما معاً . ويؤكد الكُتّاب الطبيعيون أن أعمالهم تقترب من الواقع والحقيقة بأمانة ودقة أكثر من كُتّاب الواقعية ، فنالوا انتشاراً ورواجاً . ومع ذلك فبيرل باك تختلف عن

الكتاب الطبيعيين في أنها تثق أيضاً في الإرادة الحرة ، وتؤكد قوتها .

وفي ميدان القصة القصيرة .

- كتبت « بيرل باك » « الزوجة الأولى وقصص أخرى » ( ١٩٣٣ ) -  
« اليوم وإلى الأبد » ( ١٩٤١ ) - « سبع وعشرون قصة » ( ١٩٤٣ ) -  
« الأقصى والأدنى » ( ١٩٤٧ ) ( وهى قصص عن الصين واليابان  
وأمریکا ) - « الصين وأمريكا » ( ١٩٤٧ ) « لوح الرسم الثلاثى  
الأمريكى » ( ١٩٥٨ ) - « القلوب تجيء إلى البيت وقصص أخرى »  
( ١٩٦٢ ) - « العمل الطيب وقصص أخرى » ( ١٩٦٩ ) - « ذات ليلة عيد  
ميلاد » ( ١٩٧٢ ) - « الشرق والغرب » ( ١٩٧٥ ) - « أسرار القلب »  
( ١٩٧٦ ) - « العلق وقصص أخرى » ( ١٩٧٧ ) - « المرأة التى تغيرت  
وقصص أخرى » ( ١٩٧٩ ) .

وفي غير الأدب الروائى والقصصى ، نُشرت لبيرل باك الكتب الآتية .  
« الشرق والغرب والرواية » ( ١٩٣٢ ) - « كل الرجال إخوة » ( ١٩٣٣ )  
( وهى ترجمة لكتاب من تأليف تشوى هو تشوان ) - « المنفية »  
( ١٩٣٦ ) ( وهو كتاب عن سيرة حياة والدة بيرل باك التعدة المحبطة  
كزوجة لبشردينى ) « الملك المناضل .. صورة روح » ( ١٩٣٦ ) ( وهو  
كتاب عن سيرة حياة والد بيرل باك ، ويمتاز بأنه أكثر موضوعية ،  
ويرينا ذلك الوالد المبعوث في إرسالية دينية تبشيرية ، الذى كان يفيض  
حماساً بقلب قاسٍ ) ثم كتابا « المنفية » و « الملك المناضل » في مجلد  
واحد بعنوان « الروح والجسد » ( ١٩٣٧ ) - « الرواية الصينية »

(١٩٣٩) - « عن الرجال والنساء » (١٩٤١) وأعيد طبع الكتاب عام  
(١٩٧١) - « أمريكا المتحدة وآسيا » (١٩٤٢) - « ماذا تعنى أمريكا  
بالنسبة لى » (١٩٤٣) - « الصين بالأسود والأبيض » (١٩٤٥) -  
« حديث عن روسيا » (بالاشتراك مع ماشا سكوت) (١٩٤٥) - « فلتخبر  
الباس » (بالاشتراك مع جيمس بين عن حركة التربية والتعليم الشاملة)  
(١٩٤٥) - « كيف يحدث ذلك » (حديث عن الشعب الألماني فى الفترة من  
١٩١٤ حتى ١٩٣٣، باشتراك مع إرنا فون بوشتاو) (١٩٤٧) -  
« مناظرة أمريكية » (بالاشتراك مع إسلاندا جوود روبسون) (١٩٤٩)  
« الطفلة التى لا تنمو أبدًا » (١٩٥٠) (وهى تتعلق بابنتها المتخلفة  
عقليًا) « من صديق إلى صديق » (بالاشتراك مع كارلوس رومولو)  
(١٩٥٨) « ابتهاج الأطفال » (١٩٦٤) - « أطفال للتبنى » (١٩٦٥) -  
« الهدايا التى يجيئون بها » (دِين فى أعناقنا نحو المتخلفين عقليًا)  
(١٩٦٥) « شعب اليابان » (١٩٦٦) - « إلى بناتى مع الحب » (١٩٦٧) -  
« الصين كما أراها » (١٩٧٠) - « نساء كينيدي ... تقييم شخصى »  
(١٩٧٠) « قصة الإنجيل » (١٩٧١) - « أمريكا بيرل سيدينستريكر  
باك » (١٩٧١) « الصين فى الماضى والحاضر » (١٩٧٢)

وعن سيرتها الذاتية ألفت « بيرل باك » كتابين هما « عوالمى المتعددة  
» (١٩٥٤) و « جسر للمرور » (١٩٦٢).

وفى أدب الأطفال نُشر لها « الثائر الصغير » (١٩٣٢) - « قصص  
للأطفال الصغار » (١٩٤٠) - « يوم مشرق وقصص أخرى للأطفال »

(١٩٥٢) - « الرجل الذى غيّر الصين » ( قصة صن يات - سن )  
(١٩٥٣) - « جوني جاك وبداياته » (١٩٥٤) - « أربع عشرة قصة »  
(١٩٦١) - «رواى القصص الصينى» (١٩٧١)

وفى التأليف المسرحى نُشر لبيرل باك مسرحية « حَدَّثْ فى الصحراء»  
التي قُدمت فى مارس عام ١٩٥٩، ويقابلنا فيها علماء يعملون فى مشروع  
حكومى سرى فى موقع بصحراء أريزونا . وحين يعلم أحد العلماء  
الإنجليز بأنه فى الحقيقة يعاون فى إنتاج سلاح تدميرى رهيب أراد  
الانسحاب . وفى نهاية المسرحية يسلم الجميع بالخطر الماحق للمنتج  
الجديد، فيقرر العلماء محاولة توجيه الطاقة الذرية كى تستخدم فى  
الأغراض السلمية

وفى هذه المسرحية تُناشد « بيرل باك » العلماء الأمريكين والإنجليز  
كى يرفضوا إعطاء حكوماتهم أى معلومات عن أسلحة ، يمكن أن  
تُستعمل فى حروب قد تشتعل فى المستقبل

وتنبع قوة « بيرل باك » ككاتبة وأديبة من نكائها الخارق ، ورواياتها  
وقصصها وكتاباتنا التي يستمتع بها القارئ ، والتي لها مذاق رسالة  
هادفة جليّة واضحة مشرقة ، تنطلق من خبرة واقعية . ولا ريب أن ما  
أسهمت به فى التبادل الثقافى بين الصين والغرب ، وما قدمته إلى رحلة  
الحضارة والفكر لا يُقدَّر بثمن .

وقد تُوفيت « بيرل باك » فى « دانبى » بولاية « فيرمونت » فى السادس  
من مارس عام ١٩٧٣ .



## الدكتور غبريال وهبة

نُشر له ٢٨ كتابًا تشمل روايات ومجموعات قصصية ومسرحيات ودراسات نقدية في

الأدب الروائي والمسرحي كما نُشرت له ٦٧ قصة قصيرة ، و ٤٣٠ مقالاً ودراسة في النقد الأدبي والمسرحي والسينمائي بالصحف والمجلات بمصر وشقيقاتها العربيات . وهو عضو اتحاد الكتاب ، ونادى القصة ، وجمعية الأدباء ، ونقابة المهن التمثيلية (شعبة النقد ) ، والجمعية المصرية لكتاب ونقاد السينما ، والجمعية العربية للفنون والثقافة والإعلام . ويعمل نائب رئيس تحرير مجلة عالم الفكر .

والأديب الناقد الدكتور غبريال وهبة حاصل على بكالوريوس كلية العلوم ، جامعة القاهرة - ودبلوم دراسات عليا في التربية وعلم النفس - ودبلوم إشراف فنى من كلية التربية ، جامعة عين شمس - وليسانس في اللغة الألمانية من كلية الألسن - ودبلوم في اللغة الإيطالية من معهد دانتي أليجييري - ودرس اللغة الإسبانية لمدة عامين في المعهد الثقافى الإسباني - ودبلوم الدراسات العليا في النقد الفنى من أكاديمية الفنون - وماجستير في النقد الفنى من أكاديمية الفنون - ودكتوراه الفلسفة في الفنون من المعهد العالى للنقد الفنى بأكاديمية الفنون .

كتب صدرت للمترجم :

١ - الكيمياء في خدمة المجتمع :

لجنة البيان العربى ١٩٥٦ .

٢ - الطاقة الذرية :

لجنة البيان العربى ١٩٥٦ .

٣ - طرائف ومداعبات علمية :

مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٧ .

- ٤ - دنيا الدم :  
لجنة البيان العربى ١٩٥٨ .
- ٥ - الأصبغ أو الزمن ينصرم :  
ترجمة ودراسة - من سلسلة روايات عالمية - المؤسسة المصرية  
العامة للتأليف والنشر ( وزارة الثقافة ) ١٩٦٨ .
- ٦ - أيها الخادم الطيب المخلص :  
ترجمة ودراسة - من سلسلة روايات عالمية - المؤسسة المصرية  
العامة للتأليف والنشر ( وزارة الثقافة ) ١٩٦٨ .
- ٧ - سأخذ بثأرى :  
ترجمة ودراسة - من سللة روايات عالمية - المؤسسة المصرية  
للتأليف والنشر ( وزارة الثقافة ) ١٩٧٠ .
- ٨ - الدوامة :  
الهيئة العامة للتأليف والنشر ( زارة الثقافة ) ١٩٧٠  
وهى الرواية الفائزة بجائزة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .
- ٩ - العاصفة :  
العدد ٢٩٩ من روايات الهلال - نوفمبر ١٩٧٣ .
- ١٠ - ليالٍ لا تُنسى :  
العدد ٣١٧ من روايات الهلال - مايو ١٩٧٥ .
- ١١ - المسحوق السحري ومسرحيات أخرى :  
مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٥
- ١٢ - جسر بنات يعقوب :  
من سلسلة الإبداع العربى - الهيئة المصرية العامة للكتاب ( وزارة  
الثقافة ) ١٩٨٥ .

- ١٣ - دانتي والكوميديا الإلهية :  
مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٧ .
- ١٤ - أثر الكوميديا الإلهية لدانتي في الفن التشكيلي :  
من الألف كتاب ( الثاني ) - الهيئة المصرية العامة للكتاب ( وزارة  
الثقافة ) ١٩٨٧ .
- ١٥ - الزوجة الأولى :  
من سلسلة الرواية العربية - الهيئة المصرية العامة للكتاب ( وزارة  
الثقافة ) ١٩٨٧ .
- ١٦ - الغلطة الوحيدة - صوت من الفضاء :  
مسرحيتان علميتان - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٨ .
- ١٧ - دون كيشوت بين الوهم والحقيقة :  
من سلسلة دراسات أدبية - الهيئة المصرية العامة للكتاب ( وزارة  
الثقافة ) ١٩٨٩ .
- ١٨ - كاميلو خوسيه ثيلا :  
الفائز بجائزة نوبل في الأدب لعام ١٩٨٩ .  
من سلسلة المكتبة الثقافية - الهيئة المصرية العامة للكتاب ( وزارة  
الثقافة ) ١٩٩٠ .
- ١٩ - بلد التعليم :  
المركز الثقافي لجمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية ١٩٩٢ .
- ٢٠ - جرح في كرامة رجل :  
مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩٢ .
- ٢١ - باولو وفراتشيسكا :  
ترجمة ودراسة - من سلسلة المسرح العالى - وزارة الإعلام بدولة  
الكويت - ١٩٩٣ .

- ٢٢ - العجوز والبحر :  
ترجمة ودراسة - من سلسلة روايات جائزة نوبل - الدار المصرية  
اللبنانية - ١٩٩٤
- ٢٣ - الدراما الهيلىنية على خشبة المسرح ( باللغة الإنجليزية ) :  
القسم الثقافى بسفارة الينان - ١٩٩٥ .
- ٢٤ - دعوة إلى المسرح الإغريقى :  
القسم الثقافى بسفارة اليونان - ١٩٩٥
- ٢٥ - نساء من بارود :  
من سلسلة المسرح العربى - الهيئة المصرية العامة للكتاب ( وزارة  
الثقافة ) ١٩٩٧ .
- ٢٦ - سليمان الحلبي فى القاهرة :  
رواية تاريخية - مكتب النيل للطبع والنشر - ١٩٩٧ .
- ٢٧ - ثلاث أدبيات مبدعات :  
« فاطمة العلى - تونى موريسون - إقبال بركة » دراسة نقدية - دار  
نشر عيون جديدة - ١٩٩٨
- ٢٨ - رياح الشرق .. رياح الغرب :  
ترجمة ودراسة - من سلسلة روايات جائزة نوبل - الدار المصرية  
اللبنانية - ١٩٩٩ .



مكتبة و أرشيف الدولة  
Bibliotheca Alexandrina



0261308